دهاة العرب في الإسلام

- معاوية بن أبي سفيان.
- عمرو بن العاص.
- المغيرة بن شعبة.
- زياد بن أبيه.

د. محمد إبراهيم سليم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قديماً قال الرواة : الدُّهاةُ أربعة :

١ ـ معاوية بن أبى سفيان ـ للرَّوِيَّة .

٢ ـ عَمْرو بن العاص ـ للبديهة .

٣ ـ المُغيرة بن شُعبة ـ للمعضلات .

٤ ـ زِيَادُ بن أبيه ـ لكل كبيرة وصغيرة .

ومن يتأمل حياة أولئك الأربعة يجد أنهم بعد أن أسلموا أسندت إليهم مهامّ فى حياة النبى ـ ﷺ ـ وأبى بكر وأصبح لهم وجودُهم على الساحة العربية ، وتلَقَّوْا مبادىءَ الإدارة والسياسة على يد عمر ـ رضى الله عنه ـ وأنجزوا المهام التى أسندت إليهم وقاموا بها خير قيام .

وقد كان من أمرهم فيما بعد أنهم شغلوا الناس ، وواجهوا الفتن والأحداث فى خلافة عثمان وعلىٍّ ـ رضى الله عنهما ـ ثم وطدوا مُلْك بنى أمية حيث كانوا دعائم الدولة الجديدة من حول معاوية ، ولم يُفَرِّقهم إلا الموتُ حين لقى « عمْرو » ربه وهو والٍ على « مصر » من قِبَل معاوية سنة ٤٣ هـ وتبعه « المغيرةُ بن شعبة » وهو والٍ على « الكوفة » لمعاوية سنة ٥١ هـ ثم لقى زياد ربه وهو والٍ على « الكوفة » و « البصرة » معاً لمعاوية سنة ٥٣ هـ أما « معاوية » فقد ظل خليفة للمسلمين حتى سنة ٦٠ هـ .

ومهما يكن من شىء فإن من الصعب أن يحاول المرء متابعة « دُهاة العرب فى الزمان والمكان على ساحة امتدت من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد فارس والروم وحتى شمال أفريقيا منذ إسلامهم إبَّان حياة الرسول ـ ﷺ ـ ومواكبتهم عصر الخلفاء الراشدين وصدر بنى أمية ؛ فإنهم لم يكونوا مجردَ أشخاص ، وإنما كانوا دُهَاةً صنعوا التاريخ ، وتركوا بصماتِهم على صفحاتِه !

إن حياتهم لم تكن حياةً عادية ، فبينما هى تموج بالأسى والهول موجاً ، إذا هى تتفجر عظمة ودهاء وذكاء ، وغلبة وانتصاراً .

وسوف تجد أيها القارىء العزيز أنه ليس من هدفى أن أقدم تاريخاً ذا نهج مدرسى ، ولكننى كنت أبحث عن روح التاريخ فى الوقائع والأحداث حيث يلتقى الورع والدهاء والنصر والهزيمة ، والحلم والعزم ، والشدة واللين !! مُرَكِّزاً على إبراز ما كان لأولئك الأربعة من دهاءٍ فى الإدارة والسياسة !

أنت إذن أمام صور من هذا التاريخ تُبرز الدهاء العربى الذى نفتقده اليوم فى إدارتنا وسياستنا ! فعيب الكثيرين أنهم لا يفكرون إلا لوقتهم ، ولا ينظرون على المدى البعيد إلا إلى مواطىء أقدامهم ، مما كان له أثره فى تخلف مسيرتنا عن ركب الحضارة !

وعيب الكثيرين أنهم لا يفطنون إلى دهاء أعداء الأمة وحِيَلهم ، وألاعيبهم ، ونواياهم الشِّرِّيرة ، ومن هنا نراهم يسقطون فريسةً للأطماع ، ويُصْبحون ألعوبة حتى فى يد الرِّعاع من شُذَّاذ الآفاق ، وأصبحوا كما نرى كريشة فى مهب الرياح ، تلعب بها الأهواء ، وتحركها أنّى تشاء حتى صدق فيهم القول : إنهم كالأيتام فى مأدبة اللئام !

لقد فاتهم أن الزعامة الحقة تقوم على دِعامتين هما :

١ ـ بعد النظر فى استكشاف غوامض الأمور ، وهو ما نُسَمّيه « دهاء » أو كياسة .

٢ ـ أمّا الدعامة الثانية فهى : الاستقامة ، أو التقوى .

فإذا لم تجد « الحقائق أو المصالح » دهاءً يمحق دهاء الطامعين المبطلين المفسدين عَمِيَ على العامة أمرُها ، وظهرت الضلالة والسفاهة مكانها !!

ألم يقل السابقون فى تجاربهم :

« لا يَفلّ الحديدَ إلا الحديد » ، و « من لم يتذأّبْ تأكله الذئاب ! » ، و « إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً » ، و « لا تكن صَلْباً فتكسر ، ولا ليناً فتعصر » ؟!!

وقد يتوهم بعضهم أن الدهاء لا يجتمع مع سلامة الضمير ، والحرص على فعل الخير ! ، ولكنهم أخطئوا ؛ فلقد حذرنا الدين الحنيف من أن نُلْدَغَ من جحر مرّتين ، وأرشدنا إلى استعمال الفطنة ، فالمؤمن كَيِّسٌ فطن .

ويعتقد بعضهم أن العرب أبعد الأمم عن السياسة ، كما قال ابن خلدون فى مقدمته ، وفاتهم أنَّ مراده أن ذلك كان قبل أن يستضيئوا بحكمة الإسلام !!

فلما جاء الإسلام ساسوا الأمم ، وقادوا الشعوب ، ودانت لهم الفرس والروم !!

وفى تاريخنا الإسلامى نماذج لفن الدهاء تكشف عما وراءها من فهم للأمور ، وبعد نظر فى استكشاف غوامضها إلى جانب الاستقامة ، وإرادة الخير العام ومن يُقلّب صفحات التاريخ يجد أمثلة تُحْتَذى ومواقف مازالت تُرْتجى !

نقرأ فى تاريخ الفرس : أن سعد بن أبى وقاص أرسل « المغيرة بن شعبة » إلى « رستم » القائد الفارسى ، فأقبل حتى جلس معه على سريره ، فوثب إليه أتباع رستم وأنزلوه من السرير .

فقال المغيرة : إنا يامعشر العرب ، لا يستعبد بعضنا بعْضاً ، فظننت أنكم تتواسَوْن كما نتواسى ، وكان أحسن من الذى صنعتم ، أن تُخبرونى : أن بعضَكم أربابُ بعض !

اليوم علمت أنكم مغلوبون ، وأن مُلْكاً لا يقوم على هذه السيرة ، ولا على هذهَ العقول !

وإنما قصد « المغيرة » بما صنع ، وما قاله : تعليم القوم « المساواة » التى جاء بها الإسلام ليألفوه ، وإشعارهم بأنهم يعيشون تحت راية تلك الدولة عيش المستعبدين ليجنى من وراء هذا سقوط مكانتها من أنفسهم ؛ فلا يدافعون عنها من صميم أفئدتهم !

« إن القادة والسَّاسَة وممثلى الشعوب لا غنى لهم عن « الدهاء » فى السياسة وبخاصة أولئك الذين يقبضون على زمام « طوائف » اختلفت أهواؤهم سبلاً ، وتفرقت آراؤهم مذاهب .

فإذا رأينا السياسة فى عهد أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ تسير على مناهج من « العدل » واضحة فلأن الرئيس عادل ، ومعظم الأمة على سبيل من الهداية لا تختلف .

وماستقام الأمر لـ « معاوية » مع ما خالط الأمة يومئذ من التفرق فى الآراء إلا لأنه كان يسلك فى السياسة مسالك خفية ، ويركب لها من الطرق الوعرة ما لم يركبه الخلفاء من قبله[1]

ومعاوية هو الذى يقول : «لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، فقيل له : وكيف ذلك ؟

فقال : كنت إذا شدّوها أرخيتها ، وإذا أرخوْها شدَدْتُها .

و «عمرو بن العاص» الذى سمى «أرطبون العرب» هو الذى واجه «أرطبون الروم» على أرض فلسطين حتى هرب من وجهه إلى مصر فراح يغزوها ويلاحقه !

أنت إذن مع أربعة من الدهاة كان لهم شأنهم ! ولا عجب ؛ فقد عاشوا عهد الحروب الأهلية حول الحكومة الإسلامية لمن تكون ؟ وكيف تكون ؟ وعاصروا وقائع «الجَمَل» ، و «صِفّين» و «النَّهروان» حيث انتهت الأُوليان بإقرار الحكومة فى البيت الأموى ، أما الثالثة فقد أعقبت نشاط الخوارج الذى لم ينقطع بسرعة !

ومهما يكن من شىء فإننا سوف نتابع السلوك السياسى عنيفاً صارماً ، أو ليناً حازماً .

وسوف نواصل الخُطى لنقف على سياسة « مكعاوية » قطب الرحى آنئذ حيث يبدو لنا سياسياً ليّناً واسعَ الحلْم حسن التدبير سَمْحاً ، وقد ظهرت خلاله هذه مع رعيته وخصومه السياسيين ، وتأثر بها ولاته ، وعلى رأسهم :

---

(١) رسائل الإصلاح لشيخ الأزهر الأسبق محمد الخضر حسين .

«المغيرة بن شعبة» ومن بعده «زياد» بالعراق ، و «عمرو بن العاص» بمصر ، فاستطاع بذلك أن يمهد الحكومة لنفسه ولأسرته .

ويالها من متعة يعيشها القارىء مع أولئك الدهاة وقد جمعتهم الدنيا فلم يفرقهم إلا الموت . كيف كانوا يتصرفون ، وكيف كانوا يتعاملون ؟

قال زياد : ما غلبنى أمير المؤمنين إلا فى واحدة : طلبت رجلاً فلجأ إليه ، وتحرّم[1] به ؛ فكتبت إليه : إن هذا فساد لعملى !؛ إذا طلبتُ رجلاً لجأ إليك وتحرّم بك !

فكتب إليه معاوية : إنه لا ينبغى أن نسوسَ الناس بسياسة واحدة ، فيكون مقامنا مقام رجل واحد .

ولكن تكون أنت للشدة والغِلظة ، وأكون أنا للرأفة والرحمة ، فيستريح الناس بيننا !

ألم أقل لك : إنهم كانوا « مدرسة » فى الدهاء ، وأن كل واحد منهم كان له لونه وطريقته ؟ ! فلم يكن كل واحد منهم فى سياسته صورة « طبق الأصل » للآخر كما نقول فى تعبيرنا الحديث !!

لقد تعلموا من « معاوية » أنه لا ينبغى أن يسوسوا الناس بسياسة واحدة حتى لا يكون مقامهم مقام رجل واحد ، بل هذا للشدة والغلظة وذاك للرأفة والرحمة ، فيستريح الناس بينهم !

ومن عجب أنهم كانوا يتفاهمون ويتلاقَون على السياسة العامة للدولة تحت قيادة داهيتهم الأكبر « معاوية » !

وكم نحن بحاجة ماسة إلى دراسة أساليب الدّهاة الأربعة فى إضعاف الجماعة التى كانت تناوىء سُلْطَانهم ..

والتاريخ الإسلامى حافل بالدروس والمواقف التى تعيننا على مجابهة أعدائنا

---

(١) تحرم به : عاشره ، وماكله . وتأكدت الحرمة بينهما .

إن الإغراء بين كُبَراء الجماعات المناوئة بالعداوة يفصم رابطتهم ، ويوقع الخصومة فيما بينهم .

وهو مسلك قد يضطر إليه المصلحون فى تفريق الجماعة التى تتحالف على ما لا خير فيه .

ومن هذا القبيل ما فعله نُعَيْم بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ عندما تحالفت قريش وغطفان وبنو قريظة على حرب النبى ـ ﷺ ـ فى واقعة الأحزاب ، إذْ أَلْقَى بينهم ما تقطّع به حبل اجتماعهم على الباطل فانصرفوا خائبين ، وتراجَعَ الدّهَاءُ اليهودى مدحوراً أمام واحد من العرب استخدم دهاءه !!

« وقد يعمل الطامع فى الأمة الغافلة على هذا المسلك كما فى الفتن الطائفية حذرا من أن يتنبه شعورها فيجتمع أمرُها وتُوَجّه إليه قوتها فمن واجب الأمة التى يَرْبِطُها دين أو مصالح وطنية أن تؤكد أواصرَ الإخاء بينها وتجعل المصلحة العامة نُصْبَ أعينها !! »[1] .

ومن أساليب الدُّهاةِ فى القديم أن يسوسوا الجماعة الناشزة بأيدى رجال منهم ذوى حزم ودهاء .

قال عباد بن زياد يصف « زياداً » لعبد الملك بن مروان :

« قدم العراق ، وهى جَمْرةٌ تشتعل ، فسلّ أحقادهم ، وداوى أدواءهم[2] ، وضبط أهل العراق بأهل العراق » .

وهو أسلوب بعيد الشأو ظاهر الأثر قد يأخذ به ذوو السياسة الرشيدة لزيادة تأليف القوم ، وتأكيد الإخلاص فى نفوسهم .

ومثل ذلك ما حدث فى إرسال عمرو بن العاص وندبه لغزوة ذات السلاسل حيث كان أخواله يتأهبون للزحف على المدينة .

ومن الأساليب التى يتخذها الدُّهاة فى وسائل أخذ القوم إلى جانبهم بذل

---

(١) رسائل الإصلاح لشيخ الأزهر الأسبق محمد الخضر حسين .

(٢) جمع داء ، ويطلق على الأمراض النفسية والقلبية .

شيء من المال إلى ذوى النفوذ من رجالهم . وهو ما كان يفعله « معاوية » وبه استطاع مواجهة « علىّ » وأخذ شطر الخلافة على الرغم مما كان لعلى من المكانة الراجحة فى العلم والبيان ، والقرب من رسول الله ـ ﷺ ـ وبذل النفس وبلوغه ، أبعد غاية فى تقوى القلب[1] .

لقد أذن الإسلام فى صرف جانب من الزكاة لأناس قالوا : أسلمنا ، تأليفاً لقلوبهم ، واستدعاء لاطمئنان عقيدتهم . كما قال تعالى : ﴿ والمؤلفة قلوبهم ﴾ [التوبة : ٦٠] .

إن القوة وحدها لا تستطيع أن تُخمد كل فتنة ، فللدهاء مواضع يظهر فيها فضله على القوة .

منها : دفع الخطر الذى يتراءى شبحه من بعيد بحيث لا يشعر به إلا البصير بما وراء الخير من شرور ، فقد يكون استعمال القوة فى الشر المتوارى موضع إنكار أو مثار فتنة ، أما الدهاء فيرده ، والنفوس مطمئنة والفتن نائمة .

لا غنى لنا : إذاً عن الدهاء فى جو يسوده الصراع العالمى ، وتتنازعه المطامع والأهواء ، ويحرك سياسته أساطين الدهاء ! يحتاج الولاة إلى الدهاء فى سياسة الجماعات واستبانة الحقوق ويحتاج إليه العلماء فى الدعوة إلى الخير فقد تأتى المواجهة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بعكس ما يريد الداعية !

وينتفع الرجل من دهائه عند لقاء الطبقات المختلفة يزن عقول من يلاقونه ويحسّ ما تكنّ صدورهم وتنزع إليه نفوسهم .

وزُبْدة الثقافة كلها فى أقطاب الحكم ، وعظماء الرجال ، إنما تتلخص فى شيء واحد هو : الدراية بالناس ، ونفاذ البصيرة فى شئون الدنيا ، وصدق الخبرة فى دخائل النفس البشرية ، وهو ما نسميه فى أيامنا هذه بـ « الرأى السليم ، والحكمة العملية » .

وكان علىَّ أن أسلك فى سبيل إبراز هذا الجانب الطريق الذى يجعل من الشخصية محوراً تجتمع حوله أقوالها وأخبارها ، بحيث يضم ما تناثر من هذه

---

(١) رسائل الإصلاح لشيخ الأزهر الأسبق محمد الخضر حسين .

الأقوال فى المراجع المختلفة ، فلا يكاد القارىء يفرغ منها حتى يجد لها فى ذهنه صورة واضحة مرتسمة .

إن تجميع الأقوال والأخبار بعضها إلى بعض مما يعين القارىء على تكوين فكرة واضحة عن الشخصية ، وصورة كاملة لها .

وهذا ما أهدف إليه لتكتمل الصورة بين يدى أولئك الذين يتولّون أمورنا ، ويقودون خطانا ، ويواجهون كل يوم دهاة من أعداء الأمة ، علّهم يكتسبون من الدهاء ما يمكنهم من التغلب على دهاء الأمم الأخرى ، كما تغلب أولئك الدهاة على الفُرس والروم !

وقد يقال : إن جودة النظر فى الأمور ، وتقدير وسائل الخير إنما يعود إلى الألمعية وهى موهبة إلٰهية ! فالألمعىّ يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمع !

لكنا نقول : إن التدبر فى سير أعاظم الرجال ، والنظر فى مجارى الحوادث باعتبارٍ مِمّا تَقوى به خَصْلةُ الدهاء لدى الناشئين من الأبناء .

لهذا كان من واجب المربين والقائمين على تربية النشء أن يصرفوا العناية إلى تغذيتهم بالحديث عن دُهاة الرجال وتنبيههم لما دبروه من وسائل يبتغون بها إصلاحاً أو شرفاً !

ومن حقهم أن يلاحظوا الحوادث التى تظهر من ناحية عرفت بالدهاء ، فيكشفوا غطاءها ، ويقفوهم على بطائنها ؛ ذلك لأننا نريد أن نعد للمستقبل ناشئة تستقيم على هدى الله ، وتخوض معارك الحياة بكياسة وفطنة وفراسة وألمعية تبصر بها مواقع الخير والشر ، فمن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه !

وعلى قدر ما يكون فى دعاة الشعب وقادته من دهاء وتقوى يعلو شأنهم وتستقر حياتهم ، وتثبت فى مواقف الجهاد أقدامهم ، وتتقدم مسيرتهم نحو الرقى والحضارة والخير والسلام .

محمد إبراهيم سليم

القاهرة الكبرى فى : شوال ١٤١٠ هـ
مايو ١٩٩٠ م

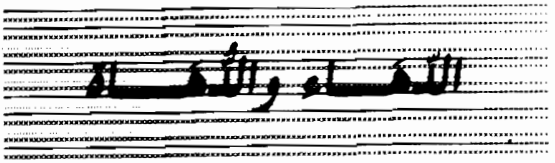

- قيمة الوعى التاريخى .
- صناعة الرجال .
- كلمة لابد منها !

قيمة الوعى التاريخى

يقول العلامة ابن خلدون فى مقدمته :

«فن التاريخ : فن عزيز المذهب ، جمّ الفوائد ، شريف الغاية ، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم ، والأنبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم ، حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومُه فى أحوال الدين والدنيا ... » .

[ابن خلدون]

صناعة الرجال

حسن سياسة الرسول ـ ﷺ ـ

فى البدء نتحدث عن المنبع ـ عن كنز حكمة والحلم .. عن رائد المدرسة الإسلامية فسوف تظل سياسة الرسول ـ ﷺ ـ هى السياسة الأم التى نستضىء بهديها على مر الأيام .

فلقد كان الرسول ـ ﷺ ـ سياسياً حكيماً ذا رأى صائب وفكر ثاقب ، وقد تلقى أصحابه على يديه دروس الحكمة .

وقد بدت مهارته السياسية فى التأليف بين أهل المدينة ، وهم الأوس والخزرج ، كما ظهر ذلك جلياً فى تصرفاته التى كان يُصْدرها على البديهة ، ويخرج بها من أشد المآزق حرجاً .

روى ابن هشام[1] أن الرسول ـ ﷺ ـ أمر ـ عندما تفاقمت روح العصبية بين الأنصار والمهاجرين فى غزوة المريسيع[2] ... حتى قال عبد الله بن أبىّ بن سلول : لَيُخْرِجَنّ الأعزُّ منها الأذلّ ـ بالارتحال ، وسار فى وسط الظهيرة ، ولم يُرح الجيش حتى وصل إلى المدينة ، لكيلا يترك للرجال فرصة الجدال والخصام ، وهم بعيدون عن مدينتهم ، كما رفض ما عرضه عليه عمر من قتل ابن سلول رأس النفاق[3] ، وسبب تلك الفرقة ، وترفق بابنه عبد الله ، إذ طلب إليه أن يأذن له

---

(١) ج ٣ ص ١٣٥

(٢) وتسمى غزوة بنى المصطلق وقد كانت فى شعبان سنة خمس على الصحيح .

(٣) حيث قال له فى الحديث المتفق عليه «دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» صحيح البخارى : كتاب التفسير ، وصحيح مسلم : كتاب البر والصلة .

بقتل أبيه إذا أراد ، فقال له الرسول ـ ﷺ ـ: « **بل نترفق به ، ونُحْسِنُ صحبتَه ما بقى معنا** »[1] ؛ فكان ابن أبى هذا إذا أحدث حدثاً بعد ذلك عاتبه قومه ، وعنفوه ، وقد قال رسول الله ـ ﷺ ـ لعمر بن الخطاب يوماً : كيف ترى ياعمر ! أما والله لو قتلته يوم قلت لى : اقتله ، لأرعدت له أُنُف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته .

كما ظهر ذلك أيضاً فى الانتفاع بحسن صلة «نُعيَم بن مسعود بكلّ من : قريظة ، وقريش ، وغطفان فى الإيقاع بينهم ، وتخذيل بعضهم عن بعض حتى أذن الله ، وأزال عن المدينة خطراً داهماً ، كما أشرت إلى ذلك فى المقدمة ! وانهارت كل أساليب اليهود والمنافقين أمام حكمته ـ ﷺ ـ وسار الصاحبان على نهجه من بعده ، وكان عمر ـ رضى الله عنه ـ الحاكم الذى بهر الناس جميعاً فى الشرق والغرب ، ودرب الدهاة الأربعة على أساليب الإدارة والسياسة ، فكان لهم شرف معاصرته ومعاونته .

وربما تساءل السائلون :

كيف تَمَّ هذا التدريب ؟

وكيف تسنّى لأولئك الدهاة الأربعة أن يتلقوا مبادىء الحكم حتى أصبحوا حديث الدنيا ؟ !

فتعال نتابع خطاهم بحثاً عن الإجابة الشافية !!

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبى بلفظ «بل نحسن صحبته ونترفق به ما صحبنا» .

▣ الدهاة الأربعة يتلقون مبادىء الحكم ▣
على يد الخليفة العادل عمر !!

لولا البعثة المحمدية ما سمعنا بعمر الذى يقترن اسمه بدولة الإسلام ، ودولة الفرس ، ودولة الروم ، فهو وليد الدعوة المحمدية .

وما أشد حاجة العُمّال والولاة والمحافظين فى عصرنا هذا إلى القدوة .. إلى المثل الذى يتَلَقَّون عنه دستور الحكم العادل ، ويحذون حذوه ، وينفذون مبادئه !

وقد عاصر الدهاة الأربعة عمر بن الخطاب ، وكانت متابعته لهم ، ورَسَائله إليهم كفيلة بتحقيق الأهداف ، والسير على منهاج عمر !، وإصلاح المسيرة إن هى انحرفت عن الطريق !

لقد مر عمر ـ رضى الله عنه ـ فى طريق ، فوجد بناء يُبْنى بالحجارة والجِصّ ، فسأل : «لمن هذا ؟ فقيل له : إنها لعاملك على البحرين !»

فصاح : «الله أكبر . أبت الدنانير إلا أن تُخرْج أعناقها !! ضُمُّوا كل هذا إلى بيت المال !!» .

وهكذا كان عمر المثل والقدوة لهؤلاء الأربعة ولغيرهم فى السياسة والحكم ، والنزاهة والعدل ، وإليك البيان ..

◄ عمر ومعاوية :

١ ـ يكتب عمر بن الخطاب إلى «معاوية فيقول بعد التمهيد : الزم خمس خصال يَسْلم لك دينك ، وتأخذ فيه بأفضل حظِّك :

- إذا تقدّمَ إليك الخصمان ، فعليك بالبينة العادلة ، أو اليمين القاطعة .
- وأَدْنِ الضعيفَ حتى يشتدّ قلبُه ، وينبَسِطَ لسانُه .
- وتَعَهّدِ الغريبَ ، فإنك إن لم تتعَهَّدْه ترك حَقَّه ، ورجع إلى أهله ! وإنما ضيّعَ حَقّه مَن لَّم يرفق به !

● وآسِ بين الناسِ فى لحظك وطرفك[1] .

● وعليك بالصُّلح بين الناس ، ما لم يَسْتَبِن لك فصلُ القضاء » .

إن آفة الحكمِ تتمثلُ فى الموقف من الضعيف والغريب ، وقد كان عمر ـ رضى الله عنه ـ يعرف أن ناساً تضيع حقوقُهم بسبب الغربة والضعف .

وكان يدرك أن القضاة ينخدعون بزخرف القول ، وأن الضعيف قد يتلَجْلَجُ لسانُه ، فيضيع حقه .

وأن الغريب قد يتهيب الموقف ، فلا يكادُ يبين !

وهذه الكلمة العالية التى وجهها عمر إلى معاوية : « آسِ بين الناس فى لحظِك وطرْفك » تشهد بما كان يعرف عمر ـ رضى الله عنه ـ من أسرار النفوس !

وهكذا تلقى معاوية الدرس الأول فى الحكم على يد الخليفة العادل الذى لُقّب بالفاروق لمعنًى من معانى العدل فى القضاء ؛ فإن أمور الحكم لم تستقم له مصادفة واتفاقاً ، وإنما قام ملكه على العدل .

◄ عمر والمغيرة :

٢ ـ أما « المغيرة بن شعبة » فقد روى الطبرى فى تاريخه عن سعيد بن عمرو أن « عمر بن الخطاب » قال قبل أن يستعمل « المغيرة بن شعبة » على الكوفة[2] : « ما تقولون فى تولية رجل ضعيف مسلم ، أو رجل قوىّ مشدّد ؟! » .

فقال المغيرة : أما الضعيف المسلم ؛ فإن إسلامه لنفسه ، وضعفه عليك !

وأما القوى المشَدّدُ فإن شداده لنفسه ، وقوته للمسلمين .

قال عمر : « فإنَّا باعثوك يامغيرة »[3] .

فكان المغيرة عليها حتى مات عمر ـ رضى الله عنه ـ، وذلك نحواً من سنتين وزيادة .

فلما ودّعه عُمرَ للذهاب إلى الكوفة قال له : « يا مغيرة ، ليأمَنْك الأبرار ، ولْيَخفْكَ الفُجّار » .

---

(١) نظراتك إليهم .

(٢) تاريخ الطبرى : [٤/١٦٥] . (٣) أى : مُوَلّوك .

وهكذا كان عمر يصنع الولاة على عينه ، ويدربهم على يديه ، ويتعهدهم بالنصح ، ويتابع خطاهم ويتلقى أخبارهم ، ويعرف «خطّ سيرهم» .

عمر وعمرو بن العاص :

٣ ـ وتلقى «عمرو بن العاص» دروس الحكم على يد عمر ـ رضى الله عنه ـ

لقد سمع عُمَر أن خارجة بنَ حُذافة بنى غُرفة بمصر ـ والغُرفة لا تكون فى الدور الأول ـ فكتب إلى عمرو بن العاص : «سلام عليك ، أما بعد .. فإنه بلغنى أن خارجة بن حُذافة بنى غرفة أراد بها أن يطّلع على عورات جيرانه ، فإذا أتاك كتابى هذا فاهْدِمْها ، إن شاء الله . والسلام» .

وإذا كانت المدنيّة الحديثة تنكر ما أشار به عمر بن الخطاب باسم الحرية ، فكم كانت نوافذ الغرفات باباً من الشر ، ومثاراً للفتون !!

وعمر كان حريصاً هو وولاته على إغلاق أبواب الشر ، فبارك الله فيمن كان مفتاحاً للخير مِغْلاقاً للشر !

وإذا كان أمير المؤمنين «عمر» لم يعمّر طويلاً بعد فتح مصر ، فقد توفى صريعاً بخنْجر أبى لؤلؤة (فى ذى الحجة سنة ٢٣ هـ ـ ٦٤٤) . أى : لثلاثة أعوام فقط من الفتح ـ فإنه اختصّ مصر بعنايته فى تلك الفترة القصيرة من حكمه ، وكان دائم الاهتمام بشئونها ، وتنظيم إدارتها ، وعهد بولايتها إلى فاتحها «عمرو بن العاص» ، فكان أول ولاتها من المسلمين ، وقامت الفسطاط أول عاصمة إسلامية فى مصر عقب الفتح مباشرة .

وأبدى عمرو فى تنظيم الإدارة الجديدة براعة فائقة ، واتبع نحو الرعايا الجدد سياسة الرفق المقرون بالحزم ، وأحصيت موارد مصر وثرواتها بدقة ، وفرضت على شعبها الجزية ، وكان فرضها عقب الفتح بطريق الصلح على أن يدفع كل رجل جزية قدرها ديناران .

وإن المساجلات والمكاتبات التى وقعت بين أمير المؤمنين عمر ، وعمرو بن العاص فى تلك الفترة القصيرة لتدل على ما كانت تتمتع به الخلافة فى عهد عمر من طابع ديمقراطى عميق تدعمه سُلْطة حازمة !

فعندما طال حصار الاسكندرية مثلاً كتب عمر إلى عمرو ما يأتى : «... أما بعد .. فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر !! إنكم تقاتلون منذ سنتين ، وماذاك إلا لما أحدثتم ، وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم ! وإن الله ـ تبارك وتعالى ـ لا ينصر قوماً إلا بصدق نِيّاتِهم» .

ولما أبطأ «عمرو» فى تقديم خراج مصر فى الموعد المحدد ، كتب إليه عُمر يعزّرُه ، ويؤنّبه ، ويقول : «أما بعد .. فقد عجبت من كثرة كتبى إليك فى إبطائك بالخراج ، وكتابك إلىّ ببُنَيّات الطرق[1] . وقد علمت أنى لست أرضى منك إلا بالحق البيّن .

ولم أُقْدِمك إلى مصر أجعلها لك طُعمة ، ولا لقومك ، ولكنى وجهتك لِمَا رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك ، فإذا أتاك كتابى هذا ، فاحمل الخراج ؛ فإنما هو فىء المسلمين» .

فكتب إليه «عمرو» : «... أما بعد .. فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج ، ويزعم أنى أحيد عن الحق ، وأنكب عن الطريق ! وإنى ـ والله ـ ما أرغب عن صالح ما تعلم ، ولكن استَنْظَرونى[2] إلى أن تُدْرَك غلتهُم ، فنظرت للمسلمين ، فكان الرفق بهم خيراً من أن يخرج بهم ، فيصيروا إلى بيع ما لا غنى عنه . والسلام» .

وهكذا كان عمر يعامل ولاته وعماله وعلى رأسهم عمرو بن العاص .

أليس الفاروق عمر هو الذى خطب يوماً فقال .

أيها الناس :

«إنى ـ والله ـ ما أرسل عُمّالاً إليكم (أى : وُلاة) ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكنى أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم ، وسنتكم .

فمن فُعِل به شىء سوى ذلك فليرفعه إلىّ ، فوالذى نفس عمر بيده لأُقِصَنَّه منه ! » .

---

(١) بنيّات الطرق : مفردها بُنيّة الطريق : وهى طريق صغير يتشعب من الجَادّة .

(٢) طلبوا منى أن أنظِرهم إلى حين .

فوقف عمرو بن العاص ، وقال :

«ياأمير المؤمنين ، أرأيت إن كان رجل من أمراء المسلمين أدّبَ رعيتَه أئنك لَمُقتَصُّهُ منه ؟» .

فقال عمر : «إى والذى نفسُ عُمَر بيده ، إنى لَأُقِصَّنَّهُ منه !، وكيف لا أقصه منه ، وقد رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ يُقِصّ من نفسه[1] ؟!» .

إن هذه الوثائق وأمثالها توضح روح الخلافة ـ فى عهد عمر ـ إنها روح ديمقراطى حازم ، وروح لا مركزية مستنيرة ، وقد كان «عمرو» والياً وعاملاً من عمال الخلافة ، ولكنه كان يتمتع بسلطة شبه مطلقة ، بيد أن عبقرية الخليفة الشاملة كانت ساهرة توجه بإشرافها الفَطِن سلطة الولاة إلى ما فيه خير الشعوب المحكومة ، وخير الخلافة الإسلامية .

وقد استفادت مصر ـ فيما بعد ـ من هذه القاعدة المستنيرة فى توزيع السلطات ، واستطاعت أن تتمتع فى ظل الخلافة بنوع من الحكم الذاتى ، وأن تحافظ على هذا الامتياز حتى قامت بها الدول الإسلامية المستقلة فيما بعد .

ولقد كانت عين عمر ـ رضى الله عنه ـ على ولاته ، وإليك ما دار بينه وبين عمرو بشأن إنصاف الرعية .. بشأن ابن الأكرَمَيْن الذى ضرب مصرياً !

(١) مسند أحمد الجزء الأول حديث رقم [٢٨٦] وفيه طول . وإسناده حسن .

◄ «معاوية ابن أبى سفيان كسرى العرب» .

[عمر بن الخطاب]

◄ «لو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج منها إلا بالمكر ؛ لخرج المغيرة من أبوابها كلها» .

[قبيصة بن جابر]

◄ (زياد بن أبيه) «لله درُّ هذا الغلام !! لو كان قرشياً لساق الناس بعصاه !!» .

[عمرو بن العاص]

▣ عمرو بن العاص وعمر بن الخطاب ▣

كم كان عمر ـ رضى الله عنه ـ يود أن يستكمل الرقابة على الولاة والعمال بالسير فى البلاد ، فيقيم شهرين فى الشام ومصر والبحرين والكوفة والبصرة وغيرها ؛ فإنه ليعلم « أن للناس حوائج تقطع عنه ، أما هم فلا يصلون إليه ، وأما عمالهم فلا يرفعونها إليه » .

فإذا وصل إليه شىء من تلك الشكايات فإنه يحقق ثُمّ يكون الجزاء على شِرعة المساواة بين أكبر الرعية وأصغر الرعية ، فمن ضَرَب ضُرِب ، ومن غصب ردّ ما غصب ! ومن اعتدى قوبل بمثل اعتدائه ، وعليه زيادة التأديب وقد يأْخُذُ الوالىَ أحياناً بوِزر ولده أو ذوى قرابته إذا وقع فى نفسه أنهم يستطيلون على الناس بسلطان الولاية ، ولا ينهاهم الوالى المسئول عنها !!

جاء مصرى فشكا إليه واليها عمرو بن العاص ، وزعم أن الوالى أجرى الخيل ، فأقبلت فرس المصرى ، فحسبها محمد بن عمرو فرسه وصاح : «فرسى ورب الكعبة !» .

ثم اقتربت ، وعرفها صاحبها ، فغضب محمد بن عمرو ووثب على الرجل يضربه بالسوط ، ويقول له : خذها وأنا ابن الأكرمين .

وبلغ ذلك أباه فخشى أن يشكوَه المصرىُّ فحبسه زمناً ومازال محبوساً حتى أفلت ، وقدم إلى الخليفة لإبلاغ شكواه .

قال أنس بن مالك راوى القصة :

فوالله مازاد عمر على أن قال له : اجلس .. ثم مضت فترة إذا به فى خلالها قد استقدم عمراً وابنه من مصر فقدما ومثلا فى مجلس القصاص .

فنادى عمر : أين المصرى ؟ دونَك الدِّرّة فاضرب بها ابن الأكرمين .

«فضربه حتى أثخنه ، ونحن نشتهى أن يضربه ، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه !

وعمر يقول : اضرب ابن الأكرَمَيْن ؟

ثم قال :أَجِلْهَا[1] على صلعة عمرو ! فوالله ما ضربك ابنه إلا بفضل سلطانه !

قال المصرى فزعاً : ياأمير المؤمنين ، قد ضربت من ضربنى !! فقال عمر : أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه !

والتفت إلى عمرو مغضباً يقول له تلك القولة الخالدة التى ما قالها حاكم قبله : أيا عمرو ! متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟! » .

وهكذا كان عدل عمر فى الولاية والقضاء دستوراً للولاة على مر الأيام !

▣ استدعاءٌ ثانٍ ! ▣

ومن هذا القبيل فى متابعة الولاة ما ذكره المؤرخون من محاسبة عمر لولاته : بلغ عمر ـ رضى الله عنه ـ أن عمرو بن العاص عامله على مصر ، قد بدت عليه ، وعلى أهله أمارات الغنى ، واجتمع لديه متاع ، ورقيق[2] ، وآنية ، وحيوان لم تكن له عندما ولى مصر !

فاستقدمه ، وسأله فى ذلك ، فقال : «إنها ياأمير المؤمنين أثمان خيل تناتجت[3] ، وسهام[4] اجتمعت ، وثمرة اقتصاد طويل ...» .

فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ:

«انظر رأسَ مالك ، ورزقك فخذهما ، ورُدّ الباقى إلى بيت مال المسلمين» .

وهكذا كانت عين عُمَر ـ رضى الله عنه ـ على وُلاته ، فكان علمه بمن نأى[5] منهم كعلمه بمن بات معه فى مهادٍ واحد ، وعلى وسادٍ واحد .

وهكذا تلقى عماله وولاته مبادىء الحكم السليم على يد عمر» .

◄ عمر وزياد :

ولم يكن اختيار عمر للدهاة الأربعة من فراغ ، وإنما كان بعد اختبار وابتلاء

---

(١) حركها وجُل بها .
(٢) عبيد .
(٣) توالدت .
(٤) أنصبة لى من الفتح .
(٥) نأى : بعد .

وإيمان بصلاحية كل منهم للقيادة .

ولا شك أن «زِياداً» كان من رجال الدولة العربية المعدودين من أهل السياسة .

وقال عنه المؤرخون والباحثون : إنه أخذ عن ـ عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ مبدأ القوة فى غير عنف ، واللين فى غير ضعف ! وإن كان قد اضطرته الظروف القاسية التى مر بها إلى تجاوزات أُخِذَت عليه ! حتى وصفه بعضهم بالطاغية !

لكنه على كل حال كان رائداً من رجال الإدارة الذين نقلوا الدولة العربية من الحال التى طرأت عليها فى نهاية عهد الخلافة الرشيدة وأعطوها طابع الاستقرار والنظام .

فكيف تدرج زياد فى وظائف الإدارة ، وكيف تألق نجمه ؟!

يقول التاريخ : لما كانت سنة ١٤ للهجرة ، ووجه عمر «عتبة بن غزوان» إلى «الأُبُلَّة»[1] وجنوبى العراق ، ليكون رِدْءاً لـ «سعد بن أبى وقاص» ، كان الفتى «زياد» فيمن انتدب للخروج معه ، وكان هو الذى يقسّم لهم الغنائم ، ثم ولى لسعد ديوانه ، فكان هو الذى يكتب الناس ويدونهم .

مهمة جديدة :

فلما فتحت« جَلُولَاء »سنة ١٦ هـ بعث سعد بأخماس الغنائم إلى «عمر» ، وبعث بالحساب مع «زياد» ، وكلفه استئذان الخليفة فى الانسياح فى أرض فارس .

فلما قدم الوفد المدينة كلم «زيادٌ» عُمَر فيما جاء له ، وأُعجب الخليفة بذكاء الفتى الناشىء ، وفصاحة لسانه ، وقوة جَنانه ، وأحب أن يزيد من اختباره ، فسأله :

« هل تستطيع أن تقوم فى الناس بمثل الذى كلمتنى به » ؟!

---

(١) بلد قرب البصرة .

فأجاب الفتى : « **والله ما على وجه الأرض رجل أهيب فى صدرى منك ، فكيف لا أقوى على هذا مع غيرك ؟!** » .

فلما كان الغد ، قام فى الناس فتكلم بما أصابوا من الغنائم ، وبما صنعوا ، وبما يستأذنون فيه من الانسياح فى بلاد فارس ، فازداد عمر إعجاباً به وقال : « هذا الخطيب المِصْقَع ! » .

ولم يكن الإعجاب مقصوراً على عمر ، بل لقد أعجب بزياد كل من سمعه يومئذ من أكابر الصحابة حتى قال عمرو بن العاص : « **لو كان هذا الفتى من قريش لساق العرب بعصاه !** » .

ويقال : إن «أبا سفيان» همس فى أذنه بقوله : إنه هو أبوه حقاً ، ثم عاد «زياد» بعد ذلك إلى العراق . فلما مُصِّرت البصرة سنة ١٦ هـ نزلها «زياد» فيمن نزلها من ثقيف ، واتخذها مقراً مدى حياته بوجه عام .

يد لا تنسى !

ولما ولى عمر «المغيرة بن شعبة» على البصرة سنة ١٦ هـ ، ورُمِىَ المغيرة بما رُمِىَ به ، وهمّ عمر برجمه ، لم يُنْجه من الهلاك إلا شهادة شهدها «زياد» ، ولم يقطع فيها ، فكانت تلك الشهادة سبباً فى دَرْءِ الحَدّ عنه .

وقد حفظ «المغيرة» لزياد تلك اليد مدى حياته ، وانعقدت بينهما أواصر المودة والصداقة !

قدومٌ مبارك :

ولما طعن أهل البصرة على أميرهم «أبى موسى الأشعرى» سنة ٢٣ هـ محتجين بأنه فوض أمر البصرة إلى «زياد» ، وهو بعدُ فتًى حَدَث ليست له سِنٌّ ولا تَجْرِبة !

فرد عليهم أبو موسى بقوله : إنى وجدت له نُبْلاً ورأياً ، فأسندت إليه عملى .

وقد قبل عمر ـ رضى الله عنه ـ قول «أبى موسى» متأثراً لا شك بالصورة

---

(١) المِصْقَع : البليغ الذى يتفنن فى مذاهب القول .

التى أخذها عن «زياد» يوم قدومه عليه من قِبَل سعد بأخماس الغنائم .

ولكن عمر ـ رضى الله عنه ـ أحب أن يتحقق بنفسه إلام صار ذلك الشاب فى مدى سبع سنوات ؟!

فأمر « أبا موسى » أن يُشْخِص إليه «زياداً» ، وقدم زياد على عمر قدمته الثانية ، وقام بباب عمر !

فلما خرج عمر وجد شاباً حسن الهيئة ، له ذؤابة ، وعليه ثياب بيض من كَتّان ، فابتدره بقوله : ما هذه الثياب ؟ فأخبره زياد .

فقال : كم ثمنُها ، فأخبره زياد بشيء يسير ، وصدقه عمر . ثم قال له : كم عطاؤك ؟

قال : ألفان . قال : ما صنعت فى أول عطاء خرج لك ؟

قال : اشتريت والدتى[1] فأعتقتها ، واشتريت بالثانى ربيبى عبيد[2] فأعتقته .

قال الخليفة : وُفّقت !

ثم اختبر «عمر» قدرته على الكتابة ، فأمره أن يكتب فى معنى واحد ثلاثة كتب مختلفة العبارة ، فكتب زياد ثلاثة كتب بليغة أعجب بها عمر .

ثم سأله عن الفرائض والسنن ، والقرآن فوجده فقيهاً ، فرده إلى «البصرة» ، وأمر أمراءها أن يسيروا برأيه !

وهكذا لم تخب فراسة عمر فى ذلك الشاب منذ رآه عند قدومه عليه بأخماس «جلولاء» لسبع سنوات خلت .

ولم تزده الأيام إلا ثقة به واطمئناناً إليه ، كما أن هاتين القَدْمَتَين غرستا فى قلب زياد إكباراً وتجلة لذلك الخليفة ، جعلته يرى فيه مثله الأعلى الذى يتأثره ويقتدى به .

◄ استخلاف زياد على البصرة !

ولما توجه والى البصرة عبد الله بن عامر من قِبَل عثمان ـ إلى خُراسان غازياً

---

(١) والدته : سمية .

(٢) زوج سمية ومن ربى فى حجره .

«سنة ٣١» استخلف زياداً على البصرة فقام بأمرها فى غيبته خير قيام على الرغم من ثقل المسئولية وتبعاتها فى ذلك الوقت .

وإذا كان «زيادٌ» قد اعتزل الفتنة واستخفى فى بعض دور «البصرة» إلا أن علياً ولاه خراج «البصرة» ، وأصبح من أشد العمال ولاءً له حتى قتل على فأصبح وجهاً لوجه أمام معاوية ، وهنا استماله معاوية وألحقه بنسب أبى سفيان ، فكان من ولائه لمعاوية ما كان !!

وتبقى « كلمة لابد منها » قبل أن نبدأ المسيرة مع « الدهاة الأربعة » واحداً بعد الآخر ..

فتعال نتفق على ما تضمنته تلك الكلمة من مبادىء تستريح لها نفس المسلم ويطمئن قلبه ، ويعف لسانه !

▣ كلمة لابد منها !! ▣

نعم .. هذه كلمة لابد منها قبل أن نواصل المسيرة ونشهد الصراع على الساحة فلا يكاد يخامرنا ـ نحن المسلمين ـ شك فى أن الخلفاء الراشدين قاموا بخلافة النبوة على أكمل وجه أمكن !

وإذا لاحظنا اليوم أنه وقع من بعضهم شيء فهو منهم محض اجتهاد .

والمجتهد يُصيب ويُخطيء ، والسياسة صعبة المراس على كل الناس ، وما كان للبشر أن تجيء أعمالهم تامّةً من كل وجه !

ومن المؤلم أن يستغلّ هذه الحوادث المُرْمِضَة[1] فى سبيل الخلافة أناس عزّ عليهم أن يُقوّضَ العرب ـ بالإسلام ـ عرش ملوكهم وهم الفرس ، فيندسون فى الغمار ، ويتخذون من آل البيت تُكأة ، ويزعمون لعلى ـ رضى الله عنه ـ أنه بُغى عليه منذ أول يوم ، ويدعون له العصمة على نحو ما كان أجدادهم يدعونها لملوكهم من المجوس ، وأن يكون من عبد الله بن سبأ وأمثاله ممن تظاهروا بالإسلام ما كان من الدعاية لتأليب الناس على عثمان ، وكان من أثر دعايتهم تمزيق الأمة طرائق قِدَداً ؛ وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد طهر من هذه الفتنة سيوفنا أفلا نطهر منها ألسنتنا ؟! . إنَّ من يقرأ منهاج السنة للإمام ابن تيمية يجد كلمة حق تطِلّ علينا ونحن نستعيد الأحداث ونحلّق فى أجواء «الفتنة الكبرى» لتبرز مواطن الدهاء .. تُرى ماذا قال الإمام فى شأن على ومعاوية ؟!!

يقول الإمام ابن تيمية فى منهاج السنة :

تولى علىّ والفتنة قائمة ، وهو عند كثير منهم ملطخ بدم عثمان ، والله يعلم براءته مما نسب إليه الغالون فيه ، والمبغضون لغيره من الصحابة ، فإن «عليًّا» لم يُعِن علَى قتل «عثمان» ، ولا رضى به ؛ كما ثبت عنه ـ وهو الصادق ـ أنه قال ذلك ، فلم تصْفُ له قلوب كثير منهم ، ولا أمكنه هو قهرهم حتى يطيعوه ، ولا اقتضى رأيه أن يكف عن القتال ، وظن أن به تحصل الطاعة والجماعة ، فما زاد الأمر إلا شدة ، وجانبه إلا ضعفاً ، وجانب من حاربه إلا قوة ، والأمة إلا

(١) الموجعة المحرقة !

افتراقاً ، حتى كان فى آخر أمره يطلب هو أن يكف عنه من قاتله ، كما كان فى الأول يُطلب منه الكف .

وضعفت «الخلافة» ضعفاً أوجبت أن تصير «ملكاً» ، فأقامها معاوية ملكاً برحمة وحلم .

ولم يتولّ أحدٌ من الملوك خيراً من «معاوية» ؛ فهو خير ملوك الإسلام ، وسيرته خير من سلوك الملوك بعده .

فتعال بعد هذا إلى معاوية لنقف على شيء من دهائه ، وفى أذهاننا كلمات الإمام ابن تيمية . تصاحبنا فى مسيرتنا مع الدهاة الأربعة أنى اتجهنا .

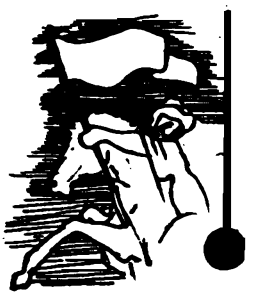

دُهَـاةُ العَـرَبِ فى الإسـلام

« ١ »

معاوية بن أبى سفيان للرُّوِيَّة

«هذا كِسْرى العرب !»

[عمر بن الخطاب]

الرأى والشجاعة

الرأىُ قبلَ شجاعـةِ الشُّجْعَـانِ
هُوَ أوّلٌ وهـىَ المحَـلّ الثـــانى
ولَرُبّمَـا طعـنَ الفتـى أقرانـــه
بالـرأى قبـل تطاعُـــنِ الأَقرانِ

[أبو الطيب المتنبى]

معاوية بن أبى سفيان فى سطور

(٤٠ ـ ٦٠ هـ = ٦٦٠ ـ ٦٨٠ م)

هو معاوية بن أبى سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد مناف القرشى الأموى أمير المؤمنين .

أسس الدولة الأموية التى دان لها المسلمون زهاء ، ثمانين سنة (٤٠ ـ ١٢٢ هـ) .

وهو ينتسب إلى أمية ، وكان «أمية» من سادات قريش فى الجاهلية ؛ وكان فى الشرف والرفعة كما كان عمه هاشم بن عبد مناف ، لهذا لا نعجب إذا تنافس هذان البطنان رياسة قريش مما أدى إلى قيام العداء بينهما فى الجاهلية والإسلام .

وكان أمية تاجراً كثير المال والعِيال ، فكان له عشرة أولاد امتازوا بالشرف والسيادة منهم : حرب ، وسفيان ، وأبو سفيان ، وكان «حرب بن أمية» قائد قريش يوم الفِجار ، كما قاد أبو سفيان قريشاً فى حروبها ضد النبى ـ ﷺ ـ ، وهو صاحب العِير القادمة من الشام إلى مكة التى وقعت من أجلها موقعة بدر الكبرى .

وكان رئيس الجيش النافر وقتئذ لحماية قريش «عتبة بن ربيعة» بن عبد شمس جد معاوية لأمه ، فكان أبوه صاحب العير ، وجده صاحب النفير ، وبهما يضرب المثل ، فيقال للخامل : «لا فى العير ولا فى النفير»[1] .

ولد قبل الهجرة بخمس عشرة سنة[2] ، وأسلم يوم الفتح هو وأبوه وأخوه يزيد وأمه هند ، وله من العمر ثلاث وعشرون ، واتخذه الرسول ـ ﷺ ـ كاتب رسائله .

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد [ج ١ ص ١١٠] .

(٢) تاريخ الإسلام السياسى د . حسن إبراهيم جـ ١

ولما فتحت مكة فى السنة الثامنة من الهجرة أراد أبو سفيان أن يمنع الأذى والمذلة عن قومه ، وبلّغ العباس رغبته إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فأمر منادياً بمكة :

«من أغمد سيفه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، وبذلك سوى الرسول ـ ﷺ ـ بين بيت أبى سفيان وبيت الله»[1] ! فى وجوب الأمن لمن دخله آنئذ .

وهو شرف عظيم لم ينله أحد مثله .

فليس عجيباً إذا أسلم كثير منهم ، وأخذوا يعملون على نشر الإسلام ، ومدّ فتوحاته ، فأبلوا فى حروب الردة بلاء حسناً وسار بعضهم إلى الشام ، فاشتهر أمرهم وعظم ذكرهم ! ومنهم «يزيد بن أبى سفيان» الذى ولاه «أبو بكر» قيادة أحد الجيوش الأربعة التى أنفذها لفتح الشام .

وولاه عمر «دمشق» كما ولى أخاه «معاوية» ما وليها من البلاد الشامية ، فلما مات يزيد أضاف «عُمَر» إلى «معاوية» ما كان لأخيه .

ولما ولى «عثمان» الخلافة ، ولاه الشام كلها ، وظل على ذلك حتى قُتِل عثمان ، فاستقل «معاوية» بالشام .

ولما بويع « علىٌّ » بالمدينة امتنع « معاوية » من المبايعة له متَّهماً إياه بالمَوادة فى أمر عثمان ، وإيوائه قَتَلَته فى جيشه ، وعدم القصاص منهم .

وبايعه أهل الشام على المطالبة بدم عثمان ومحاربة علىٍّ ؛ مما أحدث الخلاف والشقاق بين أهل العراق وأهل الشام ، أو بعبارة أخرى بين المسلمين كافة !

وقُصارى القول : أن بيت عبد شمس انتقل من سيادة فى الجاهلية إلى سيادة فى الإسلام .

◄ معاوية يفرض سلطانه بدهائه وسياسته :

نال معاوية الخلافة بحد السيف تارة ، وبالمكيدة والسياسة تارة أخرى .. فقد دعا المسلمون إلى الحسن بن علىّ بعد قتل أبيه ، واستخلفوه ؛ إلا أن خلافته لم

---

(١) المصدر السابق [جـ ١] .

تثبت أمام قوة معاوية ، وما كان من رواج الإشاعة بانهزام جيوش الحسن أمام جند الشام مما أدى إلى تخلّى أهل العراق عنه !؛ فلم يجد بُدًّا من النزول عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين .

على أن الدافع الحقيقى الذى حدا بالحسن إلى النزول إنما يرجع ـ على ما ذهب إليه اليعقوبى ـ فى تاريخه[1] ـ إلى أنه أصبح لا قِبَل له بمعاوية وجنده ؛ فعقد معه صلحاً نزل له فيه عن حقه فى الخلافة ، على أن يكون الأمر شورى بين المسلمين يُوَلّون عليهم من أَحَبُّوا ، وبذلك أصبح معاوية صاحب السلطان فى كافة الولايات الإسلاميّة .

وفى الخامس والعشرين من ربيع الثانى سنة ٤١ هـ دخل معاوية الكوفة[2] حيث أخذت له البيعة بحضور الحسن والحسين ، ورحل الحسن بعد ذلك إلى المدينة ، ولزم منزله حتى مات[3] .

▣ عودٌ عَلى بَدْءٍ !! ▣

◄ سياسة عثمان ـ رضى الله عنه ـ الخارجية والداخلية ، وما كان من المتغيرات على الساحة العربية :

يقول المؤرخون : إنه بعد اثنى عشر عاماً من وفاة النبى ـ ﷺ ـ تولى الخلافة عثمان ـ رضى الله عنه ـ عقب صاحبى الرسول ـ ﷺ ـ: أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ وإذا كانت الفتوحات قد بلغت أقصاها فى عهد عمر ـ رضى الله عنه ـ، فإن المحافظة على هذه الفتوح وتثبيت دعائمها كان شغل «عثمان» ـ رضى الله عنه ـ الشاغل بعد أن ثار الفُرس ، وحاول الروم استعادة ما أخذه المسلمون منهم من أرض !

وقد نجحت **سياسة «عثمان» الخارجية** حيث أرسل إلى : **الفُرس** واليه على

---

(١) تاريخ اليعقوبى [جـ ٢ ص ٢٥٤] .

(٢) المسعودى : مروج الذهب [جـ ٢ ص ٣٦] .

(٣) اختلف المؤرخون فى سبب وفاة الحسن وتاريخ موته على ما جاء فى كتاب البدء والتاريخ للمقدسى .

البصرة : «عبد الله بن عامر» فانتصر عليهم وشتّتهم وأخضع البلاد كلها بل تقدم حتى نهر « جيحون » .

أما الروم فقد قام «معاوية بن أبى سفيان» واليه على الشام بردهم إلى ما وراء جبال «طوروس» مستمراً فى تقدمه حتى بلغ «أرمينيا» .

ونجح أسطول المُسْلمين البحرى فى تأمين الشواطىء الإسلامية ، وألقى على الروم درساً لا ينسى حين حاولوا استعادة الأسكندرية بعد عزل عمرو بن العاص .

حيث تصدى لهم أسطول معاوية ، وأسطول عبد الله بن أبى السرح والى مصر آنئذ فى موقعة «ذات الصوارى» ، وانتصر على الروم انتصاراً ساحقاً تغير بعده الموقف فأصبح أسطول الروم مدافعاً ، واتخذ أسطول المسلمين موقف المهاجم ، فاستولى على جزيرتى : «رودس» و «قبرص» .

أما فيما يتعلق **بالسياسة الداخلية** فقد واجهته صعوبات شتى : على رأسها تشتيت قوى العرب فى الإمبراطورية حيث رابطوا فى أطرافها مدافعين عنها ضد الثورات والأعداء الأجانب .

هذا إلى جانب اختلاف سياسة عثمان عن سياسة عمر ، فقد كان عثمان ـ رضى الله عنه ـ ليّناً بينما ألف الناس شدة عمر ، وخاصة عندما تقدمت السن بعثمان حيث أصبح على مشارف الثمانين .

وكان عمر قد أبقى سادة قريش بالحجاز تحت رقابته ، أما عثمان فقد سمح لهم بسكنى الأمصار ، وتملّك الأرض واستثمار الأموال .

وإلى جانب هذا وذاك قرّب عثمان ـ رضى الله عنه ـ أهله وبوأهم المناصب الكبرى ، وخاصة ولاية الأقاليم ، وكان بعض هؤلاء الولاة دون المستوى فأساء إليه بما حُسب عليه ولم يجد عثمان من يمحضه النصح من بطانته ، ويخلص المشورة له كما كان الصحابة ينصحون لعمر وأبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ ، فأخذت البلاد تغلى بالسخط ، وراح أعداء الأمة يعملون فى الظلام ،ويصطادون فى الماء العكر ، وكان أشد الأمصار معارضةً للإدارة الحكومية : «الكوفة» و «البصرة» و «مصر» التى تحركت منها وفود إلى المدينة لتتحدث إلى الخليفة

فيما ساءها من أمر ولاتها ، واستقبلهم «عثمان» ـ رضى الله عنه ـ ووعدهم خيراً ، وصرفهم إلى بلادهم .

ولكنهم فى أثناء عودتهم وجدوا رسولاً يتبعهم متجهاً نحو مصر ، فقبضوا عليه ، فإذا هو يحمل رسالة تحمل خاتم الخليفة بقتل أعضاء الوفد كلهم ، وعلى رأسهم زعيمهم : محمد بن أبى بكر واتضح بعد التحقيق أن «مروان بن الحكم» أحد أقرباء عثمان ـ رضى الله عنه ـ من أهل مشورته هو كاتبها ، فطلب الثائرون من عثمان تسليمه لهم فأبى ، فحاصروه أكثر من عشرين يوماً ، وحين شعروا بأن النجدة آتية إليه من بعض الأقاليم هاجموا بيته وقتلوه . وذلك فى عام ٦٥٦ م .

وكان مقتل «عثمان» ـ رضى الله عنه ـ بداية شر عظيم ، فهذه أول مرة يقتل فيها الخليفة فى «شبه ثورة داخلية» ، فمقتل عمر كان فردياً ولسبب خاص . وتلاها أن اختلف الناس فى اختيار الخليفة ، وكانوا من قبل قد اتفقوا فى بيعة الخلفاء الثلاثة الأُوَل على الرغم مما كان من تشعب الآراء فى أول الأمر !

وعندئذ بايع أغلب أهل المدينة علياً عن طواعية إلا أن معظم الأمصار لم تبايعه .

وقد ازداد الموقف سوءاً حين أمر «علىّ» بعزل ولاة عثمان على الأقاليم فما كان من هؤلاء الولاة إلا الوقوف ضده ، وهكذا انقسم المسلمون أقساماً ثلاثة :

١ ـ الثوار الحانقون على سياسة عثمان ، ومنهم المشتركون فى قتله ، وهؤلاء أيَّدُوا علياً إذْ رأَوْا فيه الرجل الذى يستطيع العودة إلى سياسة الشيخين !

٢ ـ جماعة تضم طلحة والزبير والسيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ وهؤلاء ـ على الرغم من أنهم كانوا من معارضى عثمان ـ فكذلك عارضوا عليًّا حيث يرون أنه أخطأ فى قبول الخلافة بهذا الشكل وفى هذه الظروف المضطربة !

٣ ـ ثم الأمويون الذين طالبوا بدم عثمان وهم يهدفون من ذلك إلى نيل الخلافة لأنفسهم .

وإذاً فقد تصدعت الدولة ، وبدأت الحروب الداخلية .

فنشبت المعارك بين علىٍّ وبين حزب طلحة والزبير وعائشة وانتصر فيها علىّ فى واقعة الجمل قرب البصرة فى ٦٥٦م ثم قامت الحرب بين على ومعاوية زعيم

الأمويين عندما انتهى علىّ من موقعة الجمل تفرغ لمعاوية والتقى الجمعان فى صفين فى سنة ٦٥٧ م (٣٧ هـ) .

وحاولوا الوصول إلى حل سلمى ودارت بين الفريقين المناقشات الفِقْهِيّة زمنا ليس بالقصير ولكن معاوية أصر كل الإصرار فكانت الحرب !

وتفانى الفريقان فى المعركة ، وبدأت جيوش معاوية تنهار ، وكادت الهزيمة تلحق بها لولا أن تداركه «عمرو بن العاص» بخدعة ابتكرها :

رفع جُنْد معاوية المصاحف على أسنة الرماح ، ومعنى هذا أنهم يريدون وقف القتال ، وتحكيم القرآن فى هذه الفتنة الكبرى !

وهنا حدث ما أراده «عمرو بن العاص» فقد وقع انقسام خطير بين أنصار «علىٍّ» أنفسهم حيث رأى أكثرهم أنه ليس لمسلم أن يرفض الدعوة إلى تحكيم القرآن بينما رأت الأقلية أن معاوية قد رفض قبول الحلول السلمية قبل الحرب وهو الذى أجبر الناس على القتال فليس له وقد هُزِم أن يطلب الاحتكام إلى ما رفض !

وكان سيدنا علىٌّ يرى هذا الرأى غير أنه نزل عند رأى الأغلبية .

وانتهى هذا الخلاف بخروج الفريق الثانى على علىّ ولذلك سُمّوا «الخوارج» ، وأصبحوا أعداءً للفريقين شعارهم : «لا حكم إلا لله !» .

ويتفق الفريقان على التحكيم ، ويختار علىّ « أبا موسى الأشعرى » ،ويختار معاوية «عمرو بنَ العاص» .

ويقال إن الحَكَمين بعد مشاورات اتفقا على خلع الرجلين كِلَيْهما ، وترْك الأمر لجماعة المسلمين تُوَلّى من تشاء غيرهما . وجاء اليوم المعين فتقدم « أبو موسى » الذى عزل علىًّا ، ثم تقدم « عمرو » فَثَبَّتَ معاوية .

وهنا قوى جانب معاوية وانفض عن الإمام كثير من أنصاره ، وتراخى عنه الكثيرون ، ودَبّ الضعف فى جيشه بعد انشغاله بحروبه العديدة مع الخوارج !

وبويع معاوية فى الشام وأصبح للدولة الإسلامية خليفتان وما لبث معاوية أن ضم إليه مصر ، ووعد عمراً بها إن آلت إليه الخلافة مقابل مساعداته ! وقد أصبح عمرو يشكل خطراً حقيقياً على جبهة الإمام بعد انحيازه إلى معاوية .

وبقى سيدنا «على» فى الكوفة يحاول جمع شتات هذه الدولة حتى اغتاله عبد الرحمن بن ملجم الخارجى عام ٦٦١ م- ٤٠ هـ ولم يمتد حكمه فوق الأربعة أعوام إلا قليلاً ، وبذلك خلص الأمر لمعاوية . ونعود إلى معاوية لنعرض صوراً من حياته وسلوكه عندما كان والياً على الشام ..

▣ عمر يتعهد معاوية ويقومه ! ▣

بخ بخ يامعاوية !!

قال ابن المبارك فى كتاب الزهد بسنده عن أسلم مولى عمر ؛ قال : قدم علينا معاوية ، وهو أبَضُّ الناس[١] وأجملهم ، فخرج إلى الحج مع عمر بن الخطاب .

وكان عمر ينظر إليه ، فيتعجب منه ، ثم يضع إصبعه على جبينه ، ثم يرفعها عن مثل الشراك[٢] ، فيقول : «بَخٍ بَخٍ[٣] ، إذاً نحن خيرُ الناس ، أن جُمِعَ لنا خير الدنيا والآخرة .

فقال معاوية : ياأمير المؤمنين ، سأحدثك ؛ إنّا بأرض الحمامات والريف .

فقال عمر :سأحدثك ، مابك إلطافك نفسك بأطيب الطعام ، وتصَبُّحك حتى تضرب الشمس مَتْنَيْك ، وذوو الحاجات وراء الباب !!

قال : قد جئنا ذا طُوىً ، فأخرج معاوية حُلّةً فلبسها ؛ فوجد عمر منها ريحاً كأنه طيب ؛ فقال : يعمد أحدكم فيخرج حاجًّا تَفِلاً[٤] ، حتى إذا جاء أعظم بلدان الله حرمةً أخرج ثوبيه كأنهما كانا فى الطيب فلبسهما ، فقال له معاوية : إنما لبستهما لأدخل على عشيرتى ياعمر ؛ والله لقد بلغنى أذاك هٰهنا وبالشام ، فالله يعلم أن لقد عرفت الحياء فى عمر ! ؛ فنزع معاوية الثوبين ، ولبس ثوبيه اللذين أحرم فيهما[٥] .

---

(١) أكثرهم امتلاء ونضارة .

(٢) الشراك : سير النعل على ظهر القدم .

(٣) كلمة مكررة تقال عند الإعجاب !

(٤) التَّفِل : الذى قد ترك استعمال الطيب، من التفل ، وهو الريح الكريهة .

(٥) قال ابن حجر فى الإصابة : وهذا سند قوى .

▣ درس فى التواضع ▣

ولا عجب فى متابعة عمر لمعاوية فقد تعهده منذ أسلم وانضم إلى كتيبة العمل. أخرج ابن سعد عن عمرو بن يحيى بن سعيد عن جده قال : دخل «معاوية» على «عمر بن الخطاب» ، وعليه حُلّة خضراء ، فنظر إليه الصحابة ، فلما رأى ذلك «عمر» قام ومعه الدِّرة فجعل ضربا بمعاوية ، ومعاوية يقول : الله الله ياأمير المؤمنين ! فيم ! فيم !

فلم يكلمه حتى رجع فجلس فى مجلسه ؛ فقالوا له : لم ضربت الفتى ، وما فى قومك مثله ؟!

فقال : ما رأيت إلا خيراً ، وما بلغنى إلا خير ، ولكنى رأيته ـ وأشار بيده ـ يعنى إلى فوق ، فأردت أن أضَع منه !

▣ موكب معاوية عند قدوم عمر إلى الشام !! ▣

وظل عمر لا يكف عن محاولاته مع معاوية ، وغيره ؛ فقد .. كان عمر ـ رضى الله عنه ـ يحظر على الولاة مظاهر الخُيَلاء والأبهة التى تبعد ما بينهم وبين الرعية ، ولكنه ينظر فى أعذارهم فيقبلها أو يُغْضى عنها حيثما توقف صلاح الولاية على ذلك .

قدم إلى الشام راكباً على «حمار» ، فتلقاه عامله معاوية بن أبى سفيان فى موكب عظيم !

فلما رآه معاوية نزل وسلّم عليه بالخلافة ، فمضى فى سبيله ولم يرد عليه سلامه ! ، فقال له عبد الرحمن بن عوف :

أتعبت الرجل ياأمير المؤمنين ، فلو كلمته ؟! فالتفت إذْ ذاك إلى «معاوية» وسأله : إنك لصاحب الموكب الذى أرى ؟! قال : نعم .

قال : مع شدة احتجابك ووقوف ذوى الحاجات ببابك ؟! قال : نعم . قال : ولِمَ ويْحَك ؟!

قال : لأننا ببلاد كثر فيها جواسيسُ العدو ، فإن لم نتخذ العدة والعدد ، استخف بنا وهجم علينا .

وأما الحجاب فإنا نخاف من البذْلة جرأة الرعية ، وأنا بَعْدُ عاملُك ، فإن استنْقَصْتنى نقصت ، وإن استزَدْتُنى زِدت ، وإن استوقفتنى وقفت !

فقال عمر : «ما سألتك عن شيء إلا خرجتَ منه ، إن كنت صادقاً فإنه رأى لبيب . وإن كنت كاذباً فإنها خدعة أريب . لا آمرك ولا أنهاك»[1] .

◄ بداية التحرك :

وواصل معاوية مسيرته بعد عمر على طريقته ففى عهد عثمان راح معاوية يعمل على أن يجعل الشام تحت أمره لا تعرف لها حاكماً سواه ، واستطاع فى تلك الفترة أن يكوّن نفسه ويثبت أقدامه ، ويستعد لمواجهة حاسمة ! عندما بويع «على» ـ رضى الله عنه ـ.

فلما قتل عثمان ، وبويع على كان الأوان قد آن ليبدأ دور معاوية على مسرح الأحداث فى الجبهة المناوئة لعلى . ويصور ابن قتيبة بداية ذلك التحرك فى خلال الفتنة بقوله :

«قدم معاوية بن أبى سفيان فى «خلال الفتنة» من «الشام» إلى «المدينة» ، فأتى مجلساً فيه على بن أبى طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمار بن ياسر ، فقال لهم :

يامعشر الصحابة ، أوصيكم بشيخى هذا خيراً ، فوالله لئن قُتِل بين أظهركم لأملأنّها عليكم خيلاً ورِجَالاً .

ثم أقبل على «عمار بن ياسر» ، وكان من أشد الثائرين على عثمان ، فقال له : ياعمار ، إن بالشام مائة ألف فارس ، كلهم يأخذون العطاء مع أبنائهم وعُبْدانهم ، لا يعرفون عليًّا ولا قرابته ، ولا عماراً ولا سابقته ، والزبير ولا صحابته ، ولا طلحة ولا هجرته ، ولا يهابون ابن عوف ولا ماله ، ولا يتقون سعداً ولا دعوته ، فإياك ياعمار أن تقع فى فتنة تنجلى ، فيقال : هذا قاتل عثمان ،

---

(١) عبقرية عمر للعقاد .

وهذا قاتل على»[1] .

◄ بداية سلسلة من المعارك :

وفى ضوء هذا الاستعداد عارض معاوية خلافة علىّ ، ووجد العذر الذى يُبْديه ، وهو ولاية دم عثمان ، وأن عليًّا تهاون فى الدفاع عن «عثمان» ، وآوى قتلته !

وبدأت سلسلة من المعارك أهمها «صِفِّين» التى هزم فيها معاوية فى ميدان القتال كما أشرنا إلى ذلك من قِبل ، لكنه انتصر فى ميدان الحنكة والسياسة والدهاء !

◄ ما بعد معركة صِفِّين !

وبعد معركة صِفين قامت عدة معارك انتقص فيها ملك خصمه ، وضيِّق عليه ، وكان «على» يعانى عناد «خصمه» وقوته ، ويعانى عناد «الخوارج» وقوتهم ، ويعانى فى العراق تمرد « أتباعه » ونفاقهم وقعودهم عن نصرته ، كما أشرنا إلى ذلك .

وفى نفس الوقت كان معاوية مسموع الكلمة يعلو شأنه السياسى من يوم إلى يوم .

◄ الراحة الكبرى :

واستراح على من هذه المشكلات عندما طعنه « ابن ملجم » طعنة قاتلة ، وخلا الأمر بعدها لمعاوية !!

◄ محاولة سرعان ما انطفأت !

وبعد مقتل «على» قامت محاولة ضئيلة ترمى إلى البيعة للحسن بن على ، أو قل إنه قد بويع فعلاً من بعض الشيعة ، ولكن هذا سرعان ما انطفأ فى نفس الحسن ، حينما أشيع أن قائده «قيس بن سعد بن عبادة» قد قتل ، فإذا ببعض أهل العراق ينكثون عهده !

---

(١) الإمامة والسياسة [جـ ١ ص ٣١] . الطبعة الأولى سنة ١٩٠٩ م

ولم يكن أمام «الحسن» ـ رضى الله عنه ـ إلا أن يقنع بشروط اشترطها لنفسه ، ولذويه متعهداً بالتنازل عن حقه فى الخلافة إذا قبل معاوية هذه الشروط

وقد كان معاوية مستعداً ـ بما وُهب من دهاء ـ أن يَعِد بأى شىء نظير تنازل الحسن !

ولذلك يقال : إنه عندما عرف ميل الحسن للصلح على أساس التنازل نظير شروطه ، أرسل إليه صحيفة بيضاء موقعة منه ؛ ليكتب فيها ما يشاء من شروط !!

وتم الصلح على هذا الأساس ، وتنازل الحسن لمعاوية وأعلن أنه سامع له مطيع !

◄ عام الجماعة :

ودخل معاوية الكوفة بعد ذلك (ربيع الثانى سنة ٤١ هـ) حيث التقى الحسن ومعاوية ، وبايع الناس معاوية ، وبايع معهم الحسن والحسين ، وسمى ذلك العام «عام الجماعة» لاجتماع الناس فيه على خليفة واحد ، وعاد «معاوية» بعد ذلك إلى «دمشق» حيث اتخذها عاصمة للخلافة بعد أن كانت عاصمة إمارته ، وعاد الحسن وأسرته إلى المدينة ، وبقى بها حتى توفى سنة خمسين أو إحدى وخمسين .

ويقال إنه توفى مسموماً !!

وروى أن الحسين حاول معه أن يخبره عمن سقاه ، فأجاب : «الله أشد نقمة إن كان الذى أظن ، وإلا فلا يقتل بى برىء»[1] .

(١) السيوطى ؛ تاريخ الخلفاء [ص ١٩٢] .

▣ الساحة العربية بين ورع علي ودهاء معاوية ! ▣

ألا ما أبعد الفرق بين ما شهدته الساحة العربية بين «علي» و «معاوية» ـ رضى الله عنهما ـ فبينما يتجلى الورع والتقوى فى مواقف «علي» يتراءى لنا دهاء «معاوية» وتدبيره ! فإننا نرى الإمام علياً حينما لم يجد بُدًّا من لقاء معاوية فى معركة «صِفّين» يستقبل جيشه ليلة المعركة خطيباً فيقول : «ألا إنكم مُلَاقُو القوم غداً .. فأطيلوا الليلة قيامكم وصلاتكم ، وأكثروا تلاوة القرآن ، وسَلُوا اللهَ الصبر والعفوَ والعافية» .

إنه يحدثهم حديثاً يختلف عن كل الأحاديث التى تتطلبها أمثالُ هذه المناسبة ، فلا يَعِدهم ولا يُمنّيهم .

وحتى وهو يكتب إلى «عمرو بن العاص» الذى انحاز إلى صف «معاوية» ، وبات يشكل خطراً حقيقياً على جَبْهَة الإمام إنه لا يُمَنِّيه بدُنياً يُصيبها ، ولا يستميله إلى هوًى كما كان يفعل «معاوية» لاكتساب الأنصار !!

بل يناشده تقوى الله فيقول فى كتابه إليه : «من عبد الله على أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص ..

أما بعد .. فإن الدنيا مَشْغَلة عن غيرها ، وصاحبها مقبور فيها ، ومَنْهُوم عليها .. لم يُصَب منها شيءٌ قط إلا فتحت له حرصاً ، وإلا أدخلت عليه مئونة تزيده رغبة فيها .. ولن يستغنى صاحبها بما ناله عما لم يبلغه ، ومن وراء ذلك فراق ما جمع !

والسعيد من وُعِظ بغيره ، فلا تُحبط أجرك أبا عبد الله ، ولا تُجارينَّ «معاوية» فى باطله ، فإن «معاوية» غمص الناس[1] وسَفه الحق !! »

لا مساومة .. ولا مداجاة .. ولا التواء .. ولا مكر .. ولا دهاء بل صفاء ونقاء وصدق واستقامة . إن حِدّةَ ذكائِه ، واتّقادَ بصيرته لو شاء لأعطياه من الدهاء ما أراد !!

---

(١) غمص الناس : حقرهم واستصغرهم ولم يرهم شيئاً .

ولكنه تخلى عن مواهب الرجل «الداهية» وأحَلّ مكانها كلّ مواهب الرجل «الوَرع» !! ترى هل يكفى الورع مع الدُّهَاة !؟

سؤال يجيب عنه معاوية :

وكثيراً ما نتساءل : بم انتصر معاوية ؟ ويجيب معاوية ، فيقول : أُعِنْتُ علىَ عَلِيٍّ بثلاث خصال :

* كان رجلاً يُظهر سرَّه ، وكنت كَتُوماً لسِرّى .

* وكان فى أخبثِ جُنده ، وأشدِّه خلافاً ، وكنت فى أطوع جند ، وأقله خلافاً[1] ، وخلا بأصحاب الجمل ، فقلت : إن ظفر بهم ، اعتددت بهم عليه . وإن ظفروا به كانوا أهون علىَّ شوكة مِنْه .

* وكنت أُحَبّ إلى قريش منه ، فكم شتيتٍ جامع إلىّ ومفرق عنه !

◄ حال الأمة عند تولى معاوية :

أشرنا من قبل إلى أن الأمة الإسلامية كانت عند تولى معاوية ثلاثة أحزاب :

١ ـ شيعة بنى أمية من أهل الشام وغيرها من سائر الأمصار الإسلامية ، وخاصة مصر ؛ وكانوا يرون الخلافة فى قريش ، وأن أهل البيت الأموى أولاهم بها .

٢ ـ شيعة على بن أبى طالب ؛ وكانوا ببلاد العراق ، وقليل منهم بمصر ، وهؤلاء يرون الخلافة فى قريش أيضاً ، وأن أحق الناس بها على بن أبى طالب وأولاده من بعده .

٣ ـ الخوارج ، وهم أعداء الفريقين ، يستحلون دماءهم ، ويرونهم خارجين على الدين ، وقد كانوا يرون أن الخلافة حق لكل مسلم مادام كفؤاً لا فرق فى ذلك بين قرشى وغير قرشى .

---

(١) وللجاحظ فى هذا الشأن تعليل بديع . قال :

العلة فى عصيان أهل العراق على الأمراء ، وطاعة أهل الشام : أن أهل العراق أهل نظر ، وذوو فطن ثاقبة ، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث ، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح والترجيح بين الرجال ، والتمييز بين الرؤساء ، وإظهار عيوب الأمراء ، بخلاف أهل الشام .

وقد استمر الكفاح والجلاد بين الأمويين والهاشميين على امتداد الدولة الأموية حتى تغلب الآخرون فى النهاية وقامت دولة «بنى العباس» بعد «دولة بنى أمية» التى أقامها معاوية .

فكيف تسنى لمعاوية أن يتغلب على عدوه من شيعة على والخوارج ، وعلى يد من كان إحباط محاولاتهم الدائبة للانقضاض على دولته ؟

لقد كان فى العراق داهيتان قاما بالمهمة خير قيام أولهما : المغيرة بن شعبة ومن بعده زياد .. وكان معاوية قطب الرحى ! أو الرأس المدبر وهما الجناحان ! .

▣ حسن إدارة معاوية ▣

عندما تولى الأمر معاوية ، ساعده على حسن إدارة المُلْك سابقة له من تجربة طويلة ، ابتدأت عندما ضمه الرسول ـ ﷺ ـ إلى كُتَّابِه يشهد روعة الرسالة ، فتثقف على أتم ما يكون من الكمال .

ورأى منه أبو بكر وعمر ما رآه منه صاحبهما من الكفاية والمقدرة ، فولى الشام «عشرين سنة» تمرس خلالها بالسياسة ، واتسع أمامه أفق جديد من النظر ، فأدهش من تولى أمرهم بحلمه ، وعلمه ، وثاقب رأيه ، وفرط دهائه .

وكان أبوه من قبل يعالج شئون الناس ، ويتألفهم ، ويعرف ما يصلحهم ، وعنه أخذ معاوية شيئاً فى هذا المعنى ، والناشىء فى مثل هذه الأعمال يتحنك فى الإدارة ، ويكون إماماً فى صناعته .

ويقول الأستاذ محمد كرد على فى كتابه : الإسلام والحضارة العربية : «حافظ معاوية على أصول الرسول ـ ﷺ ـ والراشدين فى الإدارة وما حاد عنها إلا فيما قضت به المصلحة ، ودعا إليه المحيط الجديد ، مثل إخراج الإدارة من سذاجة البداوة إلى بُحْبُوحة الحضارة ؛ وعرف فوائد الشورى ، فما كان يصدر فى المهمات إلا عن مشورة ، فهو يرى من الطبيعى أن يأخذ بآراء أشراف القوم ، وينزل على حكم وفود البلاد»[1] .

---

(١) خطط الشام للأستاذ محمد كرد على .

وله ولآل بيته مجالس يعقدونها فى المسجد الجامع ، تدور بحوثها على سياسة البلاد وحكمها فى الأكثر ، ومجالس الأمويين أشبه بمجالس النواب والولايات والشيوخ .

◄ كيف كان يواجه المشكلات ؟

وكان معاوية يفض مشاكله بالحسنى ، يلين للناس ، ويُشْفع المجاملة بالإحسان لكل نابه فى قومه مُسَوّد فى أهله . ولا تلين قناته لمن يحاول قلب الخلافة وإخراجها عن بيته بعد أن آلت إليه . وما كان مع من يظلم رعاياها إلا شديداً .

◄ كيف عمل على استمالة القلوب ؟

كان يستميل القلوب بالعطاء وبالإقناع ، أو بالإغضاء أو بالمجادلة بالتى هى أحسن .

وبلغ من سعة الصدر ووافر الحلم أن ضرب المثل بحلمه ، وكان إذا لم تنجع فى الناس وسائله اللينة يعمد بعد التماس كل حيلة إلى القوة .

وهو القائل : «لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى !! ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت» .

وقيل له : وكيف ذاك ؟

قال : «كنت إذا مدوها خلّيتها ، وإذا خلّوها مددتها» .

وقال : «إنى لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا» . ومن المستحيل كمّ الأفواه أو تنطق بما يراد ، ورضا الناس غاية لا تدرك ، فما دام الأمر يُفضُّ بالكلام ، ولا يقوم رجل جد يقلقل أمر الجماعة فالعالم أحرار فى أقوالهم .

ومتى لجئوا إلى القوة ، وأشرفوا على الفتنة انكفأ عليهم بقوته .

وهمتُه منذ تولى الحكم مصروفةٌ إلى سياسة الدولة ، وما عدا ذلك فالناس وما يختارون من الآراء والمذاهب .

وهو يستشير أرباب الرأى من أنصار دولته ، ولا يأتمن فى إدارة الولايات والأعمال إلا الكُفاةَ من آل بيته ، فإذا اتفق أن كان فلان ينزع إلى كذا ، أو يحب

فلاناً من خصومه ، أو يُغْلظ فى بيان رأى يخالفه ، فهذا مما لا يتعلق به كبيرُ أمرٍ عنده .

ومن أجل توطيد دعائم السياسة التى حصر فيها همَّه لجأ إلى طرق فى الدعوة مؤثرة : فجعل القُصَّاص أو الوُعّاظ فى المساجد والمعسكرات يدعون لدولته ، ويُنَفّرون من أعدائها .

ولما رأى علياً عند مُنصرفه من صِفّين قنت فى الصلاة ودعا على من خالفه ، فوقع فى نفس معاوية أن تكون المعاملة بالمثل ، وأمر من يَقصُّ بعد الصبح وبعد المغرب أن يدعو له ولأهل الشام ، وحمل الأمصار على احتذاء مثاله فى عاصمته ، فأحدث قصص الخاصة .

وظل قصاص العامة يجتمع إليهم النفر من الناس ، يعظونهم ، ويذكرونهم ، ويقصون عليهم ما يرق قلوبهم .

واقتفَى معاوية فعل عمر بن الخطاب فى العلم بأخبار رجاله ورعيته فانتظم له أمره .

وكان معاوية إذا أراد أن يولى رجلاً من بنى حرب ولاه الطائف ، فإن رأى منه خيراً ، وما يعجبه ولّاه مكة معها ، فإن أحسن الولاية ، وقام بما ولى قياماً حسناً جمع له معهما المدينة . فكان إذا ولى رجلاً قيل : هو فى أبى جاد ، فإذا ولاه مكة قيل هو فى القرآن ، فإذا ولاه المدينة قيل هو قد حذق[1] .

هذا هو معاوية فى إدارته يتجلى لنا دهاؤه وحسن سياسته .

◄ وصيته إلى أحد أقاربه :

كما يتجلى ذلك أيضاً فى وصاياه وخطبه : أوصى أحد أقاربه ممن استعمله فقال : «لا تبيعن كثيراً بقليل ، وخذ لنفسك من نفسك ، واكتَفِ فيما بينك وبين عدوك بالوفاء تَخِفّ عليك المؤنة وعلينا منك . وافتح بابك للناس» .

---

(١) تاريخ الطبرى . والحذق : المهارة ، وخطوات التعليم السابقة كانت تبدأ بتعلم حروف الهجاء الأبجدية العربية أبجد هوز .. إلخ ، ثم حفظ القرآن وفهمه وتدبره ، ثم مدارسة علومه لكى يصبح حاذقاً .

وقال لآخر : «إذا أعطيت عهداً فَفِ[1] به . ولا تُخْرِجَن منك أمراً حتى تُبرمه ، فإذا خرج فلا يُرَدَّنَّ عليك .

ولا تُطمعن أحداً فى غير حقه ، ولا تُؤْيِسَنّ أحداً من حق له» .

لقد وضع معاوية الأساس لحكم مستقر ، فكان لا يستعمل من الولاة إلا من ثبتت كفايته ونجدته فى تأييد سلطانه وكانت القواعد التى يضعها لعماله فيها شىء من الأساليب لكف الناس بعضهم عن بعض ، وإرضاء كل واحد بحقه ، وتوفير ثقة الرعايا بولاتهم .

▣ معاوية والدنيا !! ▣

لما قدم «معاوية» المدينة خطب الناس فقال :

«إن «أبا بكر» ـ رضى الله عنها ـ لم يرِدِ الدنيا ولم ترِدْه !

وأما «عمر» ، فأرادته الدنيا ، ولم يُردها !

وأما «عثمان» فنال منها ، ونالت منه !

وأما «أنا» فمالت بى ، ومِلْتُ بها ..

وأنا ابنها .. ؛ فهى أمى !

فإن لم تجدونى خيرَكم فأنا خيرٌ لكم» .

ثم نزل !!

وهكذا يرى معاوية أن الدنيا مالت به : لكنه هو الآخر مال بها !

وقد يكون هناك فى رأى الآخرين من هو خير منه !

لكنه على كل حال خيرٌ لهم فى تلك الظروف ليجمع شتاتهم ،ويوحّد كلمتَهم بعد ذاك الانفلات الذى كان يحتاج إلى مزيد من «الضبط والربط» .

وفى خطبته الآتية تفصيل بعد إجمال .. ومزيد بيان ..

---

(١) فعل أمر من الوفاء فتقول من وفى فِ ونلحق بها هاء السكت عند الوقوف عليها فتقول : فِهْ . ومثلها : وق . قِ . قِهْ .

▣ خطبة معاوية بالمدينة(*) ▣

فى سنة ٤١ هـ خطب معاوية بالمدينة خطبة حمد الله فيها ، وأثنى عليه ثم قال :

«أما بعد ، فإنى ـ والله ـ ما وُلّيتُها بمحبة علمتُها منكم ، ولا مَسَرّةٍ بولايتى ، ولكنى جالدتكم بسيفى هذا مجالدة[1] .

ولقد رُضْتُ لكم نفسى على عمل ابن أبى قحافة[2] ، وأردتها على عمل عمر ، فنفَرت من ذلك نِفاراً شديداً ، وأردتُها على سُنَيَّات[3] عثمان فأبت عَلَىّ !.

فسلكت بها طريقاً لى ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ، ومُشَارَبَةٌ جَميلة ، فإن لم تَجِدُونى خيرَكم ، فإنى خير لكم ولاية .

والله لا أحمل السيف على من لا سيف له !

وإن لم يكن إلا ما يَسْتَشْفى به القائل بلسانه ، فقد جعلت له دَبْرَ أُذنى[4] ، وتحت قدمى .

وإن تجدونى أقوم بحقكم كله ، فاقبلوا منى بعضه ، فإن أتاكم منى خير فاقبلوه ؛ فإن السيل إذا جاد[5] يثرى ، وإذا قلّ أغنى . وإياكم والفتنة ؛ فإنها تُفسد المعيشة ، وتكدّر النعمة » .

إنه يكاشف أهل المدينة بأنه يعلم أنهم يُبغضونه ! وبأنه تولى الخلافة على كُرْهٍ منهم !

ثم يعلنهم أنه راود نفسه فى أن يحكمهم على طريقة أبى بكر وعمر وعثمان فأبت نفسه ذلك ؛ ولهذا سيَسْلك فى الحكم طريقاً جديداً لم يوضحه إلا بأن فيه منفعة لهم وله .

(*) العقد الفريد [٢/١٤٠] .

(١) جالدتكم : حاربتكم .

(٢) رُضت : مرنت . وابن أبى قحافة : أبو بكر .

(٣) سنوات حكمه القصار .

(٤) دَبْر أذنى : وراءها ، أى لم أصْغ إليه .

(٥) جاد : كثر .

ثم يلين ويستميل بقوله : إنه إن لم يكن خيرهم علماً وفضلاً وديناً ، فإنه خير من يصلح للخلافة ، ويعدهم أنه لن يحاربَ من يساله ، ولن يَحْفِل بالأقاويل والشتائم التى ربما يلوكها بعضهم ، شفاء لما فى نفسه من مَوْجِدة . وكأنما يشعر أنهم سيتطلعون إلى منافع كثيرة ، يبتغون منه أن يحققها لهم ، فيقول لهم :

«إن لم أقم بحقوقكم كلها ، فاقبلوا منى بعضها ، فإن فى هذا البعض غنى» .

ثم يحذرهم الفتنة وعواقبها .

ويتجلى دهاء معاوية فى هذه الخطبة ففيها من اللين أكثر مما بها من الشدة والتهديد .

▣ سياسة ضرب الأحزاب بعضهم ببعض !! ▣

جاء فى إحدى الوصايا : « يا مولاى ، إذا لم تجعل لشعبك عدوّاً اتخذك عدواً له» . تُرى هل كان معاوية يريد أن يشغل الأعداء بعضهم ببعض ؟ ! . سوف نرى :

فبعد أن صالح الحسن بن على معاوية سار إلى المدينة .

فكتب إليه معاوية يدعوه إلى قتال الخوارج ...!

فكتب الحسن له[1] :

لو آثرتُ أن أقاتلَ أحداً من أهل القِبلة لبدأت بقتالك !؛ فإنى تركتك لصلاح الأمة وحقنِ دمائها !» .

وفى رد الحسن ما يفوّتُ على معاوية غرضه ، لكنها جولة تعقبها جولات ، والداهية لا يتخلى عن دهائه ، ولا يفارقه دهاؤه حتى الموت !

---

(١) الكامل لابن الأثير [١٦٣/٣] .

▣ كلام له مغزاه !! ▣

قال المدائنى(*) : قال معاوية يصف قريشاً :

* إذا لم يكن «الهاشمى» جواداً لم يشبه قومه .
* وإذا لم يكن «المخزومىّ» تَيَّاهاً لم يشبه قومه .
* وإذا لم يكن «الأموى» حليماً لم يشبه قومه .

فبلغ قوله الحسن بن على ـ رضى الله عنهما ـ فقال : ما أحسن ما نظر لنفسه !

أراد أن تجود « بنو هاشم » بأموالها فتفتقر إلى ما فى يديه .

وتزهو « بنو مخزوم » على الناس ، فتُبْغض وتُشْنأ[1] .

وتحلم «بنو أمية» فتُحَبّ .

▣ درس فى الدهاء !! ▣

يسوق الجاحظ فى بيانه ثلاث رسائل دارت بين الحسن وزياد ، وبين معاوية وزياد ، وهى تكشف لنا الكثير من أخلاق ثلاثتهم .

[١] من الحسن بن على إلى زياد

قال : طلب «زياد» رجلاً كان فى الأمان الذى سأله الحسنُ بنُ علىٍّ لأصحابه ، فكتب فيه الحسن ـ رضى الله عنه ـ إلى زياد :

«من الحسن بن على إلى زياد .

أما بعد .. فقد علمتَ ما كنا أخذنا لأصحابنا ، وقد ذكر لى «فلان» أنك

(*) البيان والتبين للجاحظ .

(١) الشنآن : الكراهية .

عرضتَ له ، فأحبُّ ألا تعرضَ له إلا بخير» .

[٢] من زياد إلى الحسن

فلما أتاه الكتاب ، ولم ينسبه الحسن إلى أبى سفيان ، غضب ، فكتب :

«من زيادٍ بن أبى سفيان إلى الحسن :

أما بعد .. أتانى كتابك فى «فاسق» يُؤويه الفُسّاق من شيعتك ، وشيعة أبيك ، وأيم الله لأطلبنّهم ولو بين جلدك ولحمك ، وإن أحبّ لحمٍ إلىّ آكلُه لَحمٌ أنت منه ..!!

[٣] من معاوية إلى زياد

فلما وصل الكتابُ «الحسنَ» وجّه به إلى معاويةَ فلما قرأه معاوية غضب وكتب :

«من معاوية بن أبى سفيان إلى زياد بن أبى سفيان :

أما بعد .. فإن لك رأيين :

رأياً من أبى سفيان ، ورأياً من سُمَيّة !

فأما رأيك من أبى سفيان فحلم وعزم .

وأما رأيك من «سُمَيّة» فكما يكون رأى مِثْلِها !

وقد كتب إلىّ الحسنُ بن علىّ أنك عرَضتَ لصاحبه !

فلا تعرض له ، فإنى لم أجعل لك إليه سبيلاً !

وإن الحسن بن على ممن لا يُرْمَى به الرَّجَوان[1] .

والعجب من كتابك إليه أنك لا تنسبه إلى أبيه ، أَفَإلى أمه وكلته وهو ابن فاطمة بنت محمد ـ ﷺ ـ!؟ فالآن حين اخترت له .. والسلام !؟»

---

(١) الرّجا : الناحية ولكل بئر رجوان ، ويقال : رمى به الرجوان : طرح فى المهالك ، وهو ممن لا يرمى به الرجوان : أى لا يستهان بشأنه .

▣ من أكرم الناس ؟! ▣

قيل : تذاكر جلساء معاوية بحضرته يوماً أشراف الناس ، وذوى الوجاهة والبيوت الجليلة ـ والحسين حاضر ـ فقال معاوية :

من تعرفون أكرم الناس أباً وأماً ..

وجَدّاً وجَدّةً ..

وعمّاً وعمّةً ..

وخالاً وخالةً .؟

فقالوا : أمير المؤمنين أعلم !

فأخذ بيد الحسين بن على ـ رضى الله عنهما ـ وقال :

هذا أبوه على بن أبى طالب ، وأمه فاطمة ابنة محمد ـ ﷺ ـ، وجده رسول الله ـ ﷺ ـ، وجدته خديجة رضوان الله عليها ، وعمه جعفر بن أبى طالب ، وعمته هالة ابنة أبى طالب ، وخاله القاسم بن رسول الله ـ ﷺ ـ، وخالته زينب ابنة محمد ـ ﷺ ـ.

◄ معاوية وقد خلا الجوله بموت الحسن !

يروى ابن قتيبة ما كان من معاوية حين بلغه موت الحسن فيقول :

لما بلغ معاوية خبر موت الحسن أظهر فرحاً وسروراً ، فلما عرف عبد الله بن العباس ذلك دخل على معاوية ، فقال له معاوية :

يابن عباس ، هلك الحسن !

فأجاب ابن عباس : نعم هلك ! إنا لله وإنا إليه راجعون ، وقد بلغنى الذى أظهرت من الفرح والسرور لوفاته !

أما والله ما سد جسده حفرتَك ، ولا زاد نقصانُ أجله فى عمرك !

ولئن أُصبِنا به لقد أصبنا بمن كان خيراً منه جده رسول الله ـ ﷺ ـ، فجبر الله مصيبته ، وخلف علينا من بعد أحسن الخلف !

وبكى ابن عباس فبكى الحاضرون جميعاً !

قال معاوية : كم ترك بنين صغارا ؟!

قال ابن عباس : كلنا كان صغيراً فكبر .

قال معاوية : كم له من العمر ؟

فأجاب ابن عباس : الحسن أعظم من أن يجهل أحد مولده !

قال معاوية : أصبحت ـ يابن عباس ـ سيد قومك !

قال ابن عباس : أمّا ما أبقى الله أبا عبد الله الحسين فلا !!

قال معاوية : لله أبوك يابن عباس ! ما استنبأتك إلا وجدتك مستعداً»[1] .

▣ شيء من أدب معاوية وسياسته ▣

بين معاوية وأم المؤمنين عائشة

كتب معاوية إلى السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن اكتبى إلىّ كتاباً توصينى فيه ، ولا تكثرى ، فكتبت إليه : سلام عليك ، أما بعد ؛ فإنى سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « **من التمسَ رضا الله بسخَط الناس ، كفاه الله تعالى مُؤنةَ الناس . ومن التمس رضا الناس بسَخَط الله وكله الله تعالى إلى الناس** » . والسلام عليك .

[أخرجه الترمذى ـ كما جاء فى تيسير الوصول]

* وفى مسند أحمد ، وأصله فى مسلم ، عن ابن عباس ؛ قال : قال النبى ـ ﷺ ـ: « **ادع لى معاوية** » . وكان كاتبه .

* وذكر ابن أبى الدنيا أن عمر قال : « **إياكم والفرقة بعدى ؛ فإن فعلتم ، فاعلموا أن معاوية بالشام ، فإذا وكلتم إلى رأيكم كيف يستبزها منكم ؟!** »

* معاوية فى مرضه :

أنشد معاوية وقد تجلد لعائديه :

---

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة [جـ ١ ص ١٦٦ ـ ١٦٧] .

وتجلـــدى للشامـــــتين أُريهمُ أنى لريب الدهـــر لا أتضعضع
وإذا المنية أنشَبَتْ أظفارها ألفَيْتَ كلَّ تميمةٍ لاتنفـع

معاوية ومحمد بن الأشعث :

ويفرد الجاحظ فصلاً فى البيان والتبيين تحت عنوان :

« شيء من أدب معاوية وسياسته »

فيقول : وأذن معاوية للأحنف بن قيس ، وقد وافى معاويةَ محمدُ بن الأشعث ، فوَجَد[1] من ذلك محمد بن الأشعث ، وأُذن له ، فجلس بين معاوية والأحنف ، فقال معاوية :

« إنا والله ما أذنا له قبلك إلا ليجلس إلينا دونك !

وما رأيت أحداً يرفع نفسَه فوق قدرها إلا من ذِلَّة يجدها ، وقد فعلَت فعلَ من أحسّ من نفسه ذُلاً وضعةً ، وإنّا كما نملك أموركم نملك تأديبَكم ؛ فأريدوا منا ما نُريده منكم ، فإنه أبقى لكم ، وإلا قَصَرْناكم كرهاً ، فكان أشد عليكم وأعنف بكم .

◄ معاوية ورجل من أهل سبأ :

وقال معاوية لرجل من أهل سبأ : ما كان أجهلَ قومك حين ملكوا عليهم امرأة !

فقال : بل قومك أجهل ! قالوا حين دعاهم الرسول ـ ﷺ ـ إلى الحق ، وأراهم البينات :

﴿ اللّٰهم إن كان هذا هو الحقَّ من عِندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ . [الأنفال : ٣٢] .

ألا قالوا : اللّٰهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له !!

معاوية عندما سقطت ثنيتاه[2] !

ولما سقطت ثنيتا معاوية لفّ وجهه بعمامة ، ثم خرج إلى الناس فقال :

---

(١) وجَد يَجِد : حزن . ووجد عليه غضب .

(٢) الثنيّة : إحدى الأسنان الأربع التى فى مقدم الفم ثنتان من فوق واثنتان من تحت . وهما ثَنِيّتان .

لئن ابتُلِيتُ ، لقد ابتُلِى الصالحون قبلى ، وإنى لأرجو أن أكون منهم ! ولئن عوقبت لقد عوقب الخاطئون قبلى وما آمنُ أن أكون منهم ! ولئن سقط عضوان منى لما بقى أكثر !

ولو أتى على نفسى لما كان لى عليه خيارٌ ـ تبارك وتعالى ـ، فرحم الله عبداً دعا بالعافية ، فوالله لئن كان عتب علىّ بعض خاصتكم لقد كنت حَدِبًا[1] على عامّتكم .

▣ بين معاوية والرهاوى ▣

جاء فى أخلاق الملوك من كتاب «التاج» المنسوب إلى الجاحظ ما يأتى :

.. وهكذا يُحْكَى عن أبى شجرة ، يزيد بن شجرة الرهاوى ، أنه بيْنَا هو يساير معاوية بن أبى سفيان ، ومعاوية يحدثه عن يوم خُزَاعة ، وبنى مخزوم وقريش ، وكان هذا قبل الهجرة ، وكان يوماً أشرف فيه الفريقان على الهلكة حتى جاءهم أبو سفيان فارتفع ببعيره على رابية ، ثم أومأ بكُمّيه[2] إلى الفريقين ، فانصرفوا .

قال : فبينا معاوية يحدث يزيد بن شجرة بهذا الحديث ، إذْ صك وجه يزيد حجرٌ عائر[3] ، فأدماه ، وجعلت الدماء تسيل من وجهه على ثوبه ، وهو ما يمسح وجهه .

فقال معاوية : «لله أنت ! ما ترى ما نزل بك» ؟!

قال : وماذاك ياأمير المؤمنين ؟

قال : هذا دم وجهك يسيل على ثوبك !

قال : أعتِقُ ما أملك ، إن لم يكن حديث أمير المؤمنين ألهانى حتى غمر فكرى ، وغطّى على قلبى ، فما شعرت بشىء حتى نبهنى أمير المؤمنين !

---

(١) الحَدِب : العطوف .

(٢) وفى رواية ثانية : «بكمه» ، وفى رواية ثالثة «بكفه» .

(٣) ورويت : «غاير» و «عاير» ، والعائر : هو ما لا يعرف راميه .

فقال له معاوية : لقد ظلمك من جعلك فى ألْفٍ من العطاء ، وأخرجك من عطاء أبناء المهاجرين ، وكُماةِ[1] أهل صِفِّين ، فأمر له بخمسمائة ألف درهم ، وزاده فى عطائه ألف درهم ، وجعله بين جلده وثوبه !

ويعلق الجاحظ قائلاً :

فلئن كان «يزيد بن شجرة» خدع معاوية فى هذه ، فمعاوية ممن لا يخادَع ولا يُجَارَى .

ولئن كان بلغ من بلادة «يزيد بن شجرة» وقلة حِسّه ما وصف به نفسه ، ما كان بجدير بخمسمائة ألف فى عطائه .

وما أظن ذلك خفى عن معاوية ، ولكنه تغافل على معرفة ، لمَّا وفاه حق رياسته !

ويروى عن معاوية أنه كان يقول : «السَّرْوُ[2] التغافل» .

▣ التغاضى عن الصغائر ! ▣

يقول الجاحظ فى كتاب التاج فى أخلاق الملوك :

ومن أخلاق الملك التغافل عما لا يقدح فى الملك ، ولا يجرح المال ، ولا يضع من العز ، ويزيد فى الأبهة .

وهكذا فعل معاوية بن أبى سفيان فى يوم عيد ، وقد قعد للناس ، ووضعت الموائد ، وبِدَر الدراهم والدنانير للجوائز والصِّلات .

فجاء رجل من الجماعة ، والناس يأكلون ، فقعد على كيس فيه دنانير ، فصاح به الخدم : « تَنَحّ فليس هذا بموضع لك ! فسمع معاوية ، فقال :

دعوا الرجل يقعد حيث انتهى به المجلس ، فأخذ كيساً ، فوضعه بين بطنه ، وحُجزة سراويله ، وقام !

---

(١) الكماة : جمع كمىّ وهو البطل المدجج بالسلاح .

(٢) السَّرْو : السخاء والمروءة والشرف ومنه قولهم : رجل سَرِىّ النفس .

فلم يجسر أحد أن يدنو منه .

فقال الخادم : أصلح الله أمير المؤمنين ! ، إنه قد نقص من المال كيسُ دنانير !

فقال : أنا صاحبه ، وهو محسوب لك .

وهذه أخلاق الملوك معروفة فى سيرهم وكتبهم ، وإنما يتفقد مثل هذا من هو دون الملك ، فأما الملك فيجل عن كل شيء ، ويصغر عنده كل شيء !

▣ مسايرة شرحبيل لمعاوية ▣

« على من يساير الملوك أن يتنكب ما يقذى أعينهم بكل جهده ، فإن لمسايرتهم شروطاً يجب على من طلبها أن يستعملها ويتحفظ فيها » [الجاحظ]

يحكى عن معاوية بن أبى سفيان ، بينا هو يسير ، وشرحبيل بن السمط يسايره ، إذْ راثت دابّة شرحبيل ؛ فقال معاوية : «ياأبا يزيد !، إنه يقال : إن الهامَة[1] إذا عظمت دلت على وُفور الدماغ ، وصحة العقل .

قال : نعم ياأمير المؤمنين ، إلا هامتى ، فإنها عظيمة ، وعقلى ضعيف ناقص !

فتبسم معاوية وقال : كيف ذلك ؟، ولله أنت !» .

قال : لإطعامى هذا النائل أمه البارحة مكّوكَىْ[2] شعير !!

فضحك معاوية ، وقال : « أفحشتَ وما كنت فاحشاً ! وحمله على دابة بين مراكبه » .

---

(١) الهامة : الرأس .

(٢) المكوك : مكيال .

▣ بعض نظراته الصائبة وأقواله الحكيمة ▣

المعروف والمنكر :

قال معاوية : معروف زماننا هذا منكر زمان قد مضى . ومُنكَر زماننا هذا معروف زمان لم يأت .

◄ تدارك :

قال يوماً على المنبر : يأهل الشام ؛ ما أنتم بخير من أهل العراق .

ثم ندم فتداركها ؛ فقال : إلا أنكم أعطيتُم بالطاعة ، وحُرموا بالمعصية .

من كلامه وحكمته :

الفرصة خُلْسة ، والحياء يمنع الرزق ، والهيبة خيبة ، والحكمة ضالة المؤمن .

إفساد الحر :

قال يوماً لابنه يزيد ، يابنى ؛ لا تستفسد الحرّ فساداً لا تُصْلِحهُ أبد . قال : بماذا ؟

قال : لا تَسْتُمَن له عِرضاً ، ولا تضربنّ له ظهراً ، فإن الحرّ لا يرى الدنيا عوضاً من هذين !

ولكن خذ ماله ، ومتى شئت أن تُصْلِحَه فمال بمال .

الصدق فى بعض المواطن :

وأتى بسارق ؛ فقال : أسَرَقْت ؟

فقال بعض من حضر : اصدق أمير المؤمنين .

فقال معاوية : الصدق فى بعض المواطن عجز .

من وصاياه لأحد عماله :

قال لعامِلٍ له : كل قليلاً تعمل طويلاً .

الزم العفاف يلزمك العمل .

إياك والرُّشَا يشتدّ ظهرك عند الخصام .

إياك والسلطان :

وقال لأبى الجهم : إياك والسلطان ، فإنه يَغْضَبُ غضبَ الصبى ، ويُعاقب عقوبة الأسد ؛ فإن قليله يغلب كثير الناس .

◄ معاوية وعُبيد الله بن زياد :

لما مات «زياد» وفد عليه «عبيد الله» ابنه : فقال له : من استخلف أخى على عمله بالكوفة ؟

قال : عبد الله بن خالد بن أُسَيْد[1] .

قال : فعلى البصرة ؟

قال : سمُرة بن جُندب .

فقال له معاوية : لو استعملك أبوك استعملتك !

فقال عبيد الله : أنشدك الله أن يقولها لى أحد بعدك : لو ولّاك أبوك وعمك وليتك . فولاه خراسان[2] .

وأوصاه فقال : اتق الله ولا تؤثرن على تقواه شيئاً .

وَقِ عِرضَك من أن تدنسه . وإذا أعطيت عهداً فَفِ به .

ولا تبيعنّ كثيراً بقليل .

وخذ لنفسك من نفسك .

ولا يخرجنّ منك أمر حتى تُبرمه ، فإذا خرج فلا يُرَدّنّ عليك . وإذا لقيت عدوَّك فغلبك على ظهر الأرض ، فلا يغلبنك على بطنها .

وإن احتاج أصحابُك أن تواسيَهم بنفسك فواسهم ، ولا تُطمِعَنّ أحداً فى غير حقه .

---

(١) عبد الله بن خالد بن أسيد اختلف فى كونه مخزومياً أو أموياً ، ولى فارس من قِبَل معاوية ، واستخلفه زياد على البصرة [الإصابة : ٤ ـ ٦١] .

(٢) فى عيون الأخبار [١ : ٢٣٠] قال له عبيد الله : لا يقولنها أحد بعدك ، ما منع أباه وعمه أن يكونا استعملاه .

ولا تُؤْيِسَنّ أحداً من حقٍّ هُوَله .

إذا جادلت وناظرت وانتصرت فقد خسرت :

قال له ابن عباس : هل لك فى مناظرتى فيما زعمت أنك خصمت فيه أصحابى ؟

فقال له معاوية : ما تصنع بمناظرتى ؟ فأشغب بك، وتشغب[1] بى ، فيبقى فى قلبك ما لا ينفعك ، ويبقى فى قلبى ما يضرك .

▣ اتفاق أبويه على ما أوصياه به ! ▣

قدم معاوية من ولاية كان عمر ولاه إياها فبدأ بعمر ـ رضى الله عنه ـ فلما دخل عليه قال له :

متى قدمت ؟ قال : الآن . وبدأت بك .

قال : اذهب فابدأ بأبويك ؛ فإن حقنا لم يدخل على حقهما .

وابدأ بأمك .

قال : فخرجت من عنده ، ودخلت على أمى هند ، فقالت : يابنى ؛ إنه ما ولدت حرةٌ مثلَك ، وإنك قد أُنهِضْت فانهض ، وإن الذى استعملك قادر على أن يعزِلَك .

فاعمل بما وافقه ، وافقك ذلك أو خالفك .

قال : فخرجت من عندها فدخلت على أبى فقال : يابنى ، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا فأساءوا سبقنا ، فرفعوا وضيعهم ، ووضعوا رفيعنا ، وصرنا أذناباً ، وصاروا رءوساً ، وقد رأيتهم ولّوك جسيماً من غير حاجة بهم إليك ، ولكنه جدٌّ[2] وقع ؛ فاعمل بما وافقهم ، إمّا لربك ، وإمّا لهم .

---

(١) الشغب : تهييج الشر وإثارة الفتن والاضطراب .

(٢) جَدّ : خط .

وجاء فى العِقْد الفريد قول معاوية بعد أن سمع كلاميهما : فعجبت من اتفاقهما فى المعنى على اختلافهما فى اللفظ !

عطاء لا يُنْسَى !

قال معاوية لابن الأشعث بن قيس :

ما كان جَدّك قيس بن معد يكرب أعطى الأعشى ؟

فقال : أعطاه مالاً وظَهْراً ورقيقاً وأشياءَ أُنسيتُها .

فقال معاوية : لكن ما أعطاكم الأعشى لا يُنْسَى .

معاوية والخلافة :

ذُكِرَ علىّ ـ رضى الله عنه ـ فى مجلس معاوية ، وعنده أهله ، فقال عنبسة بن أبى سفيان : والله إنى لأعجب من علىٍّ وطلبه للخلافة !

فقال معاوية ـ وضحك ـ: أما والله إنها سُنّة كما قال الشاعر :

وما تركته رغبةً عن جماله ولكنها كانت لآخر تُخْطَب

معاوية وزياد :

وفخر عنده سُليم مولى زياد ، فقال معاوية : اسكت فوالله ما أدرك صاحبك شيئاً بسيفه إلا وقد أدركت أكثر منه بلسانى .

ثلاث من السُّؤْدُد :

ومن كلام معاوية : ثلاث من السُّؤدد : الصّلَع ، واندحاء البطن (عظمها واسترسالها) ، وترك الإفراط فى الغيرة .

ويقول الآبى فى نثر الدر : وقد عيب بهذا الكلام ، ورمى بقلة الغيرة .

معاوية وعمرو بن العاص :

وقال معاوية لعمرو بن العاص : ياعمرو ؛ إن أهل العراق قد أكرهوا عليًّا علَى أبى موسى ، وأنا ـ والله ـ وأهل الشام راضون بك .

وقد ضم إليك رجل طويل اللسان ، قصير الرأى ؛ فأَجِدِ الحَزّ ، وطَبّق

المفصل ، ولا تلقه برأيك[1] كله .

رجوعه إلى الحق :

قال ليونس بن سعيد الثقفى : اتق الله لا أطيرُ بك طيرةً بطيئاً وقوعها قال : أليس لى وبك المرجع بعدُ إلى الله ؟

قال : بلى ، فأَسْتَغْفِرُ الله .

أى الشعر أحب إليه ؟

قال لعبد الرحمن بن الحكم الشاعر الأموى : بلغنى أنك قد لهجت بقول الشعر . قال : قد فعلت .

قال : فإياك والتشبيب بالنساء ، فتغر الشريفة ، وترمى العفيفة ، وتقر على نفسك بالفضيحة .

وإياك والهجاء ؛ فإنك تُحنِقُ عليك كريماً ، وتستثير سفيهاً ، وإياك والمديح ؛ فإنه طعمة الوَقَاح ، وتفحش السؤال .

ولكن افخر بمفاخر قومك ، وقل من الشعر ما تزين به نفسك ، وتؤدب غيرك .

المُلْك بين الحزم والتوانى !

وقال لعمرو بن سعيد : ليس بين الملك ، وبين أن يملك جميع رعيته ، أو يملكه جميعهم إلا حزم ، أو توانٍ .

◄ معاوية وزياد أيهما أدهى ؟!

قيل لمعاوية : أنت أنكر (أدهى) أم زياد ؟

قال : إن زياداً لا يدَعُ الأمر يتفرق عليه ، وإنه يتفرق علىّ فأجمعه .

---

(١) فى العقد الفريد أن هذا القول مثل للبليغ الموجز الذى يقل الكلام ، ويصيب المعانى .

◄ معاوية وعمرو بن العاص :

وقال عمرو بن العاص لمعاوية : ما أشد حبَّك للمال ! قال : ولم لا أحبه .

من السِّفلَة[٢] فى رأيه :

وقال : السِّفلَةُ من ليس له نسب معروف أو فعل موصوف .

صفات لا تجتمع فى حر :

وقال : ثلاثة ما اجتَمعت فى حر : مباهتَةُ الرجال[١] ، والغيبة للناس ، والملال لأهل المروءة .

خذ فيما كنت فيه !

قدم على معاوية رجل ، فإنه ليحدثه إذ حَبق (ضرط) ؛ فانقبض وترك الكلام من هيبة الموقف .

فقال معاوية : خذ فيما كنت فيه ، فما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتُها من نفس !

العيال والمال :

وقال : العيال أَرَضَةُ المال !

معاوية والثقة بالناس :

وقيل له : ما بلغ من عقلك ؟ قال : لم أثق بأحد .

وكّل به من يؤدبه :

نظر معاوية إلى ابنه يزيد وهو يضرب غلاماً له ، فقال له : لا تُفْسِدْ أدبك بتأديبه ، ولكن وكِّل به من يؤدبه .

---

(٢) السِّفْلَةُ من الناس : هم أسافلهم وغوغاؤهم ، والسِّفِلَةُ أيضاً .

(١) رميهم بما ليس فيهم زوراً وبهتاناً .

النبل عنده :

وسئل : ما النبل ؟ فقال : الحلم عند الغضب ، والعفو عند المقدرة .

حكمته فى رده :

قال له رجل : والله لقد بايعتك وأنا كاره . فقال : قد جعل الله فى الكره خيراً كثيراً[1] .

معاوية والنساء :

قال معاوية فى النساء : إنهن يغلبن الكرام ، ويغلبهن اللئام .

لكل شىء آفة !

قال معاوية :

آفة المروءة : الكبر وإخوان السوء .
وآفة العلم :النسيان .
وآفة الحِلْم : الذل .
وآفة الجود : السَّرَف .
وآفة القصد : البخل .
وآفة المنطق : الفُحْش .
وآفة الجلد : الكسل .
وآفة الرّزانة : الكبر .
وآفة الصمت : العِىّ .
وآفة اللّب : العُجب .
وآفة الظَّرف : الصلف .
وآفة الحياء : الضعف .

وبعد هذه النظرات الصائبة ، والأقوال الحكيمة ، والتجارب النافعة ، يطيب لنا أن نتابع الجانب العملى .. فتعال نتعرف على البحرية الإسلامية فى عهده ، وما كان لها من شأن ووجود فى البحر الأبيض المتوسط !!

---

(١) فى العقد الفريد مايخالف رواية الآبى فى نثر الدر : أبايع يزيد وأنا كاره .

▣ الفتوح فى عهد معاوية ▣

السـند :

غزا عبد الله بن سوّار الذى كان أميراً على ثغر السند « القيقان »[1] مرتين قتل فى ثانيتهما .

وغزا المهلب بن أبى صفرة هذه الجهات ووصل إلى لاهور[2] .

وكانت همة المسلمين موجهة نحو الشمال والغرْب ؛ حيث الدولة الرومانية الشرقية التى كانت تغير على البلاد الإسلامية لما بينها من الجوار !

فرتب معاوية الغزو إليها براً وبحراً .

وقد بلغ أسطول الشام فى عهد معاوية ١٧٠٠ سفينة افتتح بها عدة جهات منها جزيرة «قبرص» ، وجزيرة «رودس» وبعض الجزائر اليونانية ، أما فى البر فقد رتب «الشواتى والصوائف»[3] .

▣ أول عملية إبرار بحرى فى تاريخ المسلمين ▣ (عام ٢٨ هـ . ٣٣ هـ)

كم كان معاوية بن أبى سفيان بعيد النظر شديد الوعى البحرى مؤمناً بأن السيطرة على الجزر ذات الموقع الحاكم فى البحر الأبيض المتوسط ، وخاصة الجانب الشرق منه «ضرورة استراتيجيّة» لتحقيق السيادة البحرية للأساطيل الإسلامية .

ولقد كانت «قبرص» من وجهة نظر المسلمين فى الشام تشكل خطراً على الشام ـ خلال عمليات الفتح ـ باعتبارها قاعدة للبيزنطيين (الروم) فى إغاراتهم

---

(١) من بلاد السند مما يلى خراسان .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان [ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩] .

(٣) المراد بها الجيوش التى كانت تغزو هذه البلاد فى الشتاء والصيف .

البحرية على الشام ، وملجأ يلجئون إليه عند ارتدادهم عنه استعداداً لمعاودة الإغارات[1] .

فخلال سنوات الفتح الإسلامى للشام لم يجد المسلمون عدواً لهم فى معاركهم أقسى من البحر ، وما يأتى منه من أخطار[2] .

ويعتبر معاوية بن أبى سفيان أول من نظّم أسطولاً فى الإسلام ، وأول من أرسل حملة بحرية إسلامية للغزو فى البحر الأبيض المتوسط ، فقد استأذن الخليفة عمر ـ وهو يلى الشام من قِبَله ـ لكى يسمح له الخليفة بركوب البحر لاعتزامه فتح جزيرة قبرص ، ومما قاله معاوية لعمر :

«ياأمير المؤمنين ، إن بالشام قرية يسمع أهلها نُباحَ كلاب الروم ، وصياح ديوكهم أو «دجاجهم» ، وهى تِلْقاءَ ساحل من سواحل حِمص ، فاتهمه عمر ؛ لأنه المشير بذلك ، وكتب إلى «عمرو بن العاص» والى مصر ـ رضى الله عنه ـ:

«أنْ صِف لى البحر ثم اكتب إلىّ بخبره» .

فكتب إليه «عمرو بن العاص» : «ياأمير المؤمنين ، إنى رأيت خَلْقاً كبيراً ، يركبه خَلْق صغير ، ليس إلا السماء !

إن رَكُن (سكن) خرَّق القلوب ، وإن تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة .

هم فيه كدُودٍ على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا بَرِق» (من الحيرة والدهشة) .

لما قرأ عمر الخطاب ما بعث به عمرو بن العاص إليه كتب إلى معاوية :

---

(١) مجلة الأزهر مايو ١٩٩٠م لواء . ا . ح محمد جمال الدين محفوظ . بتصرف .

(٢) ولقد تجلى لنا هذا الخطر فى العصر الحاضر أيام أحداث العدوان الثلاثى (الإنجليزى ـ الفرنسى ـ الإسرائيلى) عام ١٩٥٦ م حيث كانت قبرص القاعدة التى انطلقت منها أساطيل العدو وطائراته .

«لا والذى بعث محمداً بالحق ، لا أحمل فيه (أى : فى البحر) مُسْلِماً أبداً»[1] .

ولكن معاوية ما يزال مقتنعاً بضرورة فتح قبرص ، فليس أمامه إلا الانتظار !

وفى خلافة عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه (٢٣ ـ ٣٥ هـ) أعاد معاوية عام ٢٧ هـ طلبه موضحاً أهمية البحر ، فأذن له عثمان ، وأوصاه : «لا تنتخب الناس ، ولا تُقْرع بينهم ، خيّرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه» .

وهنا تحققت أمنيته ، وراح يستعد لغزو قبرص .. وتحرك أسطول مشترك بين الشام ومصر تحت القيادة العامة لمعاوية ، وكانت قيادة أسطول الشام لعبد الله بن قيس ، أما أسطول مصر فكانت قيادته لعبد الله بن سعد بن أبى سرح .

واحتشدت الأساطيل فى ميناء «عكا» ، وقد اشترك مع الجند عدد من كبار الصحابة من بينهم : أبو الدرداء ، وأبو ذَرٍّ الغفارى ، وفضالة بن عبيد ، والمقداد ابن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، الذى حمل معه زوجته «أم حرام بنت ملحان الأنصارية» وقد اصطحب معاوية معه زوجته فاختة تنفيذاً لأمر الخليفة عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ حين أذن له بالغزو فى البحر بأن يأخذ امرأته : «إن ركبت البحر ومعك امرأتك ، فاركبه مأذونا لك ، وإلا فلا»[2] .

وأبحرت الحملة البحرية الإسلامية من ميناء «عكا» فى ربيع عام ٢٨ من الهجرة إلى «قبرص» حيث قام المسلمون بأول عملية إبرار بحرى فى تاريخهم ، وبعد أن أنزلوا عدتهم وعتادهم إلى شاطىء الجزيرة أرسلوا إلى أهلها يخبرونهم بأهدافهم ، وأنهم إنما جاءوا ليتفقوا معهم على ما فيه تأمين للشواطىء الإسلامية على المياه الشرقيّة من البحر المتوسط .

ولكن سكان الجزيرة تحت ضغط الروم أَبَوْا الدخول فى مفاوضات مع المسلمين واعتصموا بأسوار مدنهم ، فتقدمت الجيوش نحو عاصمتهم «قسطنطينا» وحاصرتهم ، واستولوا على كنوزهم وأسروا كثيراً منهم مما اضطر حاكم العاصمة

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك [جـ ٤ ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩] .
(٢) البلاذرى فتوح البلدان .

أو (أركونها) إلى عقد صلح مع المسلمين يحقق الأمل المرجو من غزو الجزيرة وعاد الأسطول الإسلامى إلى قواعده دون أن يترك فى جزيرة قبرص حامية من القوات الإسلاميّة .

محاولة غزو القسطنطينيّة :

وفى سنة ٤٨ هـ جهز معاوية جيشاً لفتح القسطنطينية براً وبحراً ، وكان على الجيش سفيان بن عوف[1] ، وقد خرج معه عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وأبو أيوب الأنصارى ، وأمّر معاوية ابنه يزيد على الجيش ؛ فساروا حتى بلغوا «القسطنطينية» ، فاقتتل المسلمون والروم ، ولم يستطع العرب فتح القسطنطينية لمتانة أسوارها ، ومنعة موقعها ، وفتك النار الإغريقية بسفن المسلمين .

وفى أثناء الحصار قتل «أبو أيوب الأنصارى» فدفن خارج «القسطنطينية» قريباً من سورها .

ثم اضطر المسلمون للعودة إلى الشام بعد أن فقدوا كثيراً من جنودهم وسفنهم .

غزو أفريقية :

وفى سنة ٥٠ هـ أرسل معاوية إلى «عقبة بن نافع» الذى كان مقيماً «ببرقة» و «زويلة» منذ أيام «عمرو بن العاص» عشرة آلاف جندى ، فدخل إفريقية ، وتمكن من فتحها ، وأسلم على يديه كثير من البربر .

وقد عمل العرب على إدخالهم ضمن جيوشهم ؛ وبذلك تسنى لهم أن يجذبوهم إلى اعتناق الإسلام حتى اتصل ببلاد السودان كما يقول ياقوت .

وقد كون البربر نواة الجيوش التى أتمت فتح بلاد المغرب تحت قيادة قواد من العرب ، بل ومن البربر أيضاً .

وبذلك أصبح «عقبة بن نافع» والياً على إفريقية بعد أن كانت ولايتها تابعة

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى . د. حسن إبراهيم [جـ ١ ص ٤٠٦] .

لولاة مصر .

تمصير القيروان :

وقد رأى عقبة ـ على أثر انتصاره على البربر ـ أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا ثورة أهل البلاد ، فقصد مدينة القيروان[1] .

وأمر ببناء المدينة ، فبنيت كما بنى بها المسجد الجامع ، ولم يلبث «عقبة» أن عزل وولى مكانه «أبو المهاجر مولى مَسْلَمة بن مُخَلّد» الذى ولاه معاوية مصر وإفريقية[2] .

(١) مدينة مُصّرت فى الإسلام أيام معاوية .

(٢) انظر كتاب البلدان لليعقوبى ، معجم البلدان لياقوت [جـ٧ ص ١٩٣ ـ ١٩٤] ، كتاب الولاة للكندى [ص ٣٦]

▣ يوم من أيام معاوية !! ▣

ذكر المسعودى شيئاً عن حياة معاوية الخاصة وشغفه بالعلم فقال : «كان من أخلاق معاوية أنه كان يؤذن فى اليوم والليلة خمس مرات» .

كان إذا صلى الفجر جلس للقاصّ حتى يفرغ من قصصه ، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه ، فيقرأ أجزاءه ، ثم يدخل إلى منزله ، فيأمر وينهى ، ثم يصلى أربع ركعات .

ثم يخرج إلى مجلسه ، فيأذن لخاصة الخاصة ، فيحدثهم ويحدثونه ، ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم إلى العشى ، ثم يؤتى بالغداء الأصغر ، وهو فضلة عشائه من جدى بارد ، أو فرخ ، أو ما يشبهه .

ثم يتحدث طويلاً ، ثم يدخل منزله لما أراد ، ثم يخرج فيقول : ياغلام ، أخرج الكرسى ، فيخرج إلى المسجد ، فيوضع ، فيسند ظهره إلى المقصورة ، ويجلس على الكرسى .

ويقوم الأحداث ، فيتقدم إليه الضعيف والأعرابى والصبى ، والمرأة ومن لا أحد له ، فيقول : ظُلِمت ، فيقول : أعزوه .

ويقول : عُدِىَ على ؛ فيقول : ابعثوا معه .

ويقول : صُنِع بى ؛ فيقول : انظروا فى أمره .

حتى إذا لم يبق أحد ، دخل فجلس على السرير ، ثم يقول : ائذنوا للناس على قدر منازلهم ، ولا يشغلنى أحد عن رد السلام . فيقال : كيف أصبح أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ؟ فيقول : بنعمة من الله .

فإذا استووا جلوساً قال : ياهؤلاء ، إنما سميتم أشرافاً لأنكم شرّفتم من دونكم بهذا المجلس .

ارفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا ، فيقوم الرجل ، فيقول : استشهد فلان ، فيقول : افرضوا لولده .

ويقول آخر : غاب فلان عن أهله ، فيقول : تعاهدوهم .. أعطوهم .. اقضوا حوائجهم . اخدموهم .

ثم يؤتى بالغداء ، ويحضر الكاتب ، فيقوم عند رأسه ! ويقدم الرجل فيقول له : اجلس على المائدة ، فيجلس ، فيمد يده فيأكل لقمتين أو ثلاثاً ، والكاتب يقرأ كتابه ، فيأمر فيه أمراً ، فيقال : ياعبد الله ، أَعْقِبْ .

فيقوم ويتقدم آخر حتى يأتى على أصحاب الحوائج كلهم . وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء ، ثم يرفع الغداء ، ويقول للناس :

أجيزوا ، فينصرفون ؛ فيدخل منزله ، فلا يطمع فيه طامع حتى ينادَى بالظهر ، فيخرج فيصلى ، ثم يدخل فيصلى أربع ركعات ، ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة .

فإذا كان الوقت وقت شتاء أتاهم بزاد الحاج من الأخبصة اليابسة ، والخشكنانج[1] ، والأقراص المعجونة باللبن والسكر من دقيق السميذ ، والكعك المنضد ، والفواكه اليابسة .

وإذا كان وقت صيف أتاهم بالفواكه الرطبة ، ويدخل إليه وزراؤه ، فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقية يومهم ، ويجلس إلى العصر ثم يخرج ، فيصلى العصر ، ثم يدخل منزله ، فلا يطمع فيه طامع ، حتى إذا كان آخر أوقات العصر ، خرج فجلس على سريره ، ويؤذن للناس على منازلهم ، فيؤتى بالعشاء ، فيفرغ منه مقدار ما ينادى بالمغرب ، ولا ينادى له بأصحاب الحوائج .

ثم يرفع العشاء ، وينادى بالمغرب ، فيخرج فيصليها ، ثم يصلى بعدها أربع ركعات ، يقرأ فى كل ركعة خمسين آية ، يجهر تارة ويخافت أخرى .

ثم يدخل منزله ، فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالعشاء الآخرة ، فيخرج فيصلى ، ثم يؤذن للخاصة ، وخاصة الخاصة ، والوزراء ، والحاشية ، فيؤامره

---

(١) الأخبصة : جمع خبيص . حلوى مخلوطة من التمر والسمن .
والخشكنان : خبزة من خالص دقيق الحنطة تملأ بالسكر واللوز أو الفستق . وتقل (القطائف) .

الوزراء فيما أرادوا صدراً من ليلتهم، ويستمر إلى ثلث الليل فى أخبار العرب ، وأيامها ، والعجم وملوكها ، وسياستها لرعيتها ، وسائر ملوك الأمم ، وحروبها ، ومكايدها ، وسياستها لرعيتها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة .

ثم تأتيه الطرف الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة .

ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد ، فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها ، والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون . وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار ، وأنواع السياسات ، ثم يخرج فيصلى الصبح ، ثم يعود فيفعل ما وصفنا فى كل يوم» .

▣ معاوية فى بيته ▣

مع زوجاته :

كان معاوية يقدم أم ولده يزيد على أم ولده عبد الله ، وقد جلس مع الثانية يوماً ، فمرت بها أم يزيد وهى ميسون بنت بجدل الكلبية ، فأتبعتها أم عبد الله عينها وقالت لها : لعن الله خمش ساقيك[1] !

تقصد بذلك ما كانت عليه «ميسون» أيام كانت تعيش فى البادية وتنتقل بين الوديان بين الشيح والقيصوم[2] ، فتتعرض للشوك ..

فغضب معاوية وقال : أرأيت ذلك منها ؟!

فقالت : نعم !

فقال معاوية : أما والله على هذا لما انفرجت عنه ساقاها خير مما انفرجت عنه ساقاك !

وهو يشير بذلك إلى نجابة يزيد ، وفصاحة لسانه ، وتوقد لبه ، وخمول أخيه عبد الله ، وتراخي همته عن طلب المعالى .

(١) الخمش : اسم لجرح البشرة ، وهو أثر الخمش .

(٢) الشيح : نبت رائحته طيبة ، وهو كثير الأنواع ترعاه الماشية . والقيصوم أيضاً قريب من نوع الشيح كثير فى البادية .

معاوية ومَيْسون(*)

تزوج معاوية ميسون بنت بجدل الكلبية وهى شاعرة من شواعر العرب ، ونقلها من البدو إلى دمشق ، وأسكنها قصراً من قصور الخلافة ، فكانت تكثر الحنين والتذكر لمسقط رأسها ، فأنصت إليها معاوية ذات يوم وهى تنشد :

لَلُبْسُ عباءة وتقرّ عينى ... أحبُّ إلىّ من لبس الشفوفِ
وبيت تخفق الأرواح فيه ... أحبُّ إلىّ من قصرٍ منيف
وبكر يتبع الأظعان صعب ... أحبّ إلى من بغلٍ زفوفِ
وكلبٍ ينبح الأضياف دونى ... أحب إلىّ من هزّ الدفوف
وخرق من بنى عمى ثقيف ... أحبّ إلىّ من عِلْج(1) عنيف

فقال معاوية : ما رضيت ابنة بجدل حتى جعلتنى عِلْجاً ، فالحقى بأهلك .

فمضت إلى كلب ، ومعها ابنها يزيد .

مع ابنه يزيد :

غضب معاوية يوماً من ابنه يزيد ، فاستدعى الأحنف بن قيس ، ثم قال له :

ـ ياأبا بحر ، ما تقول فى الولد ؟

فقال : ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، وسماء ظليلة . فإن طلبوا فأعطهم .

وإن غضبوا فأرضهم ، يمنحوك ودهم ، ويحبوك جهدهم ! ولا تكن عليهم ثقلاً فيملوا حياتك ، ويحبوا وفاتك ! فقال معاوية : لله درك ياأحنف ! لقد دخلت على وإنى لمملوء غضباً على يزيد ، فسلّلته من قلبى !

(*) الأغانى للأصفهانى ، وَدُرّة الغواص للحريرى .
(1) العِلج : كل جاف شديد من الرجال .

من حيل معاوية

«كانت أرينب بنت إسحاق من الجميلات اللاتى أبدع الله خلقهن ، ولقد منحها الله ـ سبحانه ـ كما لا وما لا وشرفا ، وقد تزوجها ابن عمها عبد الله بن سلام القرشى، وكان من معاوية بن أبى سفيان بالمنزلة الرفيعة فى الفضل ، ولكن يزيد ابنه كان قد وقع فى حبها ، فشكا أمره إلى أبيه معاوية ، فنصحه معاوية بقوله : مهلاً يايزيد ، فتملك يزيد العجب وقال : علام تأمرنى بالمهل ، وقد انقطع منها الأمل؟! فقال له معاوية : فأين عقلك ومروءتك وتقاك؟ فقال يزيد : يغلب الهوى على الصبر والحِجَا !!

فلم ير معاوية بدأً من إجابة طلب ابنه يزيد فى أخذ الحيلة والنظر !

فكتب إلى عبد الله بن سلام ، وكان قد استعمله على العراق : أن أقبل حين تنظر فى كتابى هذا لأمر حظك فيه كامل ، ولا تتأخر عنه .

فشد الرحال إليه حتى أقبل عليه ، وكان عند معاوية أبو هريرة وأبو الدرداء صاحبا رسول الله ـ ﷺ ـ فأمر معاوية أن ينزل منزلاً قد هيىء له ، وأعد له فيه نزله .

ثم قال لأبى هريرة وصاحبه : قد بلغت لى ابنة أردت إنكاحها ، والنظر فى تبعل من يريد أن يباعلها . لعل من يكون بعدى يهتدى منه بهديى، ويتبع فيه أثرى ، فإنى تخوفت أن يدعو من يلى هذا الأمر من بعدى زهوة السلطان وسرفه إلى عضل نسائهم ، وألا يرون لهن فيمن ملكهن أمره كُفْئًا ولا نظيراً .

وقد رضيت لها عبد الله بن سلام لدينه وفضله ومروءته وأدبه .

فقال أبو هريرة وأبو الدرداء : إن أولى الناس برعاية أنعم الله وشكرها ، وطلب مرضاته فيها فيما خصه به منا أنت صاحب رسول الله وكاتبه !

---

(١) أى امرأة أيمن .

فقال معاوية : اذكراله ذلك عنى ، وقد كنت جعلت لها فى نفسها شورى غير أنى أرجو أنها لا تخرج من رأى إن شاء الله .

فلما خرجا من عنده متوجهين إلى منزل عبد الله بن سلام بالذى قال لهما ، دخل معاوية إلى ابنته فقال لها : إذا دخل عليك أبو هريرة وأبو الدرداء ، فعرضا عليك أمر عبد الله بن سلام ، وإنكاحى إياك منه ، ودَعَواك إلى مباعلته ، وحَضّاك على ملاءمة رأيى ، والمسارعة إلى هواى ، فقولى لهما : عبد الله بن سلام كفء كريم ، وقريب حميم غير أن تحته أرينب بنت إسحاق ، وأنا خائفة أن يعرض لى من الغيرة ، ما يعرض للنساء ، فأتولى منه ما أسخط الله فيه ، فيعذبنى عليه ، فأفارق الرجاء ، وأستشعر الأذى ، ولست بفاعلة حتى يفارقها !

فذكر ذلك أبو هريرة وأبو الدرداء لعبد الله بن سلام ، وأعلماه بالذى أمرهما معاوية .

فلما أخبراه سر وفرح ، وحمد الله عليه ، ثم بعثهما خاطبين عليه .

فلما قدما قال لهما معاوية : قد تعلمان رضائى به ، وحرصى عليه ، وقد كنت أعلمتكما بالذى جعلت لها فى نفسها من الشورى ، فادخلا إليها ، واعرضا عليها الذى رأيت لها . فدخلا عليها وأعلماها بالذى ارتضاه لها أبوها ..

فقالت لهما كالذى قال أبوها ، فأعلماه بذلك فلما ظن أنه لا يمنعها منه إلا أمرها ، فارق زوجته وأشهدهما على طلاقها ، وبعثهما خاطبين إليه أيضاً .

فخطبا وأعلما معاوية بالذى كان من فراق عبد الله بن سلام امرأته طلاباً لما يرضيها وخروجاً عما يشجيها .

وهنا أظهر معاوية كراهة لفعله ، وقال : ما أستحسن له طلاق امرأته ولا أحببته ، ولو صبر ، ولم يعجل لكان أمره إلى مصيره ، فإن كون ما هو كائن لا بد منه ، ولا محيص عنه ، ولا خيرة فيه للعباد ، والأقدار غالبة ، وما سبق فى علم الله جارٍ فيه ، فانصرفا فى عافية ، ثم تعودان إلينا فيه ، وتأخذان إن شاء الله رضانا .

ثم كتب إلى يزيد ابنه يعلمه بما كان من طلاق أرينب بنت إسحاق .

فلما عاد أبو هريرة وأبو الدرداء إلى معاوية أمرهما بالدخول عليها ، وسألاها عن رضاها تبرياً من الأمر ، ونظراً فى القول والعذر ، فيقول :

لم يكن لى أن أكرهها ، وقد جعلت لها من الشورى فى نفسها .

فدخلا عليها ، وأعلماها بالذى رضيه إن رضيت هى : وبطلاق عبد الله بن سلام امرأته أرينب طلاباً لمسرتها ، وذكرا من فضله ، وكمال مروءته ، وكريم محتدة .

فقال لهما : جف القلم بما هو كائن ، وإنه فى قريش لرفيع ، غير أن الله ـ عز وجل ـ يتولى تدبير الأمور فى خلقه ، وتقسيمها بين عباده حتى ينزلها منازلها فيهم ، ويضعها على ما سبق فى أقدارها ، وليست تجرى لأحد على ما يهوى ، ولو كان لبلغ منها غاية ما شاء .

وقد تعرفان أن التزويج هزله جد ، وندم النادم عليه يدوم ، والعثور فيه لا يكاد يقوم ، والأناة فى الأمور أوفق لما يخاف فيها من المقدور ، فإن الأمور إذا جاءت خلاف الهوى بعد التأنى فيها كان المرء بحسن العزاء خليقاً ، وبالصبر عليها حقيقاً ، وعلمت أن الله ولى التدبير ، فلم تلم النفس على التقصير ، وإنى بالله أستعين سائلة عنه حتى أعرف دخيلة خبره ، ويصح لى الذى أريد علمه من أمره ومستخيرة ، وإن كنت أعلم أنه لا خيرة لأحد فيما هو كائن فعلمتكما بالذى يرينيه الله فى أمره ، ولا قوة إلا بالله .

فقالا : وفقك الله ، وخار لك ، ثم انصرفا .

فلما أعلماه بقولها تمثل بقول القائل :

فإن يك صدر هذا اليوم ولّى فإن غداً للناظريـــــن قريب !

وتحدث الناس بالذى كان من طلاق عبد الله امرأته قبل أن يفرغ من طلبته ، وقبل أن يوجد له الذى كان من بغيته ! ولم يشكوا فى غدر معاوية إياه !

فاستحث عبد الله بن سلام ، أبا هريرة وأبا الدرداء وسألهما الفراغ من أمره فأتياه فقالا لها :

قد أتيناك لما أنت صانعة فى أمرك ، وإن تستخيرى الله يخر لك فيما تختارين ،

فإنه يهدى من استهداه ، ويعطى من اجتداه وهو أقدر القادرين .

قالت : الحمد لله الذى أرجو أن يكون قد خار لى ، فإنه لا يكل إلى غيره من توكل عليه ، وقد استبرأت أمره ، وسألت عنه فوجدته غير ملائم ولا هو بموافق لما أريد لنفسى مع اختلاف من اشتشرته فيه ، فمنهم الناهى عنه ، ومنهم الآمر به ، واختلافهم أول ما كرهت من الله .

فعلم عبد الله أنه خدع ، واشتد عليه الهم والحزن »[1] .

وهكذا يفعل الدهاء !

(١) للقصة بقية نقلها صاحب أعلام النساء عن الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ، ونفحات الأوراق لابن حجة الحموى .

◘ دروس فى الدهاء[1] والحلم ◘

◄ معاوية وأبو هوذة الباهلى :

قال معاوية لأبى هوذة الباهلى :

«لقد هممت أن أحمل جمعاً من باهلة فى سفينة ثم أغرقهم !

قال أبو هوذة :

إذن لا ترضى باهلة بعدّتهم من بنى أمية !!

قال : اسكت أيها الغراب الأبقع !ـ وكان به برص !

قال أبو هُوذة : إن الغراب ربما درج إلى الرَّخَمة[2] حتى ينقر دماغها ، ويقتلع عينيها !

فقال يزيد : ألَا تقتله ياأمير المؤمنين .

قال : مَهْ[3] .

ونهض معاوية ثم وجهه فى سَرِيّة فقتل .

فقال معاوية ليزيد : هذه أخفى وأصوب[4] .

◄ معاوية وعمرو :

قال معاوية لعمرو : أنت أدهى أم أنا ؟

قال عمرو : أنا للبديهة ، وأنت للأناة .

---

(١) أورد الآبى صاحب نثر الدر باباً عنوانه : الحيل والخدائع اخترت لك منه ما يتعلق بالدهاة الأربعة فى الإسلام لتتبين كيف كانوا يتصرفون فى المواقف المختلفة ، وأيهم كان أكثر دهاء ؟ وعليك أن تسائل نفسك : ماذا تفعل لو كنت مكانه ؟!

(٢) الرخم : طائر غزير الريش أبيض اللون مبقع بسواد له منقار طويل .

(٣) مَهْ : اكفُفْ ـ اسم فعل . القاموس .

(٤) الحيوان : [٤٢٨/٣] .

قال : كلا .

قال عمرو : أَدْن منى رأسك أسَارّك .

فأدنى رأسه ، فقال عمرو : هذا من ذاك .. هل هٰهنا أحد غيرك !!

◄ حلم معاوية ودهاؤه :

قال قوم من قريش : ما نظن أن معاوية أغضبه شيء قط .

فقال بعضهم : إن ذكرت أمّه غضب .

فقال مالك بن أسماء المنى القرشى ـ وهى أمه ـ وإنما قيل لها أسماء المنى لجمالها : والله لأغضبنّه إن جعلتم لى جُعْلاً .

فجعلوا له جُعلا ، وأتاه وقد حضر الموسم فقال : ياأمير المؤمنين ، ما أشبه عينيك بعينى أمك !

قال : تلك عينان طالما أعجبتا أبا سفيان . يابن أخى ؛ خُذْ جُعْلك ، ولا تتخذنا متجراً !!

ثم دعا معاوية مولاه سعداً فقال له : أعْدِد لأسماء المنى دية ابنها ؛ فإنى والله قتلته وهو لا يدرى .

ورجع الغلام ، فقال له رجل منهم :

إن أتيت عمرو[1] بن الزبير فشبهته بأُمّه فلك ضعفا جُعلك فأتاه فقال له : يابن الزُّبير ؛ ما أشبه وجهك بوجه أمك ! فأمر به فضُرِب حتى مات .

فبعث معاوية إلى أمه بديته وقال :

أَلَا قُلْ لأسماءَ المنى أُمِّ مالك فإنى لعمرُ الله أقتلُ مالكاً[2]

◄ شخصية معاوية :

لم يكن معاوية رجلاً عادياً بل زعيماً من دهاة العرب ، وكان يمتاز بينهم جميعاً

---

(١) عمرو بن الزبير بن العوام ، كان مع الأمويين على أخيه عبد الله ، وكان مهيباً مَحْشِيّ الجانب، ظفر به أخوه وسجنه إلى أن مات بعد سنة ٦٠ هـ . تاريخ الإسلام : [٥٤/٤] .

(٢) فى المحاسن والمساوىء : [٣١٣/٢] : أهلكت مالكاً .

بأنه من رجال السياسة العارفين بها .

وكان حليماً لا يثور ، ولا يترك للغضب سبيلاً إلى نفسه .

وأهم ما يمتاز به معاوية أنه يفهم الطبيعة البشرية ويعامل كل إنسان وكل مجموعة بما يلائمها ، ويحاول دائماً أن يكسب الأعداء إلى جانبه بالمال والمنصب أو بغيرهما من المغريات ، فإن عجز عن استمالتهم فهو أقدر الناس على القضاء المبرم عليهم فلا تقوم لهم قائمة .

بعد كل هذا لا يبالى أى طريق يسلك فى سبيل الوصول إلى أهدافه ..

وكان أكبر ما ساعده على ضبط الأمن وحسن الإدارة اعتماده على دهاة العرب أمثال «عمرو بن العاص» و «المغيرة بن شعبة» و «زياد بن أبيه» ، وكان يتألفهم ويطلب ولاءهم بشتى الطرق وليس أدل على ذلك من أنه وهب «عَمْراً» خراج مصر فى مقابل ما قام به من مساندة .

◄ صفات معاوية التى أهّلته للنجاح !

إن الباحث عن صفات معاوية التى أهّلته للنجاح فى المنصب الكبير الذى تولاه يجد أنه كان لديه رصيد كبير ملموس من الحزم والسماحة مما لا يستغنى أى حاكم عن التحلى بهما ، فمنصب الحاكم يحتاج إلى حزم أحياناً ، وإلى سماحة أحياناً أخرى .

فقســا ليزدجــروا ومَنْ يَكُ حا زماً فليقسُ أحياناً على من يرحمُ

وقد كان معاوية موهوباً فى الناحيتين .

◄ نماذج من حلمه :

ومن حلمه : أنه قال يوماً لقيس بن سعد بن عبادة : ياقيس !، والله ما كنت أود أن تنكشف الحروب التى كانت بينى وبين على وأنت حى !

فأجاب قيس : والله إنى كنت أكره أن تنكشف هذه الحروب وأنت أمير المؤمنين !

---

(١) القِرى : ما يقدم للضيف .

فلم يقل له شيئاً !!، ولكننا لا ينبغى أن يتملكنا العجب .. أليس هو القائل :

إنى لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى .. ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى !

ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت .. كانوا إذا شدوها أرخيتها .. وإذا أرخوها شددتها » .

◄ فلسفة معاوية فى معاملة الخصوم :

ويروى المبرد فى «الكامل» فلسفة معاوية فى معاملة خصومه فيقول :

«إنى لا أحمل السيف على من لا سيف له !

وإن لم تكن إلا كلمة يَشْتفى بها مُشْتَفٍ جعلتها تحت قدمى ، ودَبْر أذنى»[1] .

ووصفه عبد الله بن عباس فقال :

ما رأيت أليق من أعطاف معاوية بالملك والرياسة !

ومر عبد الملك بن مروان بقبر معاوية ، فأكثر الترحم عليه .

فقيل له : قبر من هذا ؟

فأجاب : «قبر رجل كان ـ والله ـ ينطق عن علم ، ويسكت عن حلم . كان إذا أعطى أغنى ، وإذا حارب أفنى»[2] .

ويروى عن معاوية قوله :

«إنى لأرفع نفس عن أن يكون ذنب أعظم من عفوى، وجهل أكثر من علمى ، أو عورة لا أداريها بسترى ، أو إساءة أكثر من إحسانى[3] .

وقوله : ما من شيء ألذ عندى من غيظ أتجرعه

◄ مبتكرات معاوية فى خلافته :

وقد ابتكر معاوية فى خلافته أشياء لم يُسْبق إليها :

---

(١) ابن عبد ربه العقد الفريد .

(٢) الفخرى لابن طباطبا [ص ٩٥ ـ ٩٦] .

(٣) الطبرى [جـ ٤ ص ٢٤٨] .

* فهو الذى أمر أن ترفع الحِراب بين يديه .

* وهو الذى وضع المقصورة ليصلى بها فى المسجد ليأمن هجمات الأعداء حين صلاته !

وقد كان ذلك بسبب قتل عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، وهما يصليان[1] .

* ومن مبتكرات معاوية ترقية نظام البريد بحيث كانت الخيل المضمرة تقف مستعدة فى مراكز على طول الطريق ، فيركب صاحب البريد واحداً منها ، ويسرع به حتى يصل إلى محطة أخرى ، فيستبدل به غيره ، ويتركه ليستريح .. وهكذا !

* وأنشأ كذلك ديوان الخاتم[2] .

◘ معاوية يطلب من ضِرار وصف علىّ ◘ ويستزيده كل ما وعاه من كلامه !

يحدثنا المسعودى فى «مروجه» عن ذلك فيقول :

دخل ضرار بن ضمرة ـ وكان من خواصّ على ـ على معاوية وافداً ، فقال له : صف لى علياً .

قال : أعفنى ياأمير المؤمنين .

قال معاوية : لا بد من ذلك .

فقال : أما إذا كان لابد من ذلك ، فإنه كان والله بعيد المدى ، شديد القُوَى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً .

يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه !

---

(١) الطبرى [جـ ٤ ص ٩٤]

(٢) الطبرى [جـ ٤ ص ٩٤] ، وصبح الأعشى [جـ ١٤ ص ٣٦٨] ، وتاريخ الخلفاء للسيوطى [ص ٢٠٠] .

يعجبه من الطعام ما خشن ، ومن اللباس ما قصر .

وكان ـ والله ـ يجيبنا إذا دعوناه ، وكنا ـ والله ـ على تقريبه لنا وقربه منا ـ لا نكلمه هيبة له ، ولا نبتدئه لعظمه فى نفوسنا .

يبسم عن ثغر كاللؤلؤ المنظوم .

يعظم أهل الدين ، ويرحم المساكين .

ويطعم فى المسغبة يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة يكسو العريان ، وينصر اللهفان .

ويستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس بالليل وظلمته .

وكأنى به وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومُه ، وهو فى محرابه ، قابض على لحيته ، يتململ تململ السليم[1] ، ويبكى بكاء الحزين ، ويقول :

يادنيا غرى غيرى !!، ألى تعرضت؟ أم إلى تشوّفت ؟ !

هيهات هيهات !!.. لا حان حينك ، قد أبنتُك ثلاثاً لا رجعة لى فيك .. عمرك قصير ، وعيشك حقير .. وخطرك يسير .

آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق !!

فقال معاوية : زدنى شيئاً من كلامه . ويواصل ضرار حديثه حتى إذا توقف قال معاوية : زدنى كل ما وعيته من كلامه .

فيقول ضرار : هيهات أن آتى على جميع ما سمعته !

وهكذا كان معاوية كالإسفنجة يمتص الآراء والأفكار من كل نبع !!

---

(١) السليم : اللدوغ .

◘ ماذا كان موقف الناس من معاوية ؟! ◘

ولقد وقف الناس منه بين مادح وقادح !

وقد ألف ابن حجر الهيثمى كتاباً سماه : «تطهير الجنان واللسان عن التفوه بثَلْب سيدنا معاوية بن أبى سفيان» ومن ثقاة المؤلفين أبو بكر بن العربى الذى ألف كتاباً سماه : «العواصم من القواصم فى تحقيق مواقف الصحابة» .

برّأ فيه معاوية ، ودافع عنه فى غير إسراف ولا غلو كما فعل ابن حجر .

ومهما يكن من شيء فإن معاوية قد شغل حِقْبة تاريخية من أَجَلّ الحِقب ، وأغناها بالحوادث والأخبار !

لقد كان معاوية رجل دنيا ، والرجل الذى يحب الدنيا يحتال لها ، فى غير يأس ولا ملل إن فاتته حيلة ، التفت يُدَبّر حيلة أخرى !

وإنه ليسيطر علىّ فى إعداد هذا الكتاب قول الله تعالى : ﴿ **تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولاتُسْأَلون عما كانوا يعملون** ﴾ [البقرة : ١٤١] .

ومن أجل هذا حرصت كل الحرص ألا أكون قاضياً أحكم لهذا أو ذاك ، فتلك الفتنة الكبرى قال فيها مشايخنا : إنها : «فتنة طهر الله منها سيوفنا أفلا نُطَهِّر منها ألسنتا ؟!» . لم يبق إذن إلا أن أَجْلوَ صورة «معاوية» فى مرآة بعض المؤرخين والكتاب بحثا عن مقومات شخصيته التى انتصر بها وقاد المسيرة ، وأولها الدهاء !!

◘ معاوية فى مرآتهم ! ◘

* قال ابن عباس :

«ما رأيت أحداً أحلى للملك من معاوية !»[1] .

* ويقول البغوى :

«كان عمر إذا نظر إلى معاوية قال : هذا كسرى العرب !»

وذكر ابن سعد عن المدائنى قال :

* نظر أبو سفيان إلى معاوية وهو غلام فقال :

إن ابنى هذا لعظيم، وإنه لخليق أن يسود قومه .

فقالت هند : قومَه فقط ؟!

ثكلتُه إن لم يَسُدْ العربَ قاطبة !!

* وقال المدائنى : كان زيد بن ثابت يكتب الوحى ؛ وكان معاوية يكتب للنبى ـ ﷺ ـ فيما بينه وبين العرب .

◘ معاوية من وجهة نظر عمر الرجل الأقوى !! ◘

لما عزل عمرُ بن الخطاب شُرَحبيل بن عبد الله[2] ، واستعمل معاوية بن أبى سفيان مكانه ، جاء شُرَحْبيل ، وقال له : عن سُخْطٍ[3] عزلتنى ياأمير المؤمنين ؟!!

قال : لا إنك لَكَما أحِبُّ ، ولكنى أريد رجلاً أقوى من رجل !

---

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل ، وفى تاريخ البخارى ، عن معمر عن همام بن منبه .

(٢) هو الصحابى الجليل شرحبيل بن حسنة ـ وهى أمه ـ واسم أبيه عبد الله . أسلم قديماً ، وهاجر إلى الحبشة هو وأخوه ، وكان من وجوه قريش ، وكان والياً على الشام لعمر ، وتوفى سنة ١٨ هـ أسد الغابة .

(٣) السَّخط والسخطة : الكراهية وعدم الرضا .

فقال شرحبيل : قُمْ فاعذُرنى[1] فى الناس ، لا تدركنى هُجْنة[2] !

فقام عمر فى الناس خطيباً فقال : «أيها الناس ، إنى ـ والله ـ ما عزلت شُرَحْبيلَ عَن سَخْطَةٍ ، ولكنى أردت رجلاً أقوى من رجل» .

◘ معاوية فى مرآة عمرو بن العاص ◘

لا يعرف «الداهية» إلا «الداهية» ، فإذا ما وصف عمرو بن العاص معاوية ، فإنه يكشف لنا عن لون من دهائه .

روى الجاحظ فى «البيان والتبيين» قال :

قال عمرو بن العاص : ما رأيت معاويةَ قطّ متكئاً على يساره ، واضعاً إحدى رجليه على الأخرى ، كاسراً إحدى عينيه يقول للذى يكلمه : يا هَنَاة[3] !، إلّا رحمت الذى يكلمه !!

◄ رأى مؤرخى العرب فى معاوية :

كان معاوية داهية من دُهاة العرب ومن أوفرهم حظاً فى السياسة ، وفى ذلك يقول صاحب الفخرى[4] :

كان معاوية عاقلاً فى دنياه ، لبيباً ، عالِماً ، حليماً ، ملكاً قوياً جيد السياسة ، حسن التدبير لأمور الدنيا ، عاقلاً حكيماً ، فصيحاً ، بليغاً ، يحلم فى مواضع الحلم ، ويشتد فى موضع الشدة ، إلا أن الحلم كان أغلب عليه ، وكان كريماً باذلاً للمال ، محباً للرياسة ، مشغوفاً بها ، كان يُفَضِّلَ على أشراف رعيته كثيراً ، فلا

---

(١) أى أظهر عذرى بين الناس ، وبين لهم أنه لم يكن عزلى بسبب ارتكابى ما يشين .

(٢) لا يلحقنى عيب ومعرة .

(٣) ياهناة ! كلمة كانت العرب تقولها عند إرادة التكبر ، كأنها تقول : ياشىء .
والهناة : كناية عن الرّجُل . يقال : ياهناةُ أقبل . وياهناةُ أقبل . ولا يستعمل إلا فى النداء .

(١) الفخرى [ص ٩٩ ـ ١٠٠] .

يزال أشراف قريش ـ مثل عبد الله بن العباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر الطيار ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبى بكر ، وأبان بن عثمان بن عفان ، وناس من آل أبى طالب ـ رضى الله عنهم ـ يفدون عليه بدمشق فيكرم مثواهم ، ويحسن قِراهم ، ويقضى حوائجهم ، ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ، ويجبهونه أقبح الجبه ، وهو يداعبهم تارة ، ويتغافل عنهم أخرى ، ولا يعيدهم إلا بالجوائز السنية ، والصِّلات الجمة .

وقد وصف لنا «معاوية» الأستاذ نيكلسن فى كتابه : تاريخ العرب الأدبى فى تلك العبارة : «كان معاوية سياسياً محنكاً لا يقل عن ريشيليو ، فقد مكنته معرفته التامة بالطبائع البشرية من أن يجذب إليه الرجال ذوى الآراء المعتدلة فى جميع الأحزاب المعارضة له .

وقد آتت هذه الصفات أُكُلَها طوال خلافته ، فبها استطاع أن يكبح جماح المسلمين عامة ، والخوارج خاصة وأن يسوس الأمة العربية سياسة تدل على الحكمة وحسن التدبير .

وبذلك أصبح ـ على ما ذهب إليه صاحب الفخرى ـ خليفة العالم ، وخضع له من أبناء المهاجرين والأنصار كل من يعتقد أنه أولى بالخلافة[1] .

◘ تقييم عهد معاوية أميراً وخليفة ◘

يقول ابن تيمية فى منهاج السنة :

«إن معاوية بقى فى الشام عشرين سنة أميراً ، وعشرين سنة خليفة ، ورعيته من أشد الناس محبة وموافقة له ، وهو من أعظم الناس إحساناً إليهم ، وتأليفاً لقلوبهم حتى قاتلوا «علىّ بن أبى طالب» ، وصابروا عسكره[2] إلى أن قاوموهم وغلبوهم ، قاتلوا مع معاوية لظنهم أن عسكر علىّ فيهم ظَلَمَةٌ معتدون عليهم ، كما اعتدوا على «عثمان» ، وأنهم يقاتلون دفعاً لصيالهم ، وقتال الصائل جائز ؛ ولهذا

---

(١) الفخرى : الآداب السلطانية [ص ١٠٠] .

(٢) صابره مصابرة وصباراً ؛ غالبه فى الصّبر ، وفى التنزيل العزيز : ﴿ اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ .

لم يبدءوهم بقتال حتى بدأهم أولئك .

ولهذا قال الأشتر النخعى :

إنهم ينصرون علينا ؛ لأننا بدأناهم بالقتال ، وعلىّ كان عاجزاً عن قهر الظلمة من العسكرية ، ولم يكن أعوانه يوافقونه على ما يأمر به ، وأعوان معاوية يوافقونه » ا . هـ

▣ أهلُ البَغْيِ والسّيف الذى سُلّ عليهم ! ▣

يقول الأستاذ محمد كرد على فى كتابه : الإسلام والحضارة العربية :

لا جرَم أن علياً اضطرته الحال إلى الوقوع فيما وقع فيه من قتال المسلمين ، وعمل ما عمل وهو كاره ، ولم يواته الحظ فى خلافته وكاد تفكيره ينحصر فى ردّ المطالبين بدم عثمان ، والناشزين على خلافته من الخوارج ، وأهل الشام وغيرهم ، ورأى انفراج قلوب الأمة بمقتل « عثمان » ، وأحس أكثر من غيره بما وقع من تشتت فى الأهواء ، وتأصل فى الأحقاد التى انتقلت من الأجداد إلى الأحفاد ، وما كان له مفزع غير السيف ، والسيف لا تؤمَن غائلته على الغالب والمغلوب ، وهو شر لابد منه !!

ولقد قالوا : إن فى القرآن أربعة سيوف[1] :

١ ــ سيف على « المشركين » حتى يسلموا أو يؤسروا ﴿ **فإما مَنًّا بعد وإما فداء** ﴾ [محمد : ٤] .

٢ ــ وسيف على « المنافقين » وهو سيف « الزنادقة » وقد أمر الله بجهادهم ، والإغلاظ عليهم فى « سورة براءة » ، و « سورة التحريم » و « آخر سورة الأحزاب » .

٣ ــ وسيف على أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية .

٤ ــ وسيف على أهل البغى وهو المذكور فى « سورة الحُجرات »[2] .

(١) الحكم الجديرة بالإذاعة لابن رجب .

(٢) فى قوله تعالى : ﴿ فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ﴾ [الحجرات : ٩] .

ولم يسل الرسول ـ ﷺ ـ هذا السيف فى حياته ، وإنما سله علىّ ـ رضى الله عنه ـ فى خلافته ، وكان يقول : أنا الذى علمت الناس قتال أهل القبلة . وله ـ ﷺ ـ سيوف أُخَر منها .

٥ ـ سيفه على أهل الرِّدّة ، وهو الذى قال فيه : «مَن بدل دينه فاقتلوه»[١]

وقد سله أبو بكر من بعده فى خلافته على من ارتد من قبائل العرب .

٦ ـ ومنها سيف على المارقين ، وهم أهل البدع كالخوارج ، وروى عن على أنه ـ ﷺ ـ أمر بقتال المارقين والناكثين والقاسطين[٢] .

وقد حرّق علىّ طائفة من الزنادقة ، فصوب ابن عباس قتلهم ، وأنكر عليه تحريقهم بالنار !، فقال على : «ويح ابن عباس لبحاث عن الهنات !» .

◘ محاولة لإنهاء الصراع ! ◘

يقول المؤرخون : إن ثلاثة من غُلاة الخوارج الموتورين اجتمعوا ذات يوم فتذاكروا القتلى من رفاقهم ، وتذاكروا القتلى من المسلمين عامة ، وألقوا وزر هذه الدماء كلها على ثلاثة : وهم ؛ على بن أبى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص !

قال عبد الرحمن بن ملجم أحد الثلاثة : أنا أكفيكم علىّ بن أبى طالب .

وقال عمرو بن بكر : أنا أكفيكم عمرو بن العاص .

وقال البرك بن عبد الله : أنا أكفيكم معاوية بن أبى سفيان وخرج الثلاثة متواعدين إلى ليلة واحدة يقتل كل منهم صاحبه فى ذلك الموعد !

فأما عمرو بن العاص ، فقد اشتكى بطنه تلك الليلة ، فلم يخرج من بيته ، وأمر خارجة بن حُذافة صاحب شرطته أن يصلى بالناس ، فضربه عمرو بن بكر وهو يحسبه عمراً فقتله .

---

(١) الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة وإسناده حسن ، وعن معاوية بن حيدة ورجاله ثقات [٢٦١/٦] .

(٢) أحمد [٢١٧/١ ، ٤٢٨٢/١ ، ٤٢٣١/٥] .

فقال عمرو : أردتنى وأراد الله خارجة . وأمر بقتله .

وأما « **معاوية** » فضربه البرك بن عبد الله ، وقد خرج الغداة للصلاة ، فوقعت الضربة على أليته .

وقيل : إن الطعنة المسمومة لا يشفيها إلا الكى بالنار ، أو شراب يمنع النسل . فجزع معاوية من النار ، ورضى انقطاع النسل ، وهو يقول : فى يزيد وعبد الله ما تَقَرُّ به عينى ، وأمر بالرجل فقتل لحينه .

وأما علىّ فضربه ابن مُلْجم فى جبينه بسيف مسموم ، وهو خارج للصلاة ، فمات بعد أيام ، وهو يحذر أولياء دمه من المثلة ويقول لهم : «يابنى عبد المطلب ، لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين ، تقولون : قتل أمير المؤمنين .. قتل أمير المؤمنين ألا لا يقتلن أحد إلا قاتلى» .

.. انظر ياحسن ! إن أنا مت من ضربته هذه ، فاضربه ضربة بضربة ، ولا تمثل بالرجل ؛ فإنى سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : «إياكم والمثلة ولو أنها بالكلب العقور»[1] .

(١) لم أقف عليه فيما بين يدى من مراجع !

◘ درس فى الدهاء لولى العهد ! ◘

كتب ابن الزبير إلى معاوية :

قد علمتَ أنى صاحب الدار ، وأنى الخليفة بعد عثمان ، ولأفعلنّ ولأفعلَنّ ، ولأفعلنّ !

فقال معاوية ليزيد : ماترى ؟!

قال : أرى ــ والله ــ أن لو كنتَ أنت وابن الزبير على سَواءٍ ، ما كان ينبغى أن ترضى بهذا !

قال : فما ترى ؟ قال : أرى أن توجه إليه جيشاً .

قال : إن أهل الحجاز لا يُسْلِمونه ، فكم ترى أن أوجه إليه ؟

قال : أربعين ألفاً .

قال : لهؤلاء دوابّ ، وكل دابة تحتاج إلى مِخْلاة ، فكم ثمن المخلاة ؟

قال : درهم .

فقال : هذه أربعون ألف درهم .

ثم قال : ياغلام ؛ اكتب إلى ابن الزبير : قد وجّه إليك أمير المؤمنين ثلاثين ألفاً فاستمتع بها إلى أن يأتيك رأيه..

فكتب إليه ابن الزبير : قد وصل إلينا المال ، فوصل أمير المؤمنين رحماً !

فقال معاوية ليزيد : قد ربحنا على ابن الزبير فى المخالى عشرة آلاف !!

◘ الداء والدواء .. ودرس آخر فى الدهاء !! ◘

كان لعبد الله بن الزبير أرضٌ قريبةٌ من أرض لمعاوية فيها عبيدٌ له من الزنوج يعمرونها ؛ فدخلوا فى أرض عبد الله !

فكتب إلى معاوية يقول :

أما بعد : فإنه يامعاوية ، إن لم تمنع عبيدك من الدخول فى أرضى ، وإلا كان لى ولك شأن !

فلما وقف معاوية على الكتاب دفعه إلى ابنه يزيد ، فلما قرأه ، قال له : ما ترى ؟!

قال : أرى أن تنفذ إليه جيشاً أوله عنده ، وآخره عندك يأتونك برأسه !

فقال : يابنى ، عندى خير من ذلك . عَلَيّ بدواةٍ وقرطاس ؛ وكتب :

وقفت على كتابك يابن حوارىِّ رسول الله ـ ﷺ ـ، وساءنى ـ والله ـ ما ساءك ، والدنيا هيّنة عندى فى جنب رضاك ، وقد كتبت على نفسى رقّماً بالأرض والعبيد ، وأشهدت علىّ فيه ، ولْتُضِف الأرضَ إلى أرضك ، والعبيدَ إلى عبيدك . والسلام .

فلما وقف عبد الله على كتاب معاوية ، كتب إليه :

وقفت على كتاب أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ فلا عُدِم الرأىَ الذى أحَلّه من قريش هذا المحل . والسلام .

فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله أعطاه ابنه يزيد، فلما قرأه ، اصفرّ وجهه !؛ فقال له معاوية :

يا بنى ، إذا رُمِيتَ بهذا الداء ، فداوه بهذا الدواء !!

إنه الدهاء !! لقد دفع معاوية الكتاب إلى يزيد ، ليرى رجحان عقله ، وحسن تدبيره فى علاج معضلات الأمور ، وليس هذا بغريب من معاوية وهو من هو سياسةً ودهاءً !!

ألم يقل : لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت . فقيل له : وكيف ذلك ؟

قال : كنت إذا شدوها أرخيتها ، وإذا أرخوها شددتها ، وبهذا الدهاء ، كان له الغَلَب ، وآلت إليه الخلافة بعد على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ، وكان عبد الله بن الزبير سمحاً كريماً ، حين قبل العذر ، وهذا ما يجب أن يكون بين الناس فيما يحدث من أمور يسهل معالجتها ، فلا يأبى ذلك إلا لئيمٌ .

ترى هل يتذكر شعرة معاوية أولئك الذين يختصمون فى الريف على قيراط من الأرض قبل أن تسال لذلك دماء ، وتُزهق أرواح ؟!

وهل يتذكر شعرة معاوية أولئك الذين يثيرونها حرباً شعواء على الحدود ؟! من جهلنا نخطىء ، ومن أخطائنا نتعلم ؛ فهل آن الأوان لكى نتعلم ؟! إنه الدهاء !! كم داوى من أدواء !!

◄ ولاية العهد ليزيد :

أول ما يطرأ ببال الباحث ذلك السؤال : كيف بدأت الفكرة ؟

ولا شك أن معاوية طرأ له هذا الخاطر وتمناه لكنه لم يكشف عنه إلا حين نضجت الفكرة وهيّأ لها العقولَ والقلوب .

يقول التاريخ : كان «المغيرة بن شعبة» أول من أشار على معاوية بولاية العهد لابنه يزيد ؛ فعندما أراد معاوية أن يعزل المغيرة عن الكوفة سنة ٥٦ هـ بعد أن كبرت سنه ، ويستعمل عليها سعيد بن العاص ، وبلغ الخبر المغيرة استخدم دهاءه ، فذهب إلى الشام وقابل «يزيد بن معاوية» ، وقال له :

إنه قد ذهب أعيان أصحاب النبى ـ ﷺ ـ وآله ، وكبراء قريش وذوو أسنانهم ، وإنما بقى أبناؤهم ، وأنت من أفضلهم ، وأحسنهم رأياً ، وأعلمهم بالسنة والسياسة ، ولا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة .

قال : «أَوَ ترى ذلك يتم ؟ قال : نعم !» .

ولما اختمرت الفكرة عند «يزيد» أعلم أباه بها ؛ فأحضر معاوية المغيرة ، وسأله عن هذا الأمر ، وما قاله يزيد ؛ فقال له : ما يقول يزيد ؟!

فقال : ياأمير المؤمنين ، قد رأيت ما كان من سفك الدماء ، والاختلاف بعد «عثمان» ، وفى «يزيد» منك خلف ، فاعقد له ، فإن حدث بك حادث كان

كهفاً للناس ، وخلفاً منك ، ولا تسفك دماء ، ولا تكون فتنة ، قال : ومن لى بهذا ؟

قال : أكفيك أهل الكوفة ، ويكفيك زياد أهل البصرة !

وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك[1] .

عند ذلك انشرح صدر معاوية للفكرة ، ورد المغيرة بن شعبة إلى الكوفة ، وعدل عن عزله ، وطلب منه أن يمهد لهذا الأمر ، فعاد إلى الكوفة ، وحبب إلى الناس هذا الأمر ، فبايع أنصار الأمويين ليزيد ، وأوفد المغيرة عشرة منهم إلى معاوية ، فزينوا له البيعة ليزيد ، وطلبوا منه أن يعهد إليه ، وبذلك قوى عزم معاوية على البيعة ليزيد .

◄ موقف زياد :

ولكن «زياداً» عندما أرسل إليه معاوية بهذا الشأن ، نصح له بالتريث فى هذا الأمر لعدم توافر شروط الخلافة فى يزيد ، وقال : «ويزيد صاحب رَسْلَة[2] ، وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد» .

وعاد الرسول إلى دمشق فأخبر «يزيدَ» برأى «زياد» فيه ، فكف عن كثير مما كان يصنع .

وتأنّى معاوية فى هذا الأمر عملاً بمشورة زياد .

◄ استطلاع رأى أهل المدينة :

فلما مات زياد أرسل معاوية إلى مروان بن الحكم عامله على المدينة يقول : «إنى قد كبرت سنى ، ودق عظمى ، وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدى ، وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدى ، وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة من عندك ، فاعرض ذلك عليهم ، وأعلمنى بالذى يردون عليك»[3] .

عرض «مروان» الأمر على الناس فوافقوا ؛ فأخبر معاوية بموافقتهم على المبدأ .

---

(١) ابن الأثير [جـ ٣ ص ٢١٤] .

(٢) الرَّسْلَةُ : مؤنث الرَّسْل وهو اللين والاسترخاء .

(٣) ابن الأثير [جـ ٣ ص ٢١٥] .

وهنا أرسل معاوية إلى «مروان» كتاباً يعزم فيه على البيعة لابنه «يزيد» ؛ فقرأه على الناس فى المسجد ، فهاج القوم وماجوا !!

فقال عبد الرحمن بن أبى بكر :

«ما الخيار أردتما لأمة محمد ، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقليّة ، كلّما مات هرقل قام هرقل» .

وقام الحسين بن على ، فأنكر ذلك ، وفعل مثله عبد الله بن الزبير[1] .

◄ ظهورُ حزب المعارضة الذى أنكر البيعة ليزيد :

ظهر حزب المعارضة الذى أنكر البيعة ليزيد ، وعلى رأسه عبد الرحمن بن أبى بكر ، والحسين بن على ، وعبد الله بين الزبير .

على أن معاوية لم يأبه لهذه المعارضة ، وكتب إلى عماله أن يمهدوا لبيعة يزيد فى الأنصار ، وأن يرسلوا إليه الوفود بدمشق لإعلان رضاهم عن تلك البيعة .

وقد تكلم فى هذه الوفود الضحاك بن قيس الفهرى ، ودعا لبيعة يزيد ، وتحققت سياسة معاوية ، فأعلن البيعة لابنه بعد ما خطبهم معاوية ، والضحاك بن قيس وغيرهما فى تعظيم الإسلام ، وحرمة الخلافة ، وفضل يزيد وعلمه بالسياسة ، وما يترتب على مبايعته من جمع كلمة المسلمين !

◄ أثر هذه السياسة :

ويظهر أن كثيراً من هؤلاء القوم لم يرضوا عن هذه السياسة ، فقد انبرى له رجل عرف بالصراحة ، لا يخشى فى الحق لومة لائم ألا وهو الأحنف بن قيس فقال :

نخافكم إن صدَقْنا ، ونخاف الله إن كذبنا . وأنت ياأمير المؤمنين أعلم بيزيد فى ليله ونهاره ، وسره وعلانيته ، ومدخله ومخرجه .

فإن كنت تعلمه لله وللأمة رضاً فلا تشاور فيه .

وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، وإنما

---

(١) ابن الأثير [جـ ٣ ص ٢١٦] .

علينا أن نقول : «سمعنا وأطعنا»[1] .

على أن معاوية استعمل كل أنواع الحيل والدهاء . وكان «يعطى المقارب ، ويدارى المباعد ، ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس» . وبايعوا ابنه يزيد .

◄ سير معاوية إلى المدينة :

فلما تمت بيعة أهل الشام والعراق ذهب إلى المدينة لأخذ البيعة لابنه يزيد ، فقابله الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، فأساء وفادتهم .

ثم دخل على عائشة أم المؤمنين فشكاهم إليها ، وهدد بقتلهم إن لم يجيبوه إلى بيعة يزيد ، فنصحت له أن يرفق بهم ، ويحسن معاملتهم ، فقبل النصيحة .

ثم عاد معاوية إلى المدينة ولقى عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، والحسين ابن على ، وأغدق عليهم الهبات ، وتكلم معهم فى شأن البيعة ، فقال ابن الزبير :

« نُخيرك بين ثلاث خصال . قال : اعرضهن . قال : تصنع كما صنع رسول الله ـ ﷺ ـ ، أو كما صنع أبو بكر ، أو كما صنع عمر .

قال معاوية : ما صنعوا ؟

قال : قُبض الرسول ـ ﷺ ـ ولم يستخلف أحداً ، فارتضى الناس أبا بكر .

قال : ليس فيكم مثل أبى بكر ، وأخاف الاختلاف قالوا : صدقت ، فاصنع كما صنع أبو بكر ، فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بنى أبيه فاستخلفه .

وإن شئت فاصنع كما صنع عمر ، جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ، ولا من بنى أبيه . قال معاوية : هل عندك غير هذا ؟

قال : لا . ثم قال : فأنتم ؟ قالوا : قولنا قوله[2] .

قال : فإنى قد أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد أعذر من أنذر ، إنى كنت أخطب

---

(١) ابن الأثير [جـ ٣ ص ٢١٦] .

(٢) وجاء فى رواية سعيد بن جبير أنه لما حج وذكر بيعة يزيد اجتمع الناس غير أربعة فلما تكلم ابن الزبير قال معاوية : تسمعون لى وتطيعون ؟ قالوا : نعم ، فخطب فقال : إن هؤلاء القوم قد بايعونى على ما أردت ، ثم انحدر فركب رواحله وانطلق فحسب الناس أنهم قد بايعوه !

منكم ، فيقوم إلى القائم منكم فيكذبنى على رءوس الناس ، فأحمل ذلك وأصفح ، وإنى قائم بمقالة ، فأقسم بالله لئن رد علىّ أحدكم كلمة فى مقامى هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقين رجل إلا على نفسه ؛ ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ، ومع كل واحد سيف ، فإن ذهب رجل منهم يرد علىّ كلمة تصديق أو تكذيب ، فيضرباه بسيفهما .

ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم ، ولا يقضى إلا عن مشورتهم ، وأنهم قد رضوا ، وبايعوا ليزيد ، فبايعوا على اسم الله . فبايع الناس ، وكانو يتربصون بيعة هؤلاء النَّفَر ، ثم انصرف إلى المدينة ، فلقى الناس أولئك النفر ، فقالوا لهم : زعمتم أنكم لا تبايعون ، فلم رضيتم وأعطيتم ، وبايعتم ؟

قالوا : والله ما فعلنا .

فقالوا : ما منعكم أن تردوا على الرجل ؟

قالوا : كادنا ، وخفنا القتل[1] .

هكذا بايع الناس «يزيدَ» عدا هؤلاء النفر ، فقسا معاوية عليهم قسوة شديدة ، وخالف شروط الخلافة ، وانتقل بها من خلافة إسلامية شورية إلى ملكية وراثية .

(١) ابن الأثير [جـ ٣ ص ٢١٧ ـ ٢١٨] .

◘ معاوية والشعراء فى ولاية العهد ! ◘

جارى الشعراء السياسة فى تقلبها ودهائها ، فأيدوا الخليفة فى استخلاف من يليه .

ولما أراد معاوية البيعة لابنه يزيد تهيب ، وخاف ألا يرضاه الناس ، لأن فيهم من هو خير منه .

وبلغه فى ذلك كلام كرهه من سعيد بن العاص ، ومروان بن الحكم ، وعبد الله بن عامر .

فأوعز هو أو ابنه «يزيد» إلى «مِسكين الدارمى» أن ينتهز اجتماعهم عند معاوية هم وأشراف بنى أمية ، ويذكر بيعة يزيد ويؤيدها ، فلما اجتمعوا فى مجلس معاوية سنة ٥٦ هـ دخل مسكين الدارمى على معاوية ، ويزيد عن يمينه ، وبنو أمية حواليه ، وأشراف الناس فى مجلسه وقال[1] :

إنْ أُدْعَ مِسكيناً فإنى ابـن مَعْشَرٍ ... من النـاس أحمى عَنهُـمُ وأذُودُ
ألا ليت شعرى مايقول بن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد ؟!
بنى خلفـاء الله مهـلاً فإنمـا ... يبوئهـا الرحمـن حيث يـريد
إذا المنبَـرُ الغربِـىّ خلّاه ربُّـه ... فإن أميـرَ المؤمـنين يزيـدُ
على الطائر الميمونِ والجَدّ صاعدٌ ... لكـل أنـاسٍ طائـرٌ وجُـدُودُ
فلازلتَ أعلى الناسِ كعبا ولا تَزَل ... وفـودٌ تساميها إلـيك وفـودُ
ولازال بيتُ الملك فوقك عاليـاً ... تُشَيّـد أطنـابٌ له وعمـود
قدور ابـن حَرْبٍ كالجوابى وتحتها ... أثـافٍ كأمثال الرِّئـال رُكُـود

* * * *

---

(١) الأغانى : [٧١/٨] .

فقال معاوية : ننظر فيما قلت يامسكين ، ونستخير الله . ولم يعارض أحد من الحاضرين !

ثم وصل معاوية ويزيد مسكيناً وأجزلا له الصلة .

◘ خطبة معاوية فى مبايعة يزيد ◘

ويتجلى دهاء معاوية أيضاً فى خطبته التى أخذ فيها البيعة لابنه يزيد عندما وفدت إليه وفود الأمصار سنة ٥٩ هـ بناء على دعوة منه وجهت إليهم .

فنراه يمهد لإعلان البيعة بأسباب توهم أنه لا يبتغى منها إلا صالح الشعب ؛ لأنه قد أحس ضعفه ، وأحس أن أجله قريب ، ومن أجل هذا فهو لا يريد أن يترك المسلمين بدون أن يستخلف عليهم ابنه يزيد ! ونراه يَرُدّ مسبقاً على من قد يسأله :

لماذا لم تَدْعُ إلى الحفل : الحَسن والحُسين ؟! فيقول : إنه يعلم أنهما وَلَدَا على ، ولن تطيب نفسهما بهذه البيعة ، وليس من اللائق أن يدعوَهما لهذا الشأن على الرغم من حبه لهما وثقته بهما ويختم خطبته بمطالبتهم أن يوافقوه ، وها هى ذى خطبته :

قال معاوية :

« الحمد لله الذى أمرنا بحمده ، ووعدنا عليه ثوابه ، نحمده كثيراً كما أنعم علينا كثيراً .

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد ، فإنى قد كبر سنى ، ووهن عظمى ، وقرب أجلى ، وأوشكت أن أُدْعى فأجيب .

وقد رأيت أن أستخلف عليكم بعدى يزيد ، ورأيته لكم رضاً ، وأنتم عباهلة[1] قريش ، وخيارها ، وأبناء خيارها ! ولم يمنعنى أن أُحضِر حَسناً وحُسيناً إلا أنهما أولاد أبيهما ، علَى حُسْن رأيى فيهما ، وشديد محبتى لهما ! فردوا على أمير المؤمنين خيراً يرحمكم الله ! » .

---

(١) المراد : سادة مقرّون على سيادتهم .

◙ نهايةُ كُلّ حَيّ ◙

لما حضرت معاوية الوفاة قال لمولى له : من بالباب ؟
قال : نفر من قريش يتباشرون بموتك !

فقال : ويحك ، ولم ؟ قال : لا أدرى .
قال : فوالله مالهم بعدى إلا الذى يسوءهم ، وأذن للناس فدخلوا فحمد الله وأثنى ، ثم قال :

«أيها الناس ، إنا قد أصبحنا فى دهر عنود ، وزمن شديد ، يُعَدّ فيه المحسن مسيئاً ، ويزداد فيه الظالم عُتُوّاً .

لا ننتفع بما علمناه ، ولا نسأل عما جهلناه ، ولا نتخوف قارعة حتى تحل بنا ، فالناس على أربعة أصناف : منهم من لا يمنعه من الفساد إلا مهانة نفسه ، وكلال حده ، ونضيض وفره .

ومنهم المصلت بسيفه ، المجلب بخيله ورجله ، والمعلن بشَرّه ، قد أشرط نفسه ، وأوبق دينه لحطام ينتهزه ، أو مقنب يقوده ، أو منبر يقرعه ، ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا ، فقد طامن من شخصه ، وقارب خطوه ، وشمر من ثوبه ، وزخرف نفسه للأمانة ، واتخذ سر الله ذريعة للمعصية .

ومنهم من قد أقعده عن الملك ضئولة نفسه ، وانقطاع سببه ، لقصرت به الحال عن أمله ، فتحلى باسم القناعة ، وتزين بلباس الزهد ، وليس من ذلك فى مَرَاحٍ ولا مَغْدى .

وبقى رجال غض أبصارَهَم ذكرُ المرجع ، وأراق دموعَهم خوفُ المحشر ؛ فهم بين شريد نافر ، وخائف منقمع ، وسائق مكلوم ، وداعٍ مخلص ، وموجع ثكلان !

قد أخملتهم التقية ، وشملتهم الذلة ، فهم بحر أُجاج ، أفواههم ضامرة ، وقلوبهم قرحة .

قد وعظوا حتى ملّوا ، وقهروا حتى ذلوا ، وقتلوا حتى قلوا .
فلتكن الدنيا فى أعينكم أصغر من حثالة .

واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من كان بعدكم ، فارفضوها ذميمة ، فإنها رفضت من كان أشغف بها منكم .

◘ وصية معاوية بن أبى سفيان ◘

لما حضرت معاوية الوفاةُ سنة ٦٠ هـ ، ويزيد غائب ، دعا معاوية مسلم بن عقبة المرىّ ، والضحّاك بن قيس الفِهرىّ فقال[١]: أبلغا عنى يزيدَ ، وقولا له :

● انظر إلى **أهل الحجاز** ، فهم أصلُك ، وعِتْرتُك ، فمن أتاك منهم ، فأكْرمه ، ومن قعد عنك ، فتعَهَّدْه .

● وانظر إلى **أهل العراق** ، فإن سألوكَ عزلَ عاملٍ لهم فى كل يوم فاعزله عنهم ؛ فإن عزل عامل أهون عليك من سلِّ مائة ألف سيف ، لا تدرى على من تكون الدّائرة !

● ثم انظر إلى **أهل الشام** ، فاجعلهم الشعار دون الدثار ؛ فإن رابَك من عدوك ريبٌ فارمه بهم !، فإن أظفرك الله بهم ، فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، ولا يقيموا فى غير بلادهم فيتأدبوا بغير أدبهم .

لست أخاف عليك إلا ثلاثة :

«الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر !

فأما الحسين بن على فأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه .

وأما الزبير ، فإنه خبّ ضبّ[٢] ، فإن ظفرت به فقطعه إرْباً إرْباً .

وأما ابن عمر فإنه رجل قد قرقره الورع فخلّ بينه وبين آخرته يُخَلّ بينك وبين دنياك»[٣] .

وهى وصية تدل على سداد رأيه ، وخبرته بالأمور ، ومعرفته بالرجال !

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ .

(٢) الخب بالفتح والكسر هو الرجل الخداع .

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه [جـ ٣ ص ١٣١ ـ ١٣٢]

دُعَـاةُ العَـرَبِ فى الإسـلام

« ٢ »

عمرو بن العاص للبيعة

«ما يَنْبَغى لأبى عبد الله
أن يمشى على الأرض إلا أميراً»

[عمر بن الخطاب]

◘ عمرو بن العاص فى سطور ◘

يحدثنا التاريخ عن نشأته فيقول : إنه نشأ فى بطن من البطون القرشية المشهورة ، وهم «بنو سهم» .

وقد كانت إليهم الحكومة والأموال المحجَّرة التى سموها لآلهتهم ، كأنها الأوقاف فى العصور الإسلامية ، وكان الرؤساء من بنى سهم من «نظار الأوقاف» .

ويؤخذ من هذه المهام أن المرجع فى حكومة بنى سهم كان إلى اللباقة فى تناول الأمور ، والتلطف فى حسم الشقاق ، والتغلب على حرج النفوس فى الشئون الدقيقة ، وذلك كله يحتاج إلى الرجل «الأريب» الذى يعرف «من أين تؤكل الكتف» ويترفّق بعلاج النفوس ، وتناول الأمور[1] . وكذلك كان «عمْرو بن العاص» .

خطب عمر بن الخطاب «أم كلثوم» بنت أبى بكر إلى أختها «أم المؤمنين» عَائشة ـ رضى الله عنها ـ فقالت له : الأمر إليك !

ثم سألت أختها فأبته ، وهى تقول : لا حاجةَ لى إليه . فزجرتها قائلة : أترغبين عن أمير المؤمنين ؟ !

قالت : نعم ؛ إنه خشن العيش شديد على النساء !

وهنا مسألة دقيقة !!

أمير المؤمنين يُرفض ، ولا ينبغى أن يُواجَه بالرفض ، وإن كان لا سبيل إلى إكراه «أم كلثوم» على قبوله !

فلجأت السيدة عائشة إلى عمرو بن العاص ليحتال فى الأمر برفقه ودهائه ، فجاء عمر ، وفاجأه قائلاً : بلغنى خبر أعيذك بالله منه !

قال : ما هو ؟ قال : خطبتَ أمَّ كُلثوم بنتَ أبى بكر !

قال : نعم . أفرغبت بى عنها ، أم رغبت بها عنى ؟

---

(١) عمرو بن العاص لعباس محمود العقاد .

قال : لا واحدة .

ولكنها حدَثَة نشأت تحت كنف أمير المؤمنين فى لين ورفق ، وفيك غلظة ، ونحن نهابك ، وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك ، فكيف بها إن خالفتك فى شيء فسَطَوْتَ بها ؟ كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير ما يحق عليك !

ولا شك أن عمر قد فطن إلى ما وراء هذه الوساطة ، وفهم أن ابن العاص لا يقدم عليها من عند نفسه .

فسأله كأنه يستطلع ما وراه : كيف بعائشة وقد كلمتُها ؟

قال : أنالك بها ، وأدلك على خير منها : أم كلثوم بنت على بن أبى طالب ، تعلق منها بنسب رسول الله ـ ﷺ ـ.

ويحدثنا التاريخ عن إيفاد عمرو إلى نجاشى الحبشة لإقناعه بتسليم مَنْ قِبَله من المسلمين إلى مشركى مكة ، وهو أمر فيه من المساس بأصول الضيافة ما تصعب المفاتحة فيه ، فضلاً عن الإقناع به ، إلا أن تكون لباقة ، ورفق مدخل ، وقدرة على التخلص السريع ويحدثنا التاريخ عن إيفاد عمرو إلى أخوال أبيه فى عهد الإسلام لإقناعهم بالخروج من دينهم ، والدخول فى الدين الجديد !

كما يحدثنا التاريخ عن حكومة عمرو بين طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام حين اختلفا على وادٍ يدعيان ملكيته بالمدينة .

وقد جاء فى الأثر أن النبى ـ ﷺ ـ أمر عمْراً بالفصل بين[1] رجلين اختصما إليه ؛ فكأنه عُرِف بهذه المقدرة وبقيت له شهرتها فى حضرة النبى ـ ﷺ ـ.

(١) عمرو بن العاص للعقاد .. ولم أقف على هذا الأثر فيما تحت يدى من مراجع .

◘ مَهَامّ قام بها ◘
بتكليف من النبى ـ ﷺ ـ وأبى بكر ـ رضى الله عنه ـ

◄ مهامّ جِسام !

تقول كتب السيرة : إن النبى ـ ﷺ ـ ندبه لغزوة «ذات السلاسل» ولهدم الصنم «سواع» ولدعوة «جيفر وعباد» أمرى عُمَان إلى الإسلام ، ثم أقامه على الصدقة فى تلك الإمارة لما لمحه فيه من استعداد وقدرة على مواجهة تلك المهمات ! فتعال نتابع خطواته .

◄ غزوة ذات السلاسل :

كان أخوال العاص بن وائل من قضاعة ، ونما إلى النبى ـ ﷺ ـ أنهم يتأهبون للزحف على المدينة ، ويعيشون فى الطريق ، فندب لهم عَمْراً يتألفهم إن استطاع ، فإن لم يستطع فهو بأن يزجرهم أولى من أن يجىء زجرهم على يد غيره ، وأرسله فى سَرِيّة من ثلثمائة رجل سار بهم حتى بلغ ماءً يسمى «السلاسل» فاستطلع فإذا القوم نافرون مصرون على جفاء ، وإذا بهم أكبر عدداً من أن يتصدى لهم بجيشه الصغير ، فاستمدّ[1] النبى ـ ﷺ ـ فأمدّه بكتيبة على رأسها «عبيدة بن الجراح» ، وفيها «أبو بكر الصديق» ، و «عمر بن الخطاب» ، وهم أجل الصحابة ، وأقربهم إلى خلافة النبى ـ ﷺ ـ ، وأمرهم أن يطيعوه إذا أبى عليهم الطاعة ، فبلّغهُ النبى ـ ﷺ ـ بذلك مُنَاه من الإمارة . وانهزمت قضاعة منذ الوقعة الأولى .

ولقد أراد جيشه أن يتعقّب المنهزمين فنهاهم عن ذلك ، مُرَاعياً ذمة القرابة ، واستبقاء الرحم جامعاً بين المصلحة والمودة .

---

(١) طلب منه مدداً يعينه على مواجهة الأعداء .

وقد أراد جيشه أن يوقد ناراً للاصطلاء ليلاً ، فتوعدهم لئن فعلوا ليقذفن بمن أضرم ناراً فى النار التى أوقدها ، ووسطوا أبا بكر فأصر على رأيه .

وعندما شكوه إلى النبى ـ ﷺ ـ كان له عذره البَيّن حيث قال : كرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد .

وكرهت أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قِلّتَهم فيكرَّ عليهم بعد فراره ! إنه الدهاء !!

◄ بعثته إلى سواع :

بعثه الرسول ـ ﷺ ـ لهدم ذلك الصنم الذى عبدته «هذيل» فى الجاهلية .

وكان على مقربة من مَكة يقصدونه للحج والعبادة وقضاء النذور .

وكانت له خزانة يودع فيها ما يودع من النذور ، ومن المال المحجّر الذى وكل به بنو سهم قبل الإسلام ، فكان اختيار زعيم من بنى سهم فيه حرص على تحصيل المال نعم الاختيار لتلك البعثة التى له مأرب فيها .

سأله سادن[1] الصنم : ماذا تريد !؟

قال : أمرنى ربى أن أهدمَه .

قال السّادن : إنك لا تقدر على ذلك .

فتقدم عمرو إلى الصنم ، وكسره ، وأمر أصحابه بهدم الخزانة ، فإذا هى خاوية !

فأقبل على السادن يسأله : كيف رأيت ؟

قال : أسلمت لله رب العالمين .

◄ رسالته إلى عُمَان :

كانت رسالته إلى عُمَان مجالاً مستجمعاً لكل ما فُطِر عليه من اللباقة ، والدهاء والجرأة ، وحب الرئاسة والثراء .

---

(١) السّادن : الخادم . وأصل السادن : خادم الكعبة .

كتب النبى ـ ﷺ ـ إلى «جيفر وعبّاد» ابنى الجُلندى كتاباً يدعوهما فيه إلى الإسلام قال فيه :

«بعد السلام على من اتبع الهدى ..

أما بعد .. فإنى أدعو كما بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ؛ فإنى رسول الله إلى الناس كافة ؛ لأنذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين .

وإنكما إن أقررتما بالإسلام ولَّيْتُكما ، وإن أبيتما أن تُقِرَّا بالإسلام فإن مُلْكَكُما زائل ، وخيلى تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما ...» .

فحمل «عمرو» الكتاب ، وكان عند ظن النبى ـ ﷺ ـ به فى مقدرته ودهائه ، فبدأ بأصغر الأخوين : «عباد» ؛ لأنه لم يكن على ولاية الملك ، فهو أقرب إلى حسن الإصغاء ، فاحتفى به وأصغى إليه ، ووعده أن يوصله إلى أخيه ، ويمهد له عنده .

ثم لقى «جيفراً» ، فإذا هو أصعب مِراساً من عباد ، فطفق يسأل عمراً عن نفسه ، وعن أبيه هل أسلم من قبله أو مات على غير الإسلام ؟

وسأله عما صنعت قريش ، فلخص له موقفها أوقع تلخيص ، حيث قال له : «إما راغب فى الدين ، وإما مقهور بالسيف» .

ثم عقب بكلام وجيز فيه وَعْد وَوَعِيد ، فقال له : «وأنت إن لم تسلم اليوم ، وتتبعه يوطِئْك الخيل . فأسلم تسلم فيوليك على قومك ، وتبقى على ملكك مع الإسلام ، ولا تدخل عليك الخيل والرجال .

وفى هذا مع سعادة الدارين راحة من القتال» .

وأتبع هذا الوعيد بما يوائمه من قلة الاكتراث لجيفر حين لج فى عناده ، وأعلنه بمواجهة المسلمين دون أرضه ، وصدهم عن حوزة ملكه ، فانصرف وقد ألقى فى روع عبّاد ما ألقى ، فإذا بعباد ، قد أتم له ما بدأه من النذير والنصيحة ، وإذا

بالأخوين ومن تبعهما مستجيبون للإسلام .

وكان جزاء «عمرو» على هذا التوفيق أن عقد له النبى ـ ﷺ ـ ولاية الزكاة يأخذها من الأغنياء ، ويفرقها على الفقراء ، وله منها نصيب يرضيه .

أليس هو العامل عليها ؟!

وقد أبقاه النبى ـ ﷺ ـ على ولاية الصدقة حتى توفاه الله ، فلم يشأ «أبو بكر» أن يعزلَه عنها إلا برأيه ومرضاته إيثاراً للسنَّة التى التزمها من إقرار كل ما أقره النبى ـ ﷺ ـ فى حياته : «وأن لا يحل عقالاً عقله رسول الله ـ ﷺ ـ ، ولا يعقل عقالاً لم يعقله » .

كما أوصى عَمْراً نفسه يوم أبلغه نعى النبى ـ ﷺ ـ.

◄ موقف عمرو من حروب الردة !

عندما جاءت حروب الردة كان موقفه منها الموقف المنتَظَر من مثله ..

فقد كانت ثورة على الإسلام .. وثورة من البادية على الحاضرة .. وثورة من القبائل على قريش .. وثورة على الزكاة من فرائض الدين خاصة .

وإن أحق الناس ببغض تلك الردة لهو «عمرو بن العاص» المسلم القرشى العامل على الزكاة .

فلما كان فى طريقه من عُمان إلى المدينة نزل ببني عامر فإذا بزعيمها «قُرّة بن هُبيرة» يهم بالرِّدة ويقول له :

ياعمرو ! إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة ، فإن أعطيتموها فستسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم فلم تأخذه فى الأمر هوادة ، بل اشتد فيه كما اشتد «أبو بكر» وصاح بزعيم بنى عامر : «ويحك ! أكفرت ياقرة ؟! تخوفنا بردة العرب !

فوالله لأوطئن عليكم الخيل فى حفش أمك» (أى : فى خبائها) .

ثم أبى إلا أن ينبىء الخليفة بما سمع من قرة ، غير مُبْقٍ منه بقية يسترها مخافة

عليه ، فلما جيء بالرجل مأسوراً ، وانطلق «عمرو» يروى ما سمع منه ، ووصل إلى ذكر الزكاة صاح به الرجل : مهلاً ياعمرو . فقال : كلّا والله ! لأخبرنه بجميعه .

وكان هذا الموقف منه أول ما استحق به الثقة والرعاية فى عهد الخلافة ، وأصبح عمرو من أقرب المقربين فى العهد الجديد .

◄ حرب قضاعة :

ويختار الخليفة «عمراً» لحرب قضاعة ، فقد تولى حربها من قبل فى عهد النبى – ﷺ –، وكان الخليفة أبو بكر يومئذ من جنوده ، فقام بمهمته خير قيام ولم يرجع عنها إلا وقد سلمت بحق الزكاة وثابت إلى شرعة الإسلام .

◄ مهمة أخرى استطلاعية :

يروى الحافظ شمس الدين الذهبى أنه قدم رسولاً من أبى بكر إلى «هرقل» ، ويغلب على الظن أنه إنما أوفد من قبل الخليفة لاستطلاع حال العرب فى طريق الشام مستنفراً إياهم إلى حرب الروم إذا وقع المتوقع من الحرب بينهم وبين المسلمين ، فذلك أشبه المهام بما يندب له عمرو بن العاص .

◄ لا أعود لمثلها أبداً !!

توجه «عمرو بن العاص» حيث فتح قيسَاريّة[1] إلى مصر ، وبعث إلى عِلْجها[2] ، فأرسل إليه : أن أرسل إلىّ رجلاً من أصحابك أكلمه .

فنظروا فقال عمرو : ما أرى لهذا أحدا غيرى ! فخرج ودخل على العِلْج ، فكلمه ، فسمع كلاماً لم يسمع مثله قط ! فقال : حدثنى هل فى أصحابك مثلك ؟

---

(١) هناك مدينتان بهذا الاسم فى فلسطين والروم . والمراد هنا التى من أعمال فلسطين . معجم البلدان [١٣١/٤] .

(٢) العِلج : الرجل من كفار العجم . القاموس .

قال : لا تسَلْ عن هوانى عليهم ؛ إلا أنهم بعثونى إليك ، وعرضونى لما عرضونى ، لا يدرون ما تصنع بى . فأمر له بجائزة ، وكسْوة ، وبعث إلى البواب : إذا مرّبك فاضرب عنقه ، وخذ ما معه .

فخرج من عنده ، فمر برجل من نصارى العرب من غسان ، فعرفه ، فقال : ياعمرو ، إنك قد أحسنت الدخول ، فأَحْسن الخروج .

فرجع فقال له الملك : ما ردّك ؟

قال : نظرت فيما أعطيتنى فلم أجده يسع بنى عمى ، فأردت أن أجيئك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية ، وتكسوهم هذه الكُسْوة ، فيكون معروفك عند عشرة خيراً من أن يكون عند واحد .

قال : صدقت ؛ فاعجَل بهم ، وبعث إلى البواب : **«أنْ خَلِّ سبيلَه ، فخرج عمرو ، وهو يلتفت حتى إذا أمن قال : لا أعود لمثلها أبداً ، فما فارقها عمرو حتى صالحه ، فلما أُتى بالعِلج قال : أنت هو ؟**

قال عمرو : نعم على ما كان من غَدْرِك !!

◘ نظرات صائبة فى الناس والحياة ! ◘

◄ الداهيتان وقميص عثمان !

نصب معاوية قميص عثمان على المِنبر ؛ فبكى أهل الشام . فقال : هممت أن أدعه على المنبر !

فقال له عمرو : إنه ليس بقميص يوسف ، وإنه إن طال نظرهم إليه وبحثوا عن السبب ، وقفوا على مالا تحب !، ولكن لَذِّعْهم بالنظر إليه فى الأوقات !!

◄ ذنب الحجاب !

وقال لابنه وقد وَلِىَ ولاية :

انظر حاجبك ، فإنه لحمُك ودمُك ، فلقد رأينا بصِفِّين وقد أشرعَ قومٌ رماحَهم فى وجوهنا ، مالنا ذنب إليهم إلا الحجاب !

◄ أسراره :

وقال : ما وضعتُ سرى عند أحد قطّ فأفشاه ، فلُمتُه ؛ لأنى أحق باللوم أن كنت أضيَقَ صدراً منه !!

وقال : إذا أنا أفشيت سرى إلى صديقى فأذاعه فهو فى حل ، فقيل له : وكيف ؟

قال : أنا كنت أحق بصيانته !!

◄ طلحة والزبير يَحْتَكِمَانِ إليه :

كان بين طلحة بن عبيد الله والزبير مدارأة[1] فى وادٍ بالمدينة ، فقالا : نجعل بيننا عمرو بن العاص ، فأتياه ، فقال لهما : أنتما ـ فى فضلكما ، وقديم سوابقكما ، ونعمة الله عليكما تختلفان ، وقد سمعتما من رسول الله ـ ﷺ ـ مثل ما سمعت ، وحضرتما من قوله مثل الذى حضرت ، فيمن اقتطع شبرا من أرض أخيه بغير حق أنه يُطَوَّقه من سبع أرضين[2] .

والحكم أحوج إلى العدل من المحكوم عليه ، وذلك لأن الحَكَم إذا جارى رُزِئَ فى دينه .

والمحكوم عليه إذا جبر عليه رُزِئَ عَرَضَ الدنيا . إن شئتما فأدْلِيا بحجتكما . وإن شئتما فاصطلحا ، وأعطى كل واحد منهما صاحبه الرضا .

◄ تفويت الغرض على عدوه :

قال المدائنى : جُعِل لرجل جُعْل[3] على أن يسأل عمرو بن العاص ـ وهو على المنبر ـ عن أمه !

فلما قام على المنبر قال له : ياعمرو ، من أمك ؟

---

(١) مدارأة : منازعة ومخاصمة . كل منهما يدرأ أو يدفع الآخر .

(٢) فى صحيح البخارى [٣ : ١٣٠] « من ظلم قيد شبر من الأرض .. » . أما صحيح مسلم فقد جاء فيه « من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله إياه سبع أرضين يوم القيامة » . مسلم شرح النووى [٤٨/١١] .

(٣) جُعْل : مكافأة ، ومبلغ من المال نظير قيامه بأمر خطير .

قال : سَلْمى بنت خزيمة ، تُلَقّب بـ «النابغة» من بنى جلان من عنزَة ، أصابتها رماح العرب ، فصارت للفاكه بن المغيرة[1] ، ثم صارت إلى عبد الله بن جُدعان[2] ، ثم صارت للعاص بن وائل[3] ، فولدت فأنجبت ! اذهب فخذ جُعْلك الذى جُعِل لك !!

◄ رسائل متبادلة بين معاوية وعمرو

كتب معاوية إلى عمرو بن العاص ـ وبلغه عنه أمر : وفّقك الله لرشدك ! بلغنى كلامك ، فإذا أوله بَطَر ، وآخره خَوَر ، ومن أَبْطَره الغنى أذلّه الفقر ! وهما ضدان مخادعان للمرء عن عقله . وأولى الناس بمعرفة الدواء من يبين له الداء . والسلام .

فأجابه عمرو : ... طاولتك النعم ، وطاولت بك علو إنصافك ، يؤمن سطوة جَوْرك .

ذكرت أنى نطقت بما تكره وأنا مخدوع ، وقد علمت أنى مِلْت إلى مَحَبّتك ، ولم أُخْدَع .

ومثلك شكَر مَسْعى مُعتذر ، وعفا عن زَلّةِ مُعترف !

◄ أحسن كل شىء !

قال عمر ـ رضى الله عنه ـ يوماً لجلسائه ، وفيهم «عمرو بن العاص» : ما أحسنُ كلّ شىء ؟

فقال كل رجل برأيه ، وعمرو ساكت ، فقال له عمر : ما تقول ؟

---

(١) الفاكه بن المغيرة ، بن عبد الله المخزومى أحد الفصحاء فى الجاهلية ، وعم خالد بن الوليد [الأعلام : ٥ ـ ٣٣٠] .

(٢) عبد الله بن جُدعان التيمى القرشى : أجد الأجواد المشهورين فى الجاهلية [الأعلام : ٤ ـ ٢٠٤] .

(٣) العاص بن وائل بن هاشم : أبو عمر بن العاص . أدرك الإسلام ولكنه مات كافراً . [الأعلام ٤ ـ ١١]

قال : الغمَرات ، ثم ينجلين[1] .

◄ عمرو والشدائد :

وكان يقول : عليكم بكل أمر مَزْلقة مَهْلكة ، أى : عليكم بجِسَام الأمور .

◄ عمرو لا يعرف الملل !

ونُظِر إليه على بَغْلةٍ قد شمِطَ وجهها هَرَماً[2] ، فقيل له : أتركب هذه وأنت على أكرم ناخرة[3] بمصر ؟! فقال :

- لا مللَ عندى لدابتى ما حملت رَحْلى .
- ولا لامرأتى ما أحسنت عشرتى .
- ولا لصديقى ما حفظ سرى .
- إن الملل من كواذب الأخلاق .

◄ أمنية لم تتحقق !

قال لعائشة ـ رضى الله عنها ـ لوددْت أنك قتلت يوم الجمل ! فقالت : ولم ؟ لا أبالك !

قال : كنتِ تموتين بأجلك ، وتدخلين الجنة ، ونجعلك أكبر تشنيع عَلَى علىّ[4] .

◄ نظرة عمرو إلى العلم :

وقال لبنيه : اطلبو العلم ، فإن استغنيتم كان جمالاً وإن افتقرتم كان مالاً .

◄ الخير فى رأيه !

قال عمرو : يابُنَىّ ..

---

(١) الأزمات والشدائد حينما تنفرج وتزول . والغمرات : جمع غَمْرة .
(٢) شمط وجهها : شاب .
(٣) والناخرة الخيل لأنها تنخر ، وكذا الحمير لركوب أهل مصر لها آنذاك .
(٤) نثر الدر للآبى .

- إمام عادل خير من مطرٍ وابل .
- وأَسَدٌ حَطوم[1] خيرٌ من سُلطان ظَلُوم .
- وسلطان ظلوم خير من فتنة تدوم .
- ولَأَن تُمازِحَ وأنت مجنون خير من أن يمازحك مجنون .
- وزَلّةُ الرجل عظم يُجبَر .
- وزلّة اللسان لا تبقى ولا تذر !
- واستراح من لاعقلَ له !

◄ مَن أخو الحرب ؟!

كتب إلى معاوية : إنه ليس أخو الحرب من يضع نُحورَ الحشايا[2] عن يمينه وشماله ، ويعاظم الأكلاء اللّقَمَ ؛ ولكنه ، من حَسَر عن ذراعيه ، وشَمّر عن ساقيه ، وأعدّ للأمور آلاتها ، وللفرسان أقرانها[3] .

◄ عمرو الخبير بالجوانب النفسية !

وقال عمرو لمعاوية :

لايكن شيء آثرَ عندك فى أمر رعيتك ، وتكون له أشد تفقداً منك كخصاصة الكريم[4] أن تعمل فى سدها ، وكطغيان اللئيم أن تَقْمَعه[5] .

« واستوحِشْ من الكريم الجائع[6] ، ومن اللئيم الشبعان ؛ فإن الكريم يصول إذا جاع ، واللئيم يصول إذا شبع » .

◄ مَنِ العاقل فى نظره ؟

وقال : ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشر ، ولكنه الذى يعرف خير الشّرّين !

---

(١) يقال : حطم الأسد الماشية : عاث فيها .
(٢) الوسائد اللينة .
(٣) الأقران : جمع قِرن : النظير والمماثل .
(٤) الخصاصة : الجوع .
(٥) توقفه عند حده وتدحره .
(٦) لاتأنس إليه ، ولا تطمئن .

◄ ثمار مرة !

وقال : جُمع العجز إلى التوانى ، فنُتِجَ بينهما «الندامة» . وجُمِع الحزمُ إلى الكسل ، فخرج بينهما «الحرمـان» .

◄ نظرته إلى الخلافِ والاقتتال :

قال لعبد الله بن عباس يوم صِفّين : إن هذا الأمر الذى نحن وأنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء ! ، وقد بلغ بنا وبكم ما ترى !

وما أبقت لنا هذه الحرب حياءً ولا صبراً ، ولسنا نقول : ليت الحرب عادت ! ؛ لكننا نقول : ليتها لم تكن ، فانظر فيما بقى بعين ما مضى ، فإنك رأس هذا الأمر بعد على ، وإنما هو أمير مطاع ، ومأمور مطيع ، ومشاوَرٌ مأمون ، وأنت هو[1] .

◘ صـورة عمـرو ◘

يؤخذ من جملة الأقوال التى وُصِفَ بها أنه كان : أدعج أبلج ، وافر الهامة ، ربعة ، أقرب إلى قصر القامة ، يخضب بالسواد .

عليه مهابة وشمائل نباهة وسيادة كما يدل عليه قول عمر ـ رضى الله عنه ـ فيه : «ماينبغى أن يمشى أبو عبد الله إلا أميراً» .

وكما يدل عليه قوله حين لام الناسُ معاويةَ على تقديمه «عَمراً» وبلغ «عَمراً» ملامتُهم فقال : «قد علمتم أننى أنا الكرّار فى الحرب ، وأننى الصَّبور على غِيَرِ الدهر ، لا أنام عن طلبٍ كأنما أنا الأفعى عند أصل الشجرة .. ولَعَمْرى لست بالوانى أو الضعيف ، بل أنا مثل الحية الصّماء لا شِفَاءَ لمن عضّته ، ولا يرقُدُ من لسعته .

وإنى ما ضربت إلا فريت ، ولا يخبو ما شببت !

---

(١) هذه رواية نثر الدر للوزير الآبى ، أما العقد الفريد فقد جاء فى الجزء الرابع/١٣ أن هذا القول بعد مقتل على . وينفيه ما ورد فى أثنائه .

عرفنى أصحاب يوم الهرير ـ بحرب صِفّين ـ أننى أشدهم قلباً ، وأثبتهم يدا . أحمى اللواء ، وأذود عن الحمِى فكأننى وشائنى عند قول القائل :

وهل عجب إن كان فرعى عسجداً

إذا كنت لا أرضى مفاخرة العشب؟!

لقد كان فيه طموح إلى الهيبة والثراء ، ويقول الأستاذ العقاد : «ما نخاله وقف فى الطموح عند حد ، ولا قعد عن الخلافة وهو مختار بل قد طمح إليها ، وأعد عدته لإقصاء بنى أمية عنها ، فلما أيأسه مغمز النسب ، ورجحان «بنى أميّة» على «بنى سهم» فى العصبية القرشيّة طوى الصدر على كظم ، وقعد عنها وهو كاره يُعَزّى النفس بقوله المأثور عنه : «إن ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة !!»

وكان سعيه إلى الرئاسة والمال بادياً منه فى الإسلام كما بدا منه فى الجاهلية ، فلم يعرف له موقف قط نزل فيه عن الرئاسة باختياره وكان عمرو بن العاص يتحرج من إسقاط هيبته ونسيانه سمتَه .

◄ فخر عمرو بأبيه !!

كان عمرو بأبيه جِدّ فخور ، حتى لقد كان يفخر به على الخلفاء كعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان .

فلما أرسل إليه عمر بن الخطاب من يحاسبه ويشاطره ماله غضب وقال للرسول ـ ﷺ ـ: «قبّح الله زماناً عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب فيه عامل . والله إنى لأعرف الخطّاب يحمل فوق رأسه حزمة من الحطب وعلى ابنه مثلها ، وما منهما إلا فى نَمِرَة[1] لا تبلغ رسغيه . والله ما كان العاص بن وائل يرضى أن يلبس الديباج مزرراً بالذهب !!» .

ثم خشى العاقبة فاستحلف رسولَ عمر إليه لَيَكْتُمَنّ عليه ما قال بأمانة الله !

ولما عزله عثمان من ولاية مصر دعاه فأنبه وقال له : استعملتك على ظَلْعِك[2] وكثرة القالة فيك ! .

---

(١) نمرة : كساء فيه خطوط بيض وسود

(٢) على ما فيك من ضعف .

فقال عمرو : قد كنت عاملاً لعمر بن الخطاب ففارقنى وهو عنى راضٍ ، واحتدم الجدل بينهما ، فهم «عمرو» بالخروج مغضباً وهو يقول :

قد رأيت العاص بن وائل ، ورأيت أباك .. فوالله لَلْعاص كان أشرف من عفان !.

فما زاد عثمان على أن قال : مالنا ولذكر الجاهلية !!

وعلى قدر فخره بأبيه كان خجله من نسبه إلى أمه وٱجتراء الناس عليه حيث كانت «سِبيّة» مغلوبة على أمرها .. صارت بعد بيعها بعكاظ إلى العاص بن وائل أبيه .

◘ عمرو بن العاص فى مرآة عبد الله بن عباس ◘

قام عمرو بن العاص بالموسم فأطرى[1] معاوية وبنى أميّة ، وتناول بنى هاشم .

ثم ذكر مشاهده بصِفّيْنَ فقال ابن عباس : ياعمرو ، إنك بعت دِينَك من معاوية ، فأعطيته ما فى يدك ، ومنّاك ما فى يد غيره ؛ فكان الذى أخذ منك فوق الذى أعطاك ، وكان الذى أخذتَ منه دون ما أعطيته .

وكلٌّ راضٍ بما أخذ وأعطى !

فلما صارت مصر فى يدك تتبعك فيها بالعزل ، والتَنقُّص، وكلٌّ راضٍ بما أخذ !

◘ دهاء معاوية ودهاء عمرو !! ◘

سأل عمرو صاحبه معاوية يوماً :

والله ما أدرى ياأمير المؤمنين أشجاع أنت أم جبان ؟!

فقال معاوية :

شجاع إذا ما أمكنتنى فُرْصَةٌ وإن لم تكُن لى فرصةٌ فجَبَانُ

(١) أطرى : مدح وأثنى .

وكذلك كان «عمرو» إلا أنه كان أحوجَ إلى الوُثوب والمجازفة من معاوية .

ومن ثم اختلف دهاؤه ودهاء معاوية كما قالا مرة وهما يتساءلان عن العقل .

قال معاوية : ما بلغ من عقلك ؟

قال : ما دخلت فى شىء قط إلا وخَرَجْتُ منه .

فقال معاوية : لكنى ما دخلت فى شىء قط وأردت الخروج منه ! كل منهما بدهائه أشبه : عمرو فى اقتحام الطَّموح المغامر !

ومعاوية فى تُؤَدَة المستقر الواثق !

عمْرُو فى «دَفعة العبقرية» . ومُعَاوية فى «رَويّة التدبير الطويل» . كما وضح ذلك أستاذنا عبَاس العقاد .

ولقد أحصى العرب دهاتهم فى الإسلام فعدوا أربعة وجعلوا لكل منهم مزية يمتاز بها فى دهائه : فقالوا : إن «مُعاويةَ» للروية . و «عمرو بن العاص» للبديهة . و «المغيرة» للمعضلات .

و «زياد» لكل صغيرة وكبيرة ـ كما أشرت إلى ذلك فى المقدمة ـ.

وقد قيل : إن «عمرو بن العاص» هو الذى وصف نفسه ، ووصف الدُّهاة الثلاثة معه على تلك الصفة ، وأنه اجتمع مع «معاوية بن أبى سفيان» مرة ، فقال له «معاوية» : مَنِ الناس ؟

فقال : أنا وأنت ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد .

قال معاوية : كيف ذلك ؟

قال : أما أنت فللتأنى ، وأما أنا فللبديهة .

وأما المغيرة للمعضلات ، وأما زياد فللصغير والكبير .

قال معاوية : أما ذانك فقد غابا ، فهات بديهتك ياعمرو ! قال : وتريد ذلك ؟

فأجابه : نعم !

فسأله أن يخرج من عنده ، فأخرجهم .

فقال عمرو : ياأمير المؤمنين أُسَارّك[1] .

فأدنى معاوية رأسه منه .

فقال عمرو : هذا من ذلك !

من معنا فى البيت حتى أسارّك ؟! إن تفكير عمرو تفكير بديهة حاضرة . وإن تفكير معاوية تفكير روية بطيئة . وهذا هو الفرق بين الداهيتين !

◙ شواهد من بديهته الحاضرة ! ◙

خرجَ يعسّ بالليل وهو أمير على مصر فسمع أناساً يقعون فيه ويتوعدونه ، وعلم أنه إن تركهم إلى غده لم يعرفهم ، ولم يظفر بأجمعهم .

فأقبل عليهم إقبال الخائف الطريد ، وأوهمهم أنه يلوذ بهم ، ويضرع إليهم ألا يسلموه إلى الأمير لأنه يتعقبه ، ويُمعن فى طلبه ، فساقوه إلى باب قصره لا يتخلف أحد منهم طمعاً فى المثوبة ، فأوصلهم بأرجلهم إلى حيث أراد !!

وقتل الروم رجلاً من المسلمين حول الأسكندرية واحتَزّوا رأسه ، وانطلقوا به إلى داخل الحصن ؛ فأقسم أبناء قبيلته لا يدفن إلا برأسه .

قال عمرو : تتغضبون كأنكم تتغضبون على من يبالى بغضبكم !!

احملوا على القوم إذا خرجوا ، فاقتلوا منهم رجلاً ، ثم ارموا برأسه يرموكم برأس صاحبكم ، فلما فعلوا إذا برأس صاحبهم يسقط عليهم ، فقال : دونكم الآن فادفنوه برأسه !

وحسبك من نبوغ ملكة البديهة الحاضرة فى مساجلاته وأجوبته ورسائله وأوصافه أنها كانت عند الفاروق من آيات قدرة الله ، فكان إذا رأى رجلاً يتلجلج فى كلامه قال :

« **آمنت بالله ! خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد !** » وإذا اجتمع للرجل ذكاء ماض ، وعزيمة ماضية ، ولسان ماض وهوى يمضى فى زمامه ،

---

(١) أفضى إليك بسر .

وينثنى بعد عِرامه ، فذلك الرجل الذى يحسب له حساب فى كل زمان وُجد فيه[1] .

ولكنه أحرى أن يحسب له كل حساب فى أيام الفتن والقلاقل ، واختلاف الدعاوى والحقوق ، لأنه يستطيع التفريق والتوفيق ، ويستطيع التأليب والتغليب ، وعسير جداً أن يهمل شأنه بين الشيع والأحزاب ، وإن لم يكن إهماله فى غيبة الشيع والأحزاب جد عسير !

◄ كيف كان الداهيتان يتعاملان ؟

« يلوح من جملة أخبار عمرو مع معاوية أنهما كانا لايُضيعان وقتهما فى مِراء يعرفانه ولا يجهلانه .

وقد كانت مساومة عمرو لمعاوية صريحة لامُداجاة فيها ، فقال له يوماً : أترى أننا خالفنا عليًّا لفضل منا عليه ؟ لا والله !!

إن هى إلا الدنيا نتكالب عليها ، وآيم الله لتَقطعن لى قطعة من دنياك أو لَأُنابِذَنَّكَ ...» .

وقد كان كل منهما يفهم صاحبه ويكشفه فما حاجَتهُ إلى المداراة والمداهنة ، وقد رأى عين صاحبه واقعة على أخفى خفاياه ؟!!

عمرو بن العاص وعُمَر بن الخطاب :

خطب سَلْمان إلى عمر بن الخطاب ابنته فلم يَسْتَجِزْ ردّه ، فأنعم له[2] ، وشق ذلك عليه وعلى ابنه عبد الله بن عمر ، فشكا عبد الله ذلك إلى عمرو بن العاص فقال له : أفَتُحِبّ أن أصرفَ سلمانَ عنكم ؟

فقال له : هو سَلْمان ، وحالُه فى المسلمين حالُه !

قال : أحتال له حتى يكون هو التارك لهذا الأمر ، والكاره له .

قال : وَدِدْنا ذلك .

فمر عَمْرٌو بسلمانَ فى طريق ، فضرب بيده على منكبه ، وقال له : هنيئاً لك أبا عبد الله .

---

(١) عمرو بن العاص للعقاد .

(٢) أنعم له : قال له : نعم .

قال : وماذاك ؟ قال : هذا عمر يريد أن يتواضَعَ بك فيزوجَك . قال : وإنما يزوجنى ليتواضعَ بى ؟! قال : نعم . قال : لا جرَمَ ، والله لا خطبت إليه أبداً !!

فتوح الشام
عمرو فى مواجهة أرطبون الروم

يقول شهاب الدين النويرى فى نهاية الأرب : وفى سنة ثلاث عشرة وجه «أبو بكر» الجنود إلى الشام بعد مُنْصَرفه من مكة إلى المدينة ، فبعث «عمرو بن العاص» قِبَل فلسطين .

وبعث يزيد بن حسنة ، وأبا عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ، وأمرهم أن يسلكوا على البلقاء من «علياء الشام» .

وبلغ الروم ذلك ، فكتبوا إلى هرقل . فخرج هرقل حتى أتى حمصَ ، فأعد لهم الجنود ، وأرسل أخاه إلى «عمرو» فخرج نحوه فى تسعين ألفاً ، فهابهم المسلمون ، وجمع فرق المسلمين واحداً وعشرين ألفاً سوى عكرمة وكان أبو بكر أرسله ردءاً للناس فى ستة آلاف ، فكتبوا إلى «عمرو بن العاص» : ما الرأى ؟

فكاتبهم أن الرأى هو الاجتماع ؛ وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لا يُغْلَب من قلة .

وكتبوا إلى أبى بكر بذلك ، فجاءهم كتابه بمثل ما رأى «عمرو» .

ويقول ابن الأثير : لما انصرف أبو عبيدة وخالد بن الوليد بعد فِحْل إلى حِمص نزل «عمرو بن العاص» وشرحبيل بن حسنة على بيسان فافتتحها ، وصالحه أهل الأردن ، واجتمع عسكر الروم بـ «غزة» و «أجنادين» و «بيسان» إلى «الأرطبون» بـ «أجنادين» فسار «عمرو» وشرحبيل إليهم بها ، واستخلف «عمرو» على الأردن أبا الأعور ، وكان **«الأرطبون»** أدهى الروم وأبعدهم غوراً ، وكان قد وضع بالرملة جنداً عظيماً ، وبـ «إيلياء» كذلك ، فلما بلغ «عُمَر بن الخطاب» الخبر قال :

«رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظر عم تنفرج ؟!»[1].

وكان «معاوية» قد شغل أهل قيسارية عن «عمرو» ، وجعل «عمرو» علقمة ابن حكيم ومسروقاً العكّى على قتال أهل إيلياء ، فشغلوا من بها عنه ، وتتابعت الأمداد من عمر ـ رضى الله عنه ـ إلى عمرو ، فأقام عمرو على «أجنادين» لا يقدر من الأرطبون على شيء !، ولا تشفيه الرسل ، فسار إليه بنفسه ، ودخل إليه كأنه رسول ، ففطن به أرطبون وقال : لا شك أن هذا الأمير ، أو من يأخذ الأمير برأيه ، فأمر إنساناً أن يقعد على طريقه ، فإذا مر به يقتله ، فأدرك عمرو ، فقال له :

قد سمعت منى ، وسمعت منك ، وقد وقع قولك منى بموقع ، وأنا واحد من عشرة بعثنا عُمَر إلى هذا الوالى لنكاتفه ، فأرجع وآتيك بهم ، فإن رأوا ما رأيت ، فقد رآه الأمير وأهل العسكر ، وإن لم يروه ردَدْتهم إلى مأمنهم ، فقال : نعم .

ورد الرجل الذى أمره بقتله ، فخرج عمرو من عنده ، وعلم الرومىّ بعد مفارقته أنه خدعه . فقال : هذا أدهى الخلق ، وبلغ أمر هذه الواقعة عُمَر فقال : لله درّ عمرو ! ثم التَقَوْا ، واقتتلوا بأجنادين قتالاً شديداً كقتال اليرموك ، فانهزم «أرطبون» إلى إيلياء ففتح عمرو «غزة» .

وكتب عمرو إلى عمر بشأن بيت المقدس : «إنّى أعالج عدواً شديداً ، وبلاداً قد ادُّخرت لك فرأيك»[2] .

فعلم عمر أن عمراً لم يقل ذلك ؟ إلا لشيء سمعه . فحضر عمر ودخل الجابية وصالحه أهلها على الجزية ، ولحق أرطبون ومن أبى الصلح بمصر ، فلما ملكها المسلمون قتل .

وقيل بل لحق بالروم ، فكان على صوائفهم ، والتقى هو وصاحب صائفة

---

(١) تاريخ ابن الأثير [٢ : ٣٤٦] وما بعدها .
(٢) نهاية الأرب [جـ ١٩] .

المسلمين[1] ، ومع المسلمين رجل من قريش[2] ، فقطع أرطبون يده ، وقتله القرشى[3] ، وفيه يقول ويشير إلى يده :

فإن يكن أرطبونُ الروم أفسدها فإن فيها بحمدِ الله منتفَعَا
وإن يكن أرطبون الروم قطّعها فقد تركت بها أوصالِهِ قطَعَا

◘ فتح مصر وإنشاء الفسطاط على يديه ! ◘

وقد كان فتح مصر على يد عمرو بن العاص : ويقول النويرى : والصحيح أنها فتحت قبل عام الرمادة ، وكان عام الرمادة فى سنة ثمانى عشرة ؛ فإن عمرو بن العاص حمل منها الطعام إلى المدينة فى بحر القلزم ، وقد روى ابن عبد الحكم فى فتوح مصر أنه لما قدم عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إلى الجابية قام إليه عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ وخلا به فقال : ياأمير المؤمنين ، ائذن لى أن أسير إلى مصر ، وحرضه عليها وقال : إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم ، وهى أكثر أهل الأرض أموالاً ، وأعجز عن القتال والحرب[4] .

فتخوف عمر على المسلمين ، وكره ذلك ، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عنده ، ويهون عليه فتحتها حتى ركن لذلك . وتحقق الفتح على يديه .

◘ صورة من دهاء عمرو !! ◘

لما فتح العرب حصن بابليون أرسل المقوقس إلى عمرو يقول : إنكم قد وَلَجْتُم بلادنا ، وألححتم على قتالنا ، وطال مقامكم فى أرضينا ، وإنما أنتم عصبة يسيرة ، وقد أظلتكم الروم ومعهم من العُدد والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أنتم أسارى فى أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع منهم ..

فلما أتت رسل المقوقس عَمْراً حبسهم عنده يومين وليلتين ، حتى خاف عليهم المقوقس ، وقال لأصحابه : أترون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم ، ويستحلون

---

(١) الصائفة : غزوة الروم لأنهم كانوا يغزون صيْفاً لمكان البرد والثلج من الروم .
(٢) ابن الأثير والطبرى . « من قيس يقال له : ضريس » .
(٣) الطبرى وابن الأثير : « القيسى » .
(٤) فتوح مصر لابن عبد الحكم ٥٣ وما بعدها .

ذلك فى دينهم، وإنما أراد عمرو بذلك أن يروا حال المسلمين ، ثم ردهم عمرو ، وأجابه مع رسله : إنه ليس بينى وبينكم إلّا إحدى ثلاث خصال :

١ ــ إما أن دخلتم فى الإسلام وكنتم إخواننا ، وكان لكم مالنا ، وعليكم ما علينا .

٢ ــ وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون !

٣ ــ وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

فلما جاءت رسل المقوقس إليه ، قال : كيف رأيتم هؤلاء ؟

قالوا : رأينا قوماً ، الموت أحبّ إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحبّ إليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ، ولا نَهْمَة ؛ إنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على الركب ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد .

يغسلون أطرافهم بالماء ، ويتخشعون فى صلاتهم .

فقال المقوقس : والذى يُحلَف به ، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم ، إذا أمكنتهم الأرض وقوُوا على الخروج من موضعهم .

ثم رد رسله إلى المسلمين ، أن ابعثوا إلينا رسلاً منكم نعاملهم ، ونتداعى نحن وهم إلى ما عساه أن يكون فيه صلاح لنا ولكم .

وهنا يرى عمرو أن خطته قد نجحت ، فيستخدم ذكاءه ودهاءه فى إدخال الرعب على المقوقس !

لقد بعث عمرو بن العاص عشَرة نفر أحدهم «عبادة بن الصامت» وأمره أن يكون متكلمَ القوم ، وألا يجيبهم إلى شىء دعوه إليه إلا إلى إحدى هذه الثلاث خصال .

فلما دخلوا على المقوقس ، تقدم «عبادة بن الصامت» فهابه المقوقس لسواده ! فقال : نَحُّوا عنى هذا الأسود ، وقدموا غيره يكلمنى !

فقالوا جميعاً : إن هذا الأسودَ أفضلُنا رأياً وعلماً ، وهو سيدنا وخيرُنا ، والمقدم علينا ، وإنما نَرجع جميعاً إلى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره به ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله !

قال : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وإنما ينبغى أن يكون دونكم ؟!

قالوا : إنه وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعاً ، وأفضلنا سابقة وعقلاً ورأياً ، وليس يُنْكَر السَّوادُ فينا !

فقال المقوقس لعُبادةَ : تقدم ياأسود ، وكلمنى برفق ؛ فإنى أهاب سوادَك ، وإن اشتد كلامُك علىّ ازددت لذلك هيبة !

فتقدم إليه عبادة فقال : قد سمعت مقالَك ، وإن فيمن خلّفْتُ من أصحابى ألفَ رجل كلهم أشد سواداً منى ، وأفظع منظراً ، ولو سمعتهم ورأيتهم لكنت أهيبَ لهم منى ، وأنا قد ولّيت وأدبر شبابى ، وإنى بحمد الله مع ذلك ما اهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعاً ، وكذلك أصحابى ، وذلك إنما رغبتنا وهمّتنا الجهاد فى سبيل الله ، واتباع رضوانه ، وليس غزونا لمن حارب الله لرغبته فى دنيا ، ولا طلباً للاستكثار منها ؛ إلا أن الله ـ عز وجل ـ أحلّ ذلك لنا ، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالاً ، وما يبالى أحدنا أكان له قنطار من الذهب أم كان لا يملك إلا درهماً ؛ لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته لليله ونهاره ، وشملة يلتحفها ، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه ، وإن كان قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله تعالى ، واقتصر على هذا الذى بيده ، وبلّغه ما كان فى الدنيا ، لأن الدنيا ليست بنعيم ، ورخاؤها ليس برخاء ، وإنما النعيم والرخاء فى الآخرة ، وبذلك أمرنا ربنا ـ عزّ وجَلّ ـ وأمرنا به نبينا ، وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا ما يمسك به جوعته ، ويستر عورته ، وتكون همته وشغله فى رضا ربه ، وجهاد عدوه .

فلما سمع المقوقس منه ذلك ، قال لمن حوله : هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط ؟!

لقد هبت منظره ، وإن قوله لأَهْيَبُ عندى من منظره !! إن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض[1] ، ما أظن أن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها !

إنه الدهاء يفعل الأعاجيب فى النفوس !

وهكذا كان دهاء «عمرو» سلاحاً يُشهره فى المواقف الصّعبة فلا يخذله ، ولا يتخلى عنه !

◄ عمرو وعثمان ـ رضى الله عنهما ـ:

قال لعثمان وهو على المنبر :

ياعثمان ، إنك قد ركبت بهذه الأمة نهابير[2] من الأمر ، وزُغْتَ وزاغوا ، فاعتدِلْ أو اعتزل .

وقال له عثمان ـ رضى الله عنه ـ ذات يوم :

قم فاعذرنى عند الناس فقد كثر طعنهم علىّ ، فقام فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر النبى ـ ﷺ ـ، وما أكرمه الله به ، ثم قال : إنى قد صحبتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ ورأيته ، وقد سبق منكم من سبق ، فرأى ما لم أرَ ، فرأيت **السَّعَةَ** تكون فيعمها الناس دون نفسه ، وتكون **الخصاصة**[3] فيخصُّها نفسه وأهل بيته دون الناس .

ثم وَلِى الناسَ أبو بكر فسلك سبيله ، حتى خرج من الدنيا فى ثوب ليس له رداء .

---

(١) خراب أرض الظالمين ، وتعمير أرض المهادنين أو الداخلين فى دين الله وإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان !

(٢) نهابير : مهالك جمه نهبور ، ومعناها فى اللغة : ما يشق على الراكب قطعه من الرمال .

(٣) السّعة : الخير الشامل . والخصاصة : الفقر والشدة والمجاعة .

ثم وليها ابن «حنتمة»[1] ، فانبعجت له الدنيا[2] ، فقمَص منها قمصاً[3] ، ومصها مصًّا ، وجانب غمرتها[4] ، ومشى فى ضحضاحها[5] ، حتى خرج مشمراً ما ابتلت عقبه !

أكذاك أيها الناس ؟ قالوا : اللّٰهم نعم !

ثم وَلِى عثمان ، فقلتم تلومونه ، وقال يعذِرُ نفسه ؛ فعلى رِسْلِكم ، فرُبّ أمرٍ تأخيره خير من تعجيله ، وإن الحسير يبلغ . والهزيل يبقى . ثم جلس .

فقال عثمان ـ رضى الله عنه ـ: مازلت منذ اليوم فيما لا ينفع أهلك !

قال : فإنى قلت بما أعلم .

(١) حنتمة : هى بنت هشام بن المغيرة وأم عمر بن الخطاب ، وابنة عم أبى جهل . النهاية .

(٢) شُقت وكشفت له كنوزها .

(٣) نفر منها .

(٤) غمرتها : الماء الكثير .

(٥) الضحضاح : الماء القليل .

◘ عمرو بن العاص وعلى ـ رضى الله عنهما ـ ◘

عندما التقى الجيشان فى وقعة صِفِّين . ودارت المعارك ضارية مثيرة ، وطالت ، واستطالت حتى عجت الأرض بالدماء، وغطتها جثث الضحايا جزع الإمام على لكثرة الضحايا ...!!

وفى سبيل أن يحسم الأمر ويصون الدم ، تقدم فوق جواده من صفوف معاوية وناداه[1] ، ليخرج إليه ، فما خرج ، فلما فرغ من قتال ذلك اليوم كتب إليه كتاباً بعث به إليه : «يامعاوية ، لِمَ تقتل الناس بينى وبينك ؟»

ابرز إلىّ ، فأينا قتل صاحبه تولى الأمر من بعده ! واستشار معاوية صديقه «عَمْراً» فقال له :

ـ لقد أنصفك الرجل فابرز إليه .

فأغضبته مشورة عمرو ، ووجد فيها إحدى مكايده للتخلص منه ؛ لأنه يعلم أن «علياً» ما بارز أحداً إلا صرعه !! وقال لعمرو : طمعت فيها بعدى !!

ولكى يبعد «عمْرو» هذا الخاطر المزعج عن معاوية ، قال له :

ـ إنى خارج إلى «علىّ» غداً فمبارزه .

وفى اليوم التالى ، وقد تأهب كلا الجيشين لاستئناف القتال ، وقف «عمرو» ونادى «الإمام علياً» لمبارزته .. وخرج الإمام إليه ، وتبارزا وهما فوق فرسيهما ، وبينما الإمام يهوى بسيفه على «عمرو» ، ليجلله به قذف بنفسه على الأرض ، وتمدد عليها فى استسلام ، وفزع وضراعة ، فألقى عليه «الإمام» نظرة الظافر الكريم ، ورجع عنه لم يصنع به شيئاً .

ولو حفظ «عمرو» للإمام هذا الصنيع الجليل ، وتخلى عن شغفه بالإمارة لأخذت مسيرة الصراع وجهة أخرى .. لكنه لم يفعل ، بل إنه حين أنهك القتال

---

(١) تاريخ الأمم والملوك [جـ ٤ ص ٢٩] . وانظر كذلك الإمامة والسياسة لابن قتيبة [جـ ١ ص ١٠٣] .

جيش الشام ، وبات النصر مؤكداً لجيش الإمام ، وصار واضحاً أنه لم يَبْقَ سوى ساعة أو بعض ساعة ؛ ثم ينتهى إلى الأبد تمرد معاوية ومن معه .. عندئذ ومعاوية يقرع سِنَّ الندم، ويحدق فى وجه «عمرو» يَسْتَجْدِيه الرأى والحيلة فتح «ابن العاص» جعبته ليخرج منها جديداً !

قال لمعاوية : لقد أعددت بحيلتى أمراً ادخرته لهذا اليوم . ترفع المصاحف ، وتدعو إلى تحكيم القرآن !

فإن قبلوا التحكيم اختلفوا .. وإن ردوه اختلفوا !! .

وقد حدث ما أراده عمرو !!

فما كادت طلائع معاوية ترفع المصاحف وتسير بها صوب معسكر العراق حتى نشب الخلاف !

لقد أدرك الإمام من فوره أنها خدعة ، فحذر قومه منها !! لكن الأشعث بن قيس ونفراً من القراء راحوا يقنعون الناس بضرورة الاحتكام إلى كتاب الله .

قال الإمام : «أنا أحق من يُجيب إلى كتاب الله ، ولكنى أعرَفُ بهم منكم .. إنها كلمة حق يراد بها باطل !!

وإنى ما قاتلتهم إلا ليدينوا بحكم القرآن ، فكيف أرفض اليوم حكمه ؟!

إن القوم لم يرفعوا المصاحف لأنهم يريدون حكم القرآن . إنما هى الخديعة والوهن والمكيدة !

فأعيرونى سواعدكم ساعة واحدة فقد بلغ الحق مقطعه !» .

لكن المعارضة بلغت أوجها فى سرعة مريبة، وتولى الأشعث كِبْرها .

ويروى الطبرى أيضاً[1] : أنه لما بايع الحسن معاوية ، ودخل هذا الكوفة ، واجتمع بالناس فى المسجد أراد معاوية أن يخطب الناس فأشار عليه عمرو أن يقدم الحسن ليخطب الناس ، ولكن معاوية كان سيِّءَ الظن بعمرو فقال له : أما تريدنى أن أخطب الناس ؟

---

(١) تاريخ الأمم والملوك [جـ ٤ ص ١٢٤] .

فأجاب عمرو : بلى ، ولكنى أريد أن يبدو عِيّ الحسن للجماهيل !

وألحّ على معاوية ، فاستجاب ، وقدم الحسن ، فأجاد هذا فى خطابه القصير ، وغمز فيه معاوية ، وختم خطابه بقوله تعالى : ﴿ **وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين** ﴾ .

[سورة الأنبياء : ١١١]

فاغتاظ معاوية من عمرو ، وقال له : هكذا أردت يابن العاص !! ولما كمل الأمر لمعاوية أعطى مصرَ لعمرو طُعمةً جزاء خدماته ، فظل والياً عليها حتى مات سنة ٤٣ هـ .

◘ عمرو بن العاص ومعاوية ◘

كان عمرو بن العاص من أعوان معاوية الذين اعتمد عليهم فى تذليل الصعاب ، وكبح جماح المتمردين .

وقد أدرك «معاوية» بفطنته ودهائه أن أحاسيس عمرو تجاهه لم تكن ودية ، مثلما كانت أحاسيس معاوية تجاه عمرو ، ولكنه كان يدرك تماماً مدى حاجته لمثل هذا الداهية . بينما كان عمرو هو الآخر يدرك مدى ما يمكن أن يجنيه من ثمار فى مقابل ما يؤديه لمعاوية من خدمات . هذا الإدراك المتبادل من الداهيتين جعلهما يتعاونان ويتبادلان المنفعة ، ويُخْفى كل منهما نواياه تجاه زميله .

يحدثنا ابن طباطبا عن هذا الدهاء فيقول : «ومن دهاء معاوية استمالته لعمرو ابن العاص أحد الدهاة المشاهير ، وقد كان عمرو عندما نشبت الفتنة بين على ومعاوية معتزلاً للفريقين ، فرأى معاوية أن يستميله ، ويتقوى به ، ووعده ولاية مصر ، ومصر كانت الأمل الذى تهفو له نفس ابن العاص .

وبهذا انضم عمرو إلى معاوية ، وساعده مساعدة كبيرة ، مع أنه لم يكن بينهما مودة قلبية ، وكانا يتباغضان سراً ، وربما ظهر ذلك على صفحات وجهيهما ، وفلتات ألسنتهما .

ومما يدل على ذلك: أن معاوية سأل يوماً جلساءه ، وفيهم عمرو : ما أعجب الأشياء ؟

فكانت إجابة عمرو قوله : «أعجب الأشياء أن المبطل يغلب المحق ..» .

وكان بذلك يُعَرّض بعليٍّ ومعاوية .

فقال معاوية يرد عليه : «إن أعجب الأشياء أن يُعطَى الإنسان ما لا يستحق إذا كان لا يُخاف .

وكان معاوية يعرّض بعمرو وولاية مصر .

ومع ما كان بين الاثنين ، فقد اتسعت نفس معاوية لعمرو واستفاد منه ، وأفاده»[1] .

(١) الفخرى [ص ٩٣] .

▣ كلمة إنصاف .... ▣

أبو موسى الأشعرى وبغض الشيعة له بعد التحكيم !!

ولّاه عمر البصرة ، وعثمان الكوفة ، وكان أحد الحكمين يوم صفين .

كتب معاوية إلى أبى موسى بعد الحكومة ـ وهو يومئذ بمكة عائذ بها من على ـ رضى الله عنه ـ، وإنما أراد بكتابه أن يضمه إلى الشام :

«أما بعد ؛ فإنه لو كانت النية تدفع خطأ لنجا المجتهد ، وأُعْذَر الطالب ، ولكن الحق لمن قصد له فأصابه ، ليس لمن عارضه فأخطأه .

وقد كان الحكمان إذا حكما على رجل لم يكن له الخيار عليهما .

وقد اختار القوم عليك ، فاكره منهم ما كرهوا منك ، فأقْبل إلى الشام ، فهى أوسع لك .

فكتب أبو موسى إليه :

«أما بعد ... فإنى لم أقل فى علىٍّ إلا بما قال صاحبك فيك ، إلا أنى أردت ما عند الله ، وأراد عمرو ما عندك .

وقد كانت بيننا شروط ، والشورى عن تراضٍ فلما رجعَ رجعتُ .

فأما الحكمان ، وأنه ليس للمحكوم عليه الخيار ، فإنما ذلك فى الشاة والبعير ، فأما فى أمر هذه الأمة ، فليس أحد آخذاً لها بزمام ما كرهوا .

وليس يذهب الحق لعجز عاجز ولا مكيدة كائد . وأما دعاؤك إياى إلى الشام ، فليست لى رغبة عن حرم إبراهيم ـ عليه السلام» .

فلما بلغ علىًّا ـ رضى الله عنه ـ قولُه رقّ له ، وأحب أن يضمه إليه ، فكتب إليه :

«أما بعد ؛ فإنك رجل أمالك الهوى ، واستدرجك الغرور !

وحتى تتضح للقارىء الكريم صورة أبى موسى الأشعرى أحد طرفى «التحكيم» نسوق ماقاله الإمام الذهبى عنه فى ذخائر العرب. سير أعلام النبلاء» فبضدها تتميز الأشياء» .

قال الواقدى وغيره : قدم أبو موسى مكة ، وحالف أبا أُحيحة الأموى . وأسلم بمكة وهاجر إلى الحبشة .

وهو معدود فيمن قرأ على النبى ـ ﷺ ـ أقرأ أهل البصرة وأفقههم فى الدين .

وفى الصحيحين عن أبى بردة بن أبى موسى ، عن أبيه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه ، وأدخله يوم القيامة مُدخلا كريما** » .

وقد استعمله النبى ـ ﷺ ـ ومعاذاً على زبيد ، وعدن ، وولى إمرة الكوفة لعمر ، وإمرة البصرة .

قال ابن سعد : أسلم أبو موسى بمكة ، وهاجر إلى الحبشة ، وأول مشاهده خيبر ، ومات سنة اثنتين وأربعين .

وقال أبو أحمد الحاكم : أسلم بمكة ، ثم قدم مع أهل السفينتين[1] بعد فتح خيبر بثلاث ، فقسم لهم النبى ـ ﷺ ـ ولى البصرة لعمر وعثمان ، ووَلى الكوفه ، وبهامات .

وقال مسرور : كان القضاء فى الصحابة إلى ستة : عمر ، وعلى ، وابن مسعود ، وأُبَىّ ، وزيد ، وأبى موسى .

قال الحسن البصرى فى ولاية البصرة : ما قدمها راكب خير لأهلها من أبى موسى

وعن الشعبى قال : كتب عمر فى وصيته : ألا لا يقر لى عامل أكثر من سنة وأقروا الأشعرى أربع سنين .

ويقول الإمام الذهبى : ولا ريب أن غُلاة الشيعة يُبغضون أبا موسى ـ رضى الله عنه ـ لكونه ما قاتل مع على ، **ثم لما حكّمه علىّ على نفسه عزله ، وعزل معاوية ، وأشار بابن عمر ، فما انتظم من ذلك حال** .

وذكر الإمام الذهبى أن معاوية كتب إليه :

أما بعد .. فإن عمرو بن العاص قد بايعنى على ما أريد ، وأقسم بالله لئن

---

(١) يريد رجوعه بعد هجرته .

بايعتنى على الذى بايعنى ، لأستعملن أحد ابنيك على الكوفة ، والآخر على البصرة ، ولا يُغْلَق دونك باب ، ولا تُقْضَى دونك حاجة .

وقد كتبت إليك بخط يدى ، فاكتب إلىّ بخط يدك . فكتب إليه :

أما بعد : فإنك كتبت إلىّ فى جسيم أمر الأمة ، فماذا أقول لربى إذا قدمت عليه ؟!

ليس لى فيما عرضت على من حاجة . والسلام عليك .

قال أبو بردة :

فلما ولى معاوية أتيته ، فما أغلق دونى باباً ، ولا كانت لى حاجة إلا قضيت .

قلت : قد كان أبو موسى صواماً قوَّاماً ربانياً زاهداً عابداً ، ممن جمع العلم والعمل والجهاد وسلامة الصدر ، لم تغيره الإمارة ، ولا اغتر بالدنيا .

وروى حميد بن هلال عن أبى بُردة قال : حدثتنى أمى قالت :

خرج أبو موسى حين نُزِعَ عن البصرة ، ما معه إلا ستمائة درهم عطاء لعياله .

وروى الزبير بن الحريث عن أبى لبيد قال :

ما كنا نشبه كلام أبى موسى إلا بالجزار الذى ما يخطىء المِفْصل .

وعن الحسن قال :

كان الحكمان : أبا موسى وعمراً ؛ وكان أحدهما يبتغى الدنيا والآخر يبتغى الآخرة .

◄ ماذا رأى عمرو عند الاحتضار ؟!

روى ابن عباس قال :

دخلت على عمرو بن العاص وقد احْتُضِر ، فقلت : ياأبا عبد الله ، إنك كنت تقول : أشتهى أن أرى عاقلاً يموت حتى أسأله : كيف يجد ؟ فكيف تجدك ؟

فقال : أجد السماء كأنها مُطْبقةٌ على الأرض وأنا بينهما ، وأرانى كأنى أتنفس من خُرْتِ إبرة . (ثقبها)

ثم قال : اللّٰهم خذ منى حتى ترضى !

ثم رفع يده فقال : اللّٰهم أمرتنا فعصينا ، ونهيت فركبنا ؛ فلا برىء فأعتذر ، ولا قوىٌّ فأنتصر ! ولكن لا إلٰه إلا الله ، ثم فاظ (مات) !

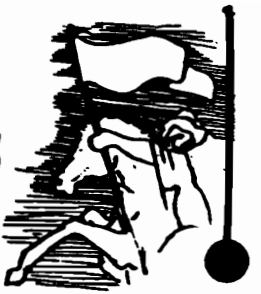

« ٣ »

المغيرةُ بنُ شعبة المعضلات

«لو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج
منها إلا بالمكر لخرج المغيرة من أبوابها كلها»

[قبيصة بن جابر]

▣ المغيرة بن شعبة فى كلمات ▣

(٠٠ ـ ٥٠ هـ ـ ٠٠٠ ـ ٦٧٠ م)

هو المغيرة بن شعبة بن أبى عامر بن مسعود الثقفى أبو عيسى، أو أبو محمد[١] .

قال الطبرى : يكنى أبا عبد الله .

قال : وكان ضخم القامة ، عبل الذراعين ، بعيد ما بين المنكبين ، أصهب الشعر جعده ، وكان لا يفرقه . ولد بالطائف بالحجاز . وأسلم قبل عمرة الحديبية ، وشهدها وبيعة الرضوان ، وله فيها ذكر ، وذهبت عينه فى اليرموك .

قال ابن سعد : كان يقال له : مغيرة الرأى .

وشهد اليمامة ، وفتوح الشام والعراق .

◄ دهاؤه ومكره :

وقال الشعبى : كان من دُهاة العرب!

وقال قبيصة بن جابر : صحبت المغيرة ، فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب ، لا يخرج منها إلا بالمكر ، لخرج المغيرة من أبوابها كلها .

ولاه عمر على البصرة ففتح عدة بلاد ، ثم عزله بعد اتهام وجه إليه ، ثم ولاه الكوفة ، وأبقاه عثمان عليها ، ثم اعتزل الحرب بين على ومعاوية ، وحضر مع الحكمين .

وكان المغيرة بن شعبة من أعوان معاوية ، ولذا ولّاه الكوفة .

والكوفة والبصرة آنذاك أكثر البلاد عداء للأمويين ، ولهذا كان يُختار لهما أقوى الوُلاة ، وأكثرهم إخلاصاً . وكان «المغيرة بن شعبة» من أحسن الولاة الذين ساسوا الكوفة ؛ لأنه استطاع أن يضمن الطاعة لمعاوية بأقل ما يمكن من الضحايا والدماء .

وقد كشف عن سياسته بقوله : «لا أحب أن أبدأ أهل المِصر بقتل

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة .

خِيارهم ، وسفك دمائهم ؛ فيسعدَ الخليفة بذلك وأشقى ، ويعز فى الدنيا معاوية ، ويذل المغيرة فى الآخرة !

ولكنّى قابل من مُحْسِنهم .. وعافٍ عن مسيئهم .. وحامدُ حليمهم .. وواعظُ سفيههم .. حتى يُفرق بيننا الموت ! » .

ولعل مما يؤخذ على المغيرة استمراره على الطعن فى على واللعن له !!

ولعل ذلك كان أساساً لسياسة ذلك العصر .

وقد ظل «المغيرة» والياً على الكوفة حتى مات سنة ٥١ هـ وعندئذ ضم معاوية ولاية الكوفة إلى والى البصرة ذى اليد الحديدية والقلب القاسى : «زياد بن أبيه» . وللمغيرة فى الصحيحين ١٣٦ حديثاً .

◘ قبيلة المشاهير .... ◘

هى قبيلة ثقيف .. تلك القبيلة العربية الكبيرة التى سادت فى الطائف فى العصر الجاهلى ، وكانت منزلتها فى الطائف على مثال مكانة قريش فى مكة .

وقد سجل التاريخ حياة مشاهير قبيلة ثقيف وعلى رأسهم :

١ ــ أبو عبيد بن مسعود والد المختار الثقفى الذى كان من أبرز المجاهدين وكبار قواد الجيوش الإسلامية التى توجهت لفتح العراق فى مطلع خلافة عمر بن الخطاب .

٢ ــ وعروة بن مسعود عم المختار الثقفى وأحد سادات ثقيف ، وكان كبير قومه بالطائف ، وقيل : إنه المراد بما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾ [الزخرف : ٣١]

٣ ــ والمغيرة بن شعبة أحد دهاة العرب الأربعة ووالى معاوية فى العراق .

٤ ــ والمختار بن أبى عبيد الثقفى أحد الأعلام فى العصر الأموى .

٥ ــ والحجاج بن يوسف الثقفى عضد الدولة الأموية فى عهد الخليفتين : عبد الملك بن مروان ، والوليد بن عبد الملك .

٦ ـ ومحمد بن القاسم الثقفى القائد الحربى المشهور ، وفاتح الهند المعروف .

٧ ـ ويوسف بن عمر الثقفى والى العراق فى أواخر العصر الأموى .

هى إذن قبيلة الأبطال والقواد والأعلام والمشاهير ..

قبيلة ثقيف بالطائف .. تلك التى أنجبت لنا «المغيرة بن شعبة» أحد دهاة العرب فى الإسلام! إنه من ثقيف المشهورة فى الجاهلية والإسلام بقوة الدهاء، وسَعة الحيلة ، ومضاء العزيمة !

◘ المغيرة بن شعبة بين رجالات ثقيف ! ◘

وهكذا اشتهرت قبيلة ثقيف بأنها تنجب رجالاً امتازوا بالذكاء والدهاء والفطنة ؛ فيروى ابن هشام أن الرسول ـ ﷺ ـ حين حاصر مدينة الطائف سنة ٨ هـ انضم إلى جيشه عيينة الفزارى ، لا لكى يقاتل ثقيفاً ، ولكنه كان يأمل أن يتم للنبى ـ ﷺ ـ فتح الطائف ، فيصيب هو جارية يتبطنها ؛ لعلها أن تلد له رجلاً فطناً ؛ لأن ثقيفاً كما يقولون : «قوم مناكير» يعنى : أنهم دهاة فطنون .

أما «عُيينة» نفسه ، فلم يرث دهاء ، ولا يستطيع أن يورثه[1].

أنجبت الطائف كثيراً من رجالات العرب الذين لعبوا دوراً كبيراً فى تاريخ صدر الإسلام ، فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين وقد أجمع المؤرخون على تمجيد هؤلاء الثقفيين ، وفى مقدمتهم : المؤرخ الألمانى : «فلهوزن» الذى قال : ارتفع شأن الطائف ، كما ارتفع شأن مكة والمدينة بفضل الإسلام ، واتخذت الطائف من حيث هى مدينة ، موقفاً ممتازاً فوق عصبيات القبائل ، كما تجلى ذلك أيام الردّة سنة ١١ هـ .

وقد انضم الثقفيون من أول الأمر ـــ خلافاً للأنصار ـــ انضماماً نهائياً إلى قريش صاحبة السيادة ، وخصوصاً إلى الأمويين ، وكان لهؤلاء صلات وثيقة بالطائف ، وكانوا فيها أصحاب ثراء .

---

(١) سيرة ابن هشام [ص ٨٧٤] طبعة أوربا .

وكان الثقفيون مشهورين بالدهاء والفطنة ، وقد أقاموا الدليل على ذلك ، وقد ظهر منهم فى عصر الأمويين عدد كبير من ذوى المواهب ، وغيرهم من الرجال المبرزين[1] .

ولقد كانت قريش تضم بيتين كبيرين متنافسين : البيت الأموى ، والبيت الهاشمى .

وكان العلويون أبرز بنى هاشم ، ودخل الثقفيون فى طاعة الفرع الأموى دون الفرع الهاشمى عدا المختار الثقفى الذى نبذ طاعة الدولة الأموية ، وظل مخلصاً لآل على بن أبى طالب حتى مصرعه !

أما سائر بنى ثقيف مثل : المغيرة بن شعبة ، والحجاج بن يوسف ، ومحمد بن القاسم ، وغيرهم فكانوا من أبرز ولاة وقواد بنى أمية ، وتمسكوا بولائهم للدولة الأموية ، بما فيهم «زياد» الذى أعلن ولاءه لمعاوية بعد ولايته .

وعلى الرغم من أن قبيلة «ثقيف» ترتبط بمدينة «الطائف» إلا أن رجالات ثقيف ارتبطوا فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ببلاد العراق . فقد شهدت هذه البلاد أمجاد الثقفيين ، وأصبح تاريخها فى الحقيقة تاريخ هؤلاء الثقفيين .

فقد تولى المغيرة بن شعبة الثقفى حكم الكوفة فترة طويلة ، كما حكم «زياد ابن أبيه» ــ وينسبه بعض المؤرخين إلى ثقيف ــ البصرة والكوفة فى خلافة معاوية ابن أبى سفيان ، ونجح فى توطيد الحكم الأموى فى بلاد العراق .

والمغيرة أحد دهاة العرب الأربعة ، ومنهم زياد . وقد وصف السيوطى دهاء المغيرة بقوله :

« ... فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بمكر ، لخرج من أبوابها كلها »[2] .

وإن كان فى المغيرة بن شعبة طموح وآمال عريضة ، ورغبة فى الوصول إلى السلطة والنفوذ يشارك فيها غيره من الثقفيين ، **إلا أنه كان يختار طريقاً مأموناً**

---

(١) تاريخ الدولة العربية [ص ١٠٧] .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ١٣٦ . ونسبت هذه العبارة إلى قبيصة بن جابر .

سهلاً ، وإن شئت فقل : إنه كان يرى أن يلعب الدور الثانى لا الدور الأول ، وأن يكون تابعاً لا متبوعاً ، فعمل على أن يكسب رضا الخلفاء ، فيعهدوا إليه بحكم بعض البلاد حيث يحقق آماله فى السيادة والنفوذ . وبذل كل جهد فى سبيل الاحتفاظ بما وصل إليه من سلطان ، دون أن يبذل جهده فى أن يؤدى واجبه المنوط به على أكمل وجه !!

وقد أجمع المؤرخون : **على أن المغيرة بن شعبة كان سهلاً ليناً حيث كان يجب أن يتخذ الشدة** .

وينسب الطبرى هذا التساهل إلى حب المغيرة للسلام والعافية[1] .

أما «فلهوزن» فيفسره بقوله :

لم يستأصل المغيرة الشرَّ فى بدايته ، وقبل أن يستفحل، بل تركه يشتد ويعظم؛ لأنه كان يعرف أنه لا يعيش حتى يواجه هذا الخطر بعد استفحاله ، وكان لا يهدف إلا للمحافظة على حياته تاركاً هذه الأخطار ليتداركها من يخلفه ، على الرغم من أن هذا يعتبر جزءاً من وظيفته ، ولكنه هدف أن يستفيد من ولايته أكبر فائدة ممكنة وحتى النهاية !

ويرجع «لا منس» تساهل المغيرة إلى كبر سنه ويقول : إنه لو كان أصغر سناً لما تردد فى مواجهة هذه الصعوبات بالقوة ، ولكن حب المغيرة للعافية أنساه أنه خاضع للأمويين أما «بروكلمان» فيرجع هذا التساهل إلى أخلاق المغيرة الشخصية فهو يصفه بأنه : «رجل انتهازى لاذمة له ولاذمام»[2] .

◄ *بداية ونهاية !*

بدأ المغيرة حياته السياسية سنة ٩ هـ حينما عهد إليه الرسول ـــ ﷺ ـ بهدم صنم اللات فى مدينة الطائف .

واشترك فى فتوح العراق فى خلافة عمر بن الخطاب .

وولاه عمر بن الخطاب حكم البصرة بعد وفاة أول والٍ لها وهو عتبة بن

---

(١) تاريخ الطبرى [جـ ٦ ص ١٥٠] .
(٢) المختار الثقفى . د. على حسن الخربوطلى .

غزوان ، فنظم ديونها ، وفتح ميسان والأهواز ، وشهد موقعة نهاوند .

ثم عزل عن حكم البصرة، ولكنه عاد إلى حكم الكوفة بعد فترة قصيرة سنة ٢١ هـ .

وفى عهده تمت فتوحات بلاد ميديا وأذربيجان[١] ويروى المؤرخون أن المغيرة كان أول من اقترح على عمر بن الخطاب أن يتخذ لقب «أمير المؤمنين» .

وكان المسلمون ينادونه : بيا : «خليفة خليفة رسول الله» .

◄ جوانب مضيئة من حياته :

صحب النبى ـ ﷺ ـ، وشهد معه الحديبية وما بعدها . وبعثه أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ إلى أهل النجيرة[٢] .

وشهد فتح اليمامة ، وفتوح الشام .

وكان أعور أصيبت عينه فى يوم اليرموك .

وشهد القادسية مع سعد بن أبى وقاص ، فلما أراد مراسلة «رُستم» لم يجد فى العرب أدهى منه ولا أعقل ، فبعث به إليه ، وكان السفير بينهما حتى وقعت الحرب .

وولاه عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عدة ولايات :

إحداها : البصرة ، ففتح وهو واليها «ميسان»[٣] ، ودست ميسان وأبرقُباذ .

وقاتل الفُرس بالمرغاب[٤] ، فهزمهم ، ونهض إلى من كان بسوق الأهواز ، فقاتلهم وهزمهم ، وفتحها ، وانحازوا إلى نهر تيرى[٥] ، ومناذر الكبرى ، فزحف إليهم فقاتلهم ، وهزمها وفتحها .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان [ص : ٣٣٤] .

(٢) النجيرة : حصن باليمن قرب حضرموت لجأ إليه أهل الرّدة مع الأشعث بن قيس فى سنة ١٢ للهجرة .

(٣) ميسان : اسم كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط ، قصبتها ميسان .

(٤) المرغاب اسم نهر بمرو الشاهجان واسم نهر بالبصرة . وهى هنا قرى من قرى هراة .

(٥) بلد من نواحى الأهواز حفرة أردشير الأصغر بن بابك .

وخرج إلى المشرق مع النعمان بن المقرِّن[1] ، وكان المغيرة على ميسرته ، وكان عمر قد عهد ؛ إن هلك النعمان ، فالأمير حذيفة[2] ، فإن هلك حذيفة فالأمير المغيرة بن شعبة .

ولما فتحت «نهاوند»[3] سار المغيرة فى جيش إلى همذان ففتحها .

وولاه عمر ـ رضى الله عنه ـ بعد ذلك الكوفة ، فقُتِل عمر وهو واليها ، وأقره عثمان ثم عزله ، فلما قُتِل عثمان اعتزل القتال إلى أن حضر مع الحكمين ، ثم بايع معاوية بعد أن اجتمع الناس عليه .

وولاه ـ أيضاً ـ معاوية بن أبى سفيان ـ رضى الله عنه ـ إياها فكان عليها إلى أن مات بها سنة خمسين على الأكثر .

وهو أول من وضع ديوان الإعطاء بالبصرة ، ورتب الناس فيه ، فأعطاهم على الديوان ، ثم صار ذلك رسماً لهم بعد ذلك يحتذونه .

قال الطبرى : كان لا يقع فى أمر إلا وجد له مخرجاً ، ولا يلتبس عليه أمران .

وقال الطبرى ـ أيضاً ـ: كان مع أبى سفيان فى هدم طاغية ثقيف بالطائف .

◄ المغيرة يغضب لأبى بكر ! وأبو بكر يحميه !

يحكى المغيرة بن شعبة فيقول : كنت جالساً عند أبى بكر إذ عُرض عليه فرس

---

(١) من الأمراء القادة صحابى فاتح ، كان معه لواء «مزينة» يوم فتح مكة ، سكن البصرة ، ثم تحول عنها إلى الكوفة ، ووجهه سعد بن أبى وقاص ـ بأمر عمر ـ إلى محاربة الهرمزان ، فزحف بجيش الكوفة إلى الأهواز ، وهزم الهرمزان ، وتقدم إلى «تستر» فشهد وقائعها ، وعاد إلى المدينة بشيراً بفتح «القادسية» . غزا «أصفهان» ففتحها وهاجم نهاوند واستشهد فيها ، فبكاه عمر سنة ٢١ هـ . [الأعلام : ج ٨ ص ٤٢] .

(٢) صحابى من الولاة الفاتحين كان صاحب سر النبى ـ ﷺ ـ فى المنافقين توفى سنة ٣٦ هـ [الأعلام] .

(٣) نهاوند : مدينة عظيمة جنوبىّ همذان بينهما ثلاثة أميال .

له ، فقال له رجل من الأنصار : احملنى عليها .

فقال أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ: لأن أحمل عليها غلاماً قد ركب الخيل على غُرْلته[1] أحب إلىّ من أن أحملك عليها ، فقال له الأنصارى : أنا خير منك ومن أبيك !

قال المغيرة : فغضبت لما قال ذلك لأبى بكر ـ رضى الله عنه ـ فقمت إليه ، فأخذت برأسه ، فركبته ، وسقط على أنفه ، فتوعدنى الأنصار ، فبلغ ذلك أبا بكر فقام ، فقال : أما بعد : فقد بلغنى عن رجال منكم زعموا أنى مُقيدهم من المغيرة بن شعبة .

ووالله لأن أخرجهم من دارهم أقرب إليهم من وَزَعَةِ[2] الله الذين يزعون إليه[3] .

(١) الغُرْلة : القلفة . ويريد أبو بكر أن الغلام المدرب على ركوب الخيل من صغره قبل أن يختن أفضل من الكبير الذى ليست لديه خبرة بركوب الخيل .

(٢) الوزعة : جمع وازع ، وهو الذى يكف الناس عن الإقدام على الشر .

(٣) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى .

المغيرة بن شعبة فى مرآة الأصفهانى

يقول أبو الفرج الأصفهانى :

كان المغيرة بن شعبة من دُهاة العربِ وحَزَمتها ، وذوى الرأى منها ، والحِيَل الثاقبة !

وكان يقال له فى الجاهلية والإسلام :

«مُغيرة الرَّأى»

وكان يقال :

ما اعتلج فى صدر المغيرة أمران إلا اختار أحزمهما .

[الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى]

◘ المغيرة وعمه ! ◘

رأى المغيرة بن شعبة عمّه عروة بن مسعود الثقفى ـ وكان أحد أكابر ثقيف فى الجاهلية[1] ـ يكلم النبى ـ ﷺ ـ ويتناول لحيته يمسها ، فقال :

أمسك يدك عن لحية النبى ـ ﷺ ـ قبل ألا تصل إليك .

فقال عروة : ياغُدَر ، وهل غسلت رأسك من غَدْرتك إلا بالأمس ؟

وكان قد خرج مع سبعة نفر من بنى مالك إلى مضر ، فعدا عليهم فقتلهم جميعاً وهم نيام ، واستاق العِير ، ولحق برسول الله ـ ﷺ ـ تائباً راغباً فى الإسلام !

◘ سفارة المغيرة بن شعبة ◘

عندما وجّه عمر ـ رضى الله عنه ـ « سعد بن أبى وقاص » على رأس جيش تزيد عدته على ثلاثين ألفاً ليقضى على سلطان الفرس فى العراق كله ..

فلما اشتدت غارات العرب على السواد من أسفله إلى أعلاه ، وبعث مرازبته[2] ودهاقينه[3] إلى «يزد جرد» أنه إن لم يُنْجدهم نزلوا على أمر المسلمين طائعين أو كارهين زال من نفسه كل تردد وأمر «رستم» فسار إلى «ساباط» وعلم سعد بمسيرته ، فكتب إلى عمر ، فرد عليه عمر : «لا يكربنك ما يأتيك عنهم ، ولا ما يأتونك به ، واستعن بالله ، وتوكل عليه ، وابعث إليهم رجالاً من أهل المنظرة والرأى والجَلَد يدعونه ، فإن الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم ، وفلجاً عليهم» .

لقد أمره أن يبعث إلى صاحب الفرس من يناظرونه ويدعونه ، وكان «المغيرة

---

(١) أسلم وشهد الحديبية ، ودعا قومه إلى الإسلام فعصوه ، ورماه واحد منهم بسهم فقتله . [الإصابة : ٢٣٨٤] .

(٢) المرازبة : جمع مَرْزُبان : رئيس الفرس ، أو الفارس المقدم على القوم .

(٣) الدهاقين : جمع دُهقان : رئيس القرية ، ورئيس الإقليم ، والقوى على التصرف مع شدة خبرة .

ابن شعبة» عضواً فى ذلك الوفد من أهل الرأى والسياسة والشجاعة .

وعندما تساءل «يزدجرد» عن سرّ قدومهم رد عليه «النعمان بن مقرّن» ، فكَبُر على «يزدجرد» أن يسمع مثل ذلك القول ، فقال : «إنى لا أعلم أمة فى الأرض كانت أشقى ، ولا أقل عدداً ، ولا أسوأ ذات بين منكم .. إلخ ما قال .

وسمع الوفد هذه المقالة فسكتوا . عند ذلك قام «المغيرة بن شعبة» فقال :

أيها الملك ، هؤلاء رءوس العرب ووجوههم ، وهم أشراف يستحيون من الأشراف ، وإنما يكرّم الأشراف ويُعظم حقَّهم الأشرافُ ، وليس كلُّ ما أُرسلوا به قالوه ، ولا كلّ ما تكلمتَ به أجابوك عنه ، فجاوبنى لأكون الذى أبلغك وهم يشهدون على ذلك لى ..

ثم قال : اختر إن شئت : الجزية ، وإن شئت السيف ، أو تُسْلم فتنجى نفسك» .

لم يطق «يزدجرد» الصبر على ما سمع ، فقال وقد أخذ منه الغضب : «لولا أن الرسل لا تُقْتَل لقتلتكم . لا شىء لكم عندى» .

ويتفق المؤرخون جميعاً على رواية ما حدث بين يزدجرد ووفد سعد ، ولا يقع بينهم خلاف إلا فى بعض العبارات التى تبادلها الفريقان .

وفى صحيح البخارى فى قصة النعمان بن مُقَرن فى قتال الفرس ـ أنه كان رسول النعمان إلى امرىء القيس ، وشهد تلك الفتوح .

عمر بن الخطاب فى رأى المغيرة :

ذكر المغيرة عمرَ بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فقال : كان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أفضل من أن يَخدَع ، وأعقل من أن يُخْدَع !

وما رأيت مخاطباً له إلا رحمتُه كائناً من كان!

◄ لماذا ولاه عمر الكوفة ؟

قال له عمر ـ رضى الله عنه ـ ما أدرى كيف أعامل أهل الكوفة ؟ إن أرسلت إليهم مؤمناً ضَعّفُوه[١] .

وإن أرسلت إليهم قوياً فجّروه[٢] .

فقال المغيرة : ياأمير المؤمنين ، الضعيف إيمانه له ، وعليك ضعفُه .

والفاجر قوته لك ، وعليه فجورُه ؛ فولاه الكوفة[٣] .

◄ عمر بن الخطاب يكشف أوراق المغيرة !

◄ قال المدائنى :

قال رجل من قريش لعمر بن الخطاب ـ رضوان الله عليه ـ ألا تتزوج أُمّ كلثوم بنت أبى بكر ، فتحفظه بعد وفاته ، وتخلفه فى أهله ؟!

فقال عمر : بلى . إنى لأحب ذاك ؛ فاذهب إلى عائشة ، فاذكر لها ذلك ، وعُدْ إلىّ بجوابها ، فمضى الرسول إلى عائشة ، فأخبرها بما قال عمر ، فأجابته إلى ذلك ، وقالت له : حُبًّا وكرامة !

ودخل إليها بعقب ذلك «المغيرة بن شعبة» ، فرآها مهمومة ، فقال لها : مالك ياأم المؤمنين ؟

فأخبرته برسالة عمر ، وقالت : إن هذه جارية حَدَثَة[٤] ، وأردت لها ألْينَ عيشاً من عمر .

فقال لها : عَلَىّ أن أكفيك

وخرج من عندها ، فدخل على عمر ، فقال : بالرِّفاء والبنين[٥] . قد بلغنى ما أتيته من صِلة أبى بكر فى أهله ، وخطبتك أم كلثوم .

---

(١) نسبوا إليه الضعف .

(٢) نسبوه إلى الفجور .

(٣) محاضرات الأدباء [١٠١/١] .

(٤) صغيرة السن .

(٥) دعاء بالالتئام والبركة . قال ابن السِّكِّيت : وإن شئت كان معناه بالسكون والهدوء والطمأنينة .

فقال : قد كان ذاك .

قال : إلا أنك ياأمير المؤمنين رجل شديد الخلق على أهلك ، وهذه صبية حديثة السن ، فلا تزال تنكر عليها الشيء ، فتضربها ؛ فتصيح ، ياأبتاه ! فيغمك ذلك ، وتتألم له عائشة ، ويذكرون أبا بكر ، فيبكون عليه ، فتجدد لهم المصيبة به ، مع قرب عهدها فى كل يوم .

فقال له : متى كنت عند عائشة ، واصدقنى ؟! فقال : آنفاً .

فقال عمر : أشهد أنهم كرهونى ، فتضمنت لهم أن تصرفنى عما طلبت ، وقد أعفيتهم . فعاد إلى عائشة ، فأخبرها بالخبر ، وأمسك عمر عن معاودتها[1] .

◄ المغيرة والموالى :

لعب المغيرة بن شعبة دوراً فى تاريخ الموالى بطريق غير مباشر ؛ فقد لقى عمر ابن الخطاب مصرعه على يد «أبى لؤلؤة المجوسى» مولى المغيرة ؛ فقد قتله بخنجر فى ذى الحجة سنة ٢٣ هـ .

وكان مقتل عمر على يد رجلٍ من «الموالى» يبين مدى الاستياء والسخط اللذين استوليا على نفوس هؤلاء الفُرس بعد زوال سلطانهم ، ودخولهم فى حوزة العرب ، كما أدى إلى تغير كبير فى معاملة الموالى ، فقد بدأ ولاة العراق فى التفرقة فى المعاملة بين العرب والموالى حتى إذا كان عصر المختار ، كان الموقف قد أوشك على الانفجار ، واستفاد المختار من سوء أحوال الموالى ، وأصبح محرراً ومنقذاً لهم .

◄ المغيرة ومسرح الأحداث :

ابتعد المغيرة عن مسرح الأحداث فى خلافة «عثمان بن عفان» ، حتى إذا تولى «على بن أبى طالب» ــ رضى الله عنه ــ وبدأ عهده بعزل ولاة عثمان من حكم الأمصار الإسلامية تقدم إليه بنصحه بأن يُبقى «معاوية» والياً على الشام على أن يأخذ البيعة له وإليك مزيداً من التفاصيل :

---

(١) نسب الأستاذ العقاد هذه القصة إلى « عمرو بن العاص » ، ونسبها المدائنى هنا مع اختلاف فى اللفظ إلى «المغيرة بن شعبة» ، وكلاهما داهية ، وإن دلت على شىء فإنما تدل على حدوثها ولنا فيها درس من دروس الدهاء .

◄ على ـ رضى الله عنه ـ يرفض نصيحته !

جاء المغيرة إلى على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ فقال له : اكتب إلى معاوية فوَلِّه الشام ، ومُرْه بأخذ البيعة لك ؛ فإنك إن لم تفعل وأردت عزله حاربك .

فقال على ـ رضى الله عنه ـ: «ما كنت متخذ المضلين عَضُدا»[1] .

فانصرف المغيرة وتركه ! فلما كان من غد جاءه ، فقال : إنى فكرت فيما أشرت به عليك أمس ، فوجدته خطأ ، ووجدت رأيك أصوب .

فقال له على : لم يخفَ علىّ ما أردت ؛ قد نصحتنى فى الأولى ، وغششتنى فى الآخرة ، ولكنى ـ والله ـ لا آتى أمْراً أجد فيه فساداً لدينى ، طلباً لصلاح دُنْيَاى . فانصرف المغيرة .

ويروى ابن حبان فى روضة العقلاء أن «المغيرة بن شعبة» وهو المعروف بدهائه وبعد نظره أشار على علىّ أن يُقِرّ معاوية على الشام تسمح له طاعته .

قال : فإن أهل الشام قد ذاقوه فاستعذبوه ووليهم عشرين سنة ، لم يعتبوا عليه ، ولم يُعْتِبوه[2] فى عِرْض ولا مال .

فقال على : «والله لو سألنى قرية ما وليته إياها» .

قال المغيرة : «أراه سَيَلى أَرَضين وقَرْيات» .

وكان الأمر كما تَوَقّع المغيرة ، وما قدَر علىّ ـ على ثقوب ذهنه ، وكثرة علمه ـ أن يُقَدّر قوة خصمه فاحتقره ، ورأى أن دينَه يمنعه من أن يُقِرّه ، وهو يعتقد فى إقراره الضّرَر له وللجماعة !

وعندما رأى «المغيرة» أن عليًّا ـ رضى الله عنه ـ لم يستمع إلى مشورته ، انصرف غاضباً إلى معاوية ، ثم وقف إلى جانبه خلال التحكيم !

وتلقى من معاوية المكافأة على تأييده له ، فعندما تولى الخلافة معاوية فى سنة ٤٠ هـ ولاه الكوفة .

---

(١) اقتباس من الآية الكريمة ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً ﴾ [سورة الكهف : الآية ٥١] .

(٢) أعتبه : سره بعدما ساءه .

◙ المغيرة بن شعبة والجولة الأخيرة فى الصراع ! ◙

لم يكن قرار الحكمين خافياً على من عرفوا «أبا موسى الأشعرى» و «عمرو ابن العاص» ؛ فإن أبا موسى لم يكتم قط أن السلامة فى اجتناب الفريقين والقعود عن القتال ، فليس أيسر من إقناعه بخلع صاحبه وخلع معاوية على السواء .

ثم يرجع الرأى إلى عمرو بن العاص فى إقرار هذا الخلع ، أو الاحتيال فيه بالحيلة التى ترضيه .

ويقول الأستاذ العقاد فى «عبقرية الإمام» : إلا أن الدهاة من العرب كانوا يتوقعون من «عمرو» أن يحتال لنفسه حتى يفرغ وسعه قبل أن يحتال لصاحبه الذى أنابه عنه .

ومن هؤلاء الدهاة «المغيرة بن شعبة» الذى اعتزل الفريقين من مطلع الفتنة إلى يوم التحكيم ؛ فلما اجتمع الحكمان علم أنها الجولة الأخيرة فى الصراع ، فخرج عن عزلته ، ودنا ليستطلع الأمور على سنة الدّهاة من أمثاله ؛ إذ يتنسمون الريح قبل هبوبها ، ولا يقلقون أنفسهم . بمهبها قبل أوانها ، فَلَقِيَ أبا موسى وعمرو ابن العاص، ثم ذهب إلى معاوية وهو مشغول البال بطول الاجتماع بين الحكمين ، واضطراب الظنون فيما وراء هذا الإبطاء المريب !

فقال له : وهو يرى اشتغال باله : قد أتيتك بخبر الرجلين . قال معاوية : وما خبرهما ؟

قال المغيرة : إنى خلوت بأبى موسى لأبلوَ ما عنده ، فقلت : ما تقول فيمن اعتزل عن هذا وجلس فى بيته كراهية للدماء ؟

فقال : أولئك خيار الناس ، خفّت ظهورهم من دماء إخوانهم ، وبطونهم من أموالهم .

فخرجت من عنده ، وأتيت عمرو بن العاص ، فقلت : ياأبا عبد الله ، ما تقول فيمن اعتزل هذه الحروب ؟ فقال : أولئك شرار الناس ؛ لم يعرفوا حقاً ، ولم ينكروا باطلاً .

ثم عقب المغيرة قائلاً، أنا أحسب أبا موسى خالعاً صاحبه، وجاعلها لرجل لم يشهد ، وأحسب هواه فى عبد الله بن عمر بن الخطاب .

وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذى عرفته ، وأحسبه سيطلبها لنفسه ، أو لابنه عبد الله ، ولا أراه يظن أنك أحق بهذا الأمر منه .

وقد أحسن المغيرة حَزْرَهُ نقل الحرف بالحرف فى تقدير نية الرجلين ؛ فإنهما ما اجتمعا هنيهة حتى أقبل أبو موسى على عمرو يقول له :

ياعمرو ، هل لك فيما فيه صلاح الأمة ورضا الله ؟! قال : وما هو ؟ قال : نولى عبد الله بن عمر ؛ فإنه لم يُدخل نفسه فى شيء من هذه الحروب .

فراغ عمرو قليلاً يحاول أن يلقى فى روع صاحبه أنه يريد معاوية ، ثم عاد يسأله : فما يمنعك من ابنى عبد الله مع فضله وصلاحه وقديم هجرته وصحبته ؟ فأوشك أبو موسى أن يجيبه لولا أنه قال :

إن ابنك رجل صدق ، ولكنك غمسته فى هذه الحرب غمساً !!

وتكرر هذا القول وأشباهه فى كل لقاء حتى وقر فى خلد الأشعرى أن خلع الزعيمين أمر لا مناص منه ولا اتفاق بينهما على غيره، فتواعدا إلى اليوم الذى يعلن فيه هذا القرار!

وتقدم أبو موسى آنئذ فقال بعد تمهيد : «أيها الناس إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ، ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيى ورأى عمرو عليه ، وهو أن «نخلع عليًّا ومعاوية» ونستقبل الأمة بهذا الأمر ، فيولوا منهم من أحبوا عليهم ، وإنى قد خلعت عليًّا ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم وولوا من رأيتموه لهذا الأمر أهلا» .

وتلاه عمرو فقال بعد تمهيد : «... إن هذا قال ما سمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبى معاوية ، فإنه ولى عثمان بن عفان ــ رضى الله عنه ــ والطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه» .

وهكذا كانت المأساة ، فلم يفض اجتماع الحكمين إلى اتفاق وعاد الخلاف إلى ما كان عليه بل استشرى واحتدم بما زاد عليه من فتنة الخوارج .

▣ معاوية يستعين بالمغيرة على زياد ! ▣

كان زياد عاملاً لعلى بن أبى طالب على فارس ، فلما مات على ، وبايع الحسن معاوية «عام الجماعة» بقى زياد بفارس، وقد ملكها وضبط قِلاعها، فاغْتَمَّ به «معاوية» ، فأرسل إلى «المغيرة بن شعبة» فلما دخل قال : «لكل نبأ مُسْتَقَرّ ، ولكل سِرٍّ مُسْتَوْدع ، وأنت موضع سرى وغاية ثقتى !» .

فقال المغيرة : ياأمير المؤمنين ، إن تستودعنى سرَّك تستودعه ناصحاً شفيقاً وَرِعاً صَدِيقاً . فماذاك ياأميرَ المؤمنين ؟! قال : ذكرتُ زياداً واعتصامَه بأرض فارس، ومقامه بها وهو «داهية العرب» ، ومعه الأموال، وقد تَحَصّنَ بأرض فارس وقِلاعها ، يدبّر الأمورَ ، فما يؤمننى أن يبايعَ لرجل من أهل هذا البيت فإذا هو قد أعادها جذعة[1] !

قال له المغيرة : أتأذن لى فى إتيانه ؟

قال : نعم .

فلما دخل عليه ، وجده وهو قاعد فى بيتٍ له مُسْتَقْبِلَ الشمس ، فقام إليه «زياد» ، وسُرّ بقدومه ، وكان له صديقاً ، فلما تفاوضا فى الحديث ، قال له «المغيرة» :

أعلمت أن «معاوية» استخفّه الوجل[2] حتى بعثنى إليه ، ولا نعلم أحداً يمدّ يده إلى هذا الأمر غير الحسن ، وقد بايع «معاوية» ، فخذ لنفسك قبل التوطين ، فيستغنىَ عنك معاوية قال : أشِر علىّ ، وارم الغرض الأقصى ؛ فإن المستشار مؤتمن .

قال : أرى أن تصل حبلك بحبله ، وتسير إليه ، وتعير الناس أذناً صماء ، وعيناً عمياء .

قال : يابن شعبة : لقد قلت قولاً لا يكون غرسه فى غير منبته ، لا أصل له

---

(١) الجذعة : الشابة الحدثة . والمراد : يشعلها من جديد قوية عنيفة .

(٢) استخفه الوجل : خفّت حالُه منه . والوجَل : الفزع والخوف .

يغذيه ، ولا ماء يسقيه ، كما قال زهير :

وهل يُنْبِتُ الخَطِّيَّ[1] إلا وشيجُه وتُغْرس إلا فى منابتها النخل

ثم قال : أرى ، ويقضى الله .

◄ المغيرة وأحلام الخوارج :

لم تتحقق أحلام الخوارج حين شمر «المغيرة» عن ساعد الجد للتنكيل بهم ، واستئصال شأفتهم بما عرف عنه من الدهاء والمكر ، ولا غرو فهو رابع أربعة عرفوا بالدهاء ، وهو الذى قيل فيه :

لو كان الدهاء له ثمانية أبواب استطاع المغيرة أن يخرج منها كلها !

ويقول المؤرخون : إنه عندما سار الخوارج إلى الكوفة ودخلوها كان من حسن حظهم أن كان عليها المغيرة بن شعبة، فقد كان حسن السيرة يكره إراقة الدماء ، ولم يتدخل فى شئون الخوارج الذين اجتمعوا فى ذلك الوقت فى دار «حيان بن ظبيان السلمى» الذى آلت إليه زعامة الخوارج ؛ حيث ولوا أمرهم المستورد بن عَلفة التيمى، واتفقوا أن يكون خروجهم للثأر فى غرة شعبان سنة ٤٣ هـ[2] .

فلما علم المغيرة بأمرهم شدد فى طلبهم ، وعول على القضاء عليهم قبل أن يشتد خطرهم ، فقبض على جماعة منهم من بينهم حيان بن ظبيان ، ومعاذ بن جوين الطائى ، وأودعهم السجن[3] . وضيق على إخوانهم حتى غادروا الكوفة ، وأخذوا ينتقلون فى البلاد لا يَلْوُون على شىء .

ثم ساروا إلى «الصّراة» (قرب بغداد) ، ومنها إلى «بَهُرَسِير»[4] . ولما علم المغيرة بمسيرهم جمع لقتالهم جيشاً من الشيعة يربو على الثلاثة آلاف ، وأمر عليه «معقل بن قيس الرياحى»[5] من كبار الشيعة ، فأدرك الخوارج بالمذار[6] وتابعهم

---

(١) الخطّىّ : الرمح . ينسب إلى الخَطّ . بلد تقوّم به الرماح ببلاد البحرين .
والوشيج : ما نبت من القنا والقصَب ملتفًا .

(٢) الطبرى [جـ ٦ ص ١٠٠] .

(٣) الطبرى : [جـ ٦ ص ١٠٤] .

(٤) بفتح الباء وضم الهاء وكسر السين من نواحى سواد بغداد قرب المدائن .

(٥) الطبرى [جـ ٦ ص ١٠٨ ـ ١١٨] .

(٦) بين واسط والبصرة .

على مقربة من «ساباط» حيث قتلهم عن آخرهم .

◄ موقفه من الشيعة :

خمدت روح التشيع فى نفوس أهل الكوفة ، وانضووا تحت لواء «معاوية» الذى أصبح صاحب السلطان على إثر نزول الحسن له عن الخلافة ، ومغادرته الكوفة إلى المدينة لكن سياسة السب على المنابر أثارت «حجر بن عدى» الذى ظل على سياسته العدوانية ضد سلطان بنى أمية حتى مات المغيرة ، فأسندت ولاية الكوفة إلى «زياد» فكان له مع حجر شأن آخر .

سياسة المغيرة فى حكم الكوفة

لم يرض معاوية عن سياسة المغيرة فى حكم «الكوفة» وخاصة أنه تساهل مع الثائرين من أحزاب «الشيعة» و «الخوارج» ؛ فقد كان المغيرة ـ كما ذكرت من قبل ـ يميل إلى السلام والموادعة !

وأراد «معاوية» أن يعزله عن حكم الكوفة ! وحاول المغيرة أن يثنى معاوية عن غرضه ، فراح يفكر كيف يحتفظ بولاية الكوفة !!

وكان للداهيتين لقاء !!

تُرى أى الداهيتين كان له الغلبة ؟!

وهل كانت الصفقة متكافئة ؟!

المهم أن دهاء المغيرة أعفاه من العزل ، فكيف كان ذلك ؟!

دهاء المغيرة يُعفيه من العزل عندما كبرت سنه !

كتب المغيرة بن شعبة إلى معاوية حين كبر وخاف العزل :

أما بعد ؛ فإنه قد كبرت سنى ، ورق عظمى ، واقترب أجلى ، وسفّهنى سفهاء قريش ، فرأىُ أميرِ المؤمنين فى عمله مُوَفّق .

فكتب إليه معاوية : أمّا ما ذكرت من كبر سنك فإنك أكَلَتْ سنَّك عمُرك .

وأما ما ذكرت من اقتراب أجلك ؛ فإنى لو كنت أستطيع أن أدفع المنية لدفعتها عن آل أبى سفيان .

وأمّا ما ذكرت من سفهاء قريش ، فإن حلماء قريش أنزلوك هذا المنزل .

وأما ما ذكرت من العمل فضحّ رويداً[1] يدرك الهيجا حمل[2] .

فاستأذن معاوية فى القدوم ، فأذن له ، قال الربيع بن هذيم : فخرج المغيرة ، وخرجنا معه إلى معاوية ، فقال له :

يامغيرة ، كبرت سنُّك ، واقترب أجلُك ، ولم يبق منك شيء ، ولا أظننى إلا مستبدلًا بك .

قال : فانصرف إلينا ونحن نعرف الكآبة فيه !

فقلنا : ما تريد أن تصنع ؟

قال : ستعلمون ذلك .

فأتى معاوية ، فقال :ياأمير المؤمنين ، إن الأنفسَ يُغْدى عليها ويُراح ، ولست فى زمن أبى بكر ولا عمر ، وقد اجترح الناس ، فلو نصبت لنا عَلَماً من بعدك نصير إليه ، مع أنى كنت قد دعوت أهل العراق إلى «يزيد» فركبوا إليه ، حتى جاءنى كتابك . قال : ياأبا محمد ، انصرف إلى عملك فأَحْكِم هذا الأمر لابن أخيك .

قال : فأقبلنا على البريد نركض ، فقال :

ياربيع ، وضعت ــ واللهِ ــ رجله فى ركاب طويل الغىّ على أمة محمد .

قال : فذاك الذى دعا معاوية إلى البيعة ليزيد[3] .

---

(١) أراد : ارفق بنفسك ؛ وأصل المثل : أن العرب كانوا يسيرون فى سفرهم ، فإذا مروا ببقعة فيها كلأ قالوا : ضحّوا رويداً ، أى ارفقوا بالأبل حتى تتضحّى . أى تتغذى . اللسان .

(٢) هذا مثل . والمراد بحمل : حمل بن بدر ، وفى تاج العروس والعقد الفريد :

لبث قليلاً يدرك الهيجاحمل ما أحسن الموت إذا حان الأجل

(٣) العقد الفريد : [٩٨/١] .

وهكذا كان المغيرة صاحب فكرة تحويل الخلافة من نظام الشورى إلى نظام الوراثة ، ذلك النظام الذى لقى معارضة شديدة من المسلمين فى تلك الفتره !، ربما لأن «معاوية» كان قد تعهد للحسن بن على أن يتولى الخلافة بعده ، وكانت تولية يزيد الخلافة بعد معاوية بطريق الوراثة سبباً فى وقوع الأحداث السياسية العديدة بعد .

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر ، فقد التقى الدهاة الثلاثة : معاوية ،وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وقد تواطأ الأخيران على أمرٍ يريدان شرًّا ، بينما كان معاوية يفكر فى عزلهما !

وإنه لمن الممتع أن نعرض علىَ القارىء الكريم صورة من صور الدهاء على أعلى مستوى ليرى ماذا يفعل الدهاء !!

◄ قصة ثلاثية :

كتب معاوية إلى «عمرو بن العاص» ، و «المغيرة بن شعبة» أن يَقْدما عليه ، فقدِم عمرو من مصر ، والمغيرة من الكوفة ، فقال عمرو للمغيرة : ما جمعنا إلا ليعزلَنا ، فإذا دخلتَ عليه ، فاَشْكُ الضعف ، واستأذنْه أن تأتى «الطائف» أو «المدينة» ؛ فإنى إذا دخلتُ عليه سألته ذلك ؛ فإنه يظن أنّا نريد أن نُفْسِدَ عليه .

فدخل المغيرة ، فسأل أن يُعْفيَه ويأذنَ له .

ودخل عليه عمرو ، فسأله مثل ذلك !

فقال له معاوية : قد تواطأتما على أمر ، وإنكما لتريدان شراً !!

ارجعا إلى عمليكما .

المغيرة يخرج من مأزق !

استعمل عُمَرُ المغيرة بن شعبة على البحرين ثم عزله ، فقال دهقان[1] القرية لأهلها ـ وكان مُطَاعاً فيهم :

اجمعوا لى مائة ألف درهم آتى بها عمرَ ففعلوا ، فقال عمر : ما هذا ؟

قال : هذا أودعَناه المغيرة .

فقال عمر للمغيرة : ما هذا ؟ قال : إنها مائتا ألف درهم .

فقال للدِّهقان : قد تسمع .

فقال : والله ماأودعَنا شيئاً ، إلا أننا خِفْنا أن تردَّه إلينا !

فقال عُمَرُ للمغيرة : مادعاك إلى ماقلت ؟

قال : أحببت أن أُخْزِيَه إذْ كذب على !

◄ من حيل المغيرة !

خرج المغيرة بن شعبة مع النبى ـ ﷺ ـ فى بعض غزواته ، وكانت له عَنَزَة[2] يتوكأ عليها ، فربما أثقلته ؛ فيرمى بها على قارعة الطريق ، فيمر بها المارّ فيأخذها ، فإذا صاروا إلى المنزل عرّفها ، فأخذها المغيرة .

ففطن له علىٌّ ـ رضى الله عنه ـ فقال : لأخبرنّ النبى ـ ﷺ ـ ؛ فقال : لئن أخبرته لا تَرَدّ ضالّة بعدها .. فأمسك .

---

(١) الدهقان : رئيس الإقليم . فارس معرب .

(٢) العَنَزَة : بفتح العين والنون رُميح بين العصا والرمح . القاموس .

أول من رشا فى الإسلام !

◄ قال البغوى :

حدثنى حمزة بن مالك الأسلمى ، حدثنى عمى شيبان بن حمزة ، عن دويد ، عن المطلب بن حنطب قال : قال المغيرة : «أنا أول من رشا فى الإسلام !، جئت إلى «يرفأ» حاجب عمر ، وكنت أجالسه ، فقلت : خذ هذه العمامة فالبسها ، فإن عندى أختها ، فكان يأنس بى ، ويأذن لى أن أجلس من داخل الباب ، فكنت آتى فأجلس فى القائلة ، فيمر المارّ فيقول : إن للمغيرة عند عمر منزلة ، إنه لَيَدْخل عليه فى ساعة لا يدخل فيها أحد[1] !

◄ أبو عيسى :

وذهب البغوى من طريق زيد بن أسلم ـ أن المغيرة استأذن على عمر ، فقال : أبو عيسى .

قال : من أبو عيسى ؟! قال : المغيرة بن شعبة . قال : فهل لعيسى من أبٍ ؟

فشهد له بعض الصحابة أن النبى ـ ﷺ ـ كان يكنيه بها ، فقال : إن النبى ـ ﷺ ـ غُفِرَ له ؛ وإنا لا ندرى ما يفعل بنا ، وكنّاه أبا عبد الله .

◄ أول من خضب بالسواد !

أول من خضب بالسواد المغيرة بن شعبة . خرج على الناس ، وكان عهدهم به أبيض الشعر ، فعجب الناس منه !

جماله :

يقول أبو الفرج الأصفهانى :

كان الجمال بالكوفة ينتهى إلى أربعة نفر :

١ ـ المغيرة بن شعبة .

---

(١) وهى ساعة القيلولة حيث يستريح كل من شدة الحر .

٢ – وجرير بن عبد الله .
٣ – والأشعث بن قيس[١] .
٤ – وحُجر بن عدى[٢] .
وكلهم كان أعور .

◄ الغلام الذى خدع المغيرة بن شعبة !

قال المغيرة بن شعبة : ما خدعنى غير غلام من بنى الحارث بن كعب ؛ فإنى ذكرتُ امرأة منهم فقال : أيها الأمير ، لا خير لك فيها .

قلت : ولِمَ ؟ قال : رأيت رجلاً يقَبّلها ! فأضربت عنها، فتزوجها الفتى !

فأرسلت إليه : أَلَمْ تُعْلِمْنى كذا وكذا من أمرها ؟! قال : بلى . رأيت أباها يُقبلها[٣] .

المغيرة وزوجته فارعة !

دخل المغيرة بن شعبة عَلى زوجته «فارعة» فوجدها تتخلل حين انفلتت من صلاة الغداة !

فقال لها : إن كنت تتخللين من طعام البارحة فإنك قذرة ! وإن كان من طعام اليوم فإنك لَنَهمة .. كنت فبنت ! قالت : والله ما فرحنا إذ كُنّا ، ولا أسفنا إذْ بنّا ، وما هو بشيء مما ظننت !

ولكنى اسْتَكْت فأردت أن أتَخَلّل بسواك !

فندم المغيرة على ما بدر منه ، فخرج أسفاً ، فلقى يوسف بن أبى عقيل ؛ فقال له : هل لك إلى شيء أدعوك إليك ؟!

قال : وما ذاك ؟

---

(١) الأشعث بن قيس أمير كِندة فى الجاهلية والإسلام .
(٢) حجر بن عدى صحابى شهد القادسية ، ثم كان من أصحاب على وشهد معه وقعتى الجمل وصفين . حذره زياد بن أبى سفيان من الخروج على بنى أمية فناوأهم سرًا فجيء به إلى دمشق فأمر معاوية بقتله فى مرج عذراء مع أصحاب له [الأعلام : ج ٢ ص ١٦٩] .
(٣) عيون الأخبار : [٢/٢٠٠] ، ومحاضرات الأدباء : [٢/١٢٠] .

قال : إنى نزلت الساعة عن سيدة نساء ثقيف ، فتزوجْها ؛ فإنها تنجب لك ! فتزوجها فولدت له الحجاج بن يوسف .

◄ المغيرة والنساء !

لله درك يا ابنة النعمان !

ركب المغيرة بن شعبة إلى هند بنت النعمان بن المنذر وهى بدير هند[1]، متنصرة عمياء بنت تسعين سنة ! فقالت له :

من أنت ؟

قال : أنا المغيرة بن شعبة .

قالت : أنت عامل هذه المدَرة ؟ (تعنى : الكوفة) .

قال : نعم . قالت : فما حاجتك ؟

قال : جئتك خاطباً إليك نفسك .

قالت : أما والله لو كنت جئت تبغى جمالاً ، أو ديناً ، أو حَسَباً لزوجناك ! ولكنك أردت أن تجلس فى مَوْسم من مواسم العرب فتقول : تزوجت بنت النعمان بن المنذر ، وهذا أمر لن يكون أبداً ! أو ما يكفيك فخرا أن تكون فى ملك النعمان وبلاده تديرهما كما تريد ؟! وبكت !!. فخرج من عندها يخفى حنين بعد أن أدركَتْ ما منى نفسه به !!

◄ المغيرة مزواجـاً :

ويقول محمد بن سلام الجمحى :

أحصن المغيرة بن شعبة إلى أن مات ثمانين امرأة ، فيهن ثلاث بنات لأبى سفيان ابن حرب ، وفيهن حفصة بنت سعد بن أبى وقاص ، وهى أم ابنه حمزة بن المغيرة ، وعائشة بنت جرير بن عبد الله .

---

(١) هو دير بنته هند وفاء بعهد أخذته على نفسها إن أفرج كسرى عن أبيها بعد حبسه أن تبنيه وتسكنه حتى تموت .

◄ المغيرة مطلاقاً !

وقال أبو اليقظان :

كان المغيرة مطلاقاً ، فكان إذا اجتمع عنده أربع نسوة قال : إنكن لطويلات الأعناق ، كريمات الأخلاق ، ولكنى رجل مطلاق ، فَاعْتَدِدْن .

◄ الرجال والنساء فى رأيه :

وكان يقول : النساء أربع ، والرجال أربعة : رجل مذكر وامرأة مؤنثة فهو قوّام عليها . ورجل مؤنث ، وامرأة مذكرة فهى قوّامة عليه . ورجل مذكر وامرأة مذكرة فهما كالوَعِلين ينتطحان . ورجل مؤنث وامرأة مؤنثة فهما لا يأتيان بخير ، ولا يفلحان .

◄ إرضاء النساء :

قال : ملكت النساء على ثلاث طبقات : كنت أرضيهن فى شبيبتى بالباه[1] . فلما شبت أرضيتهن بالمداعبة والمفاكهة . فلما كبرت أرضيتهن بالمال[2] .

◄ أثر المعرفة !

قيل له : إن بوابك يأذن لأصحابه قبل أصحابك .

فقال : إن المعرفة لتنفع عند الكلب العقور ! ، والجمل الصئول ، فكيف بالرجل الكريم[3] ؟!

◄ مَنِ السِّفْلة فى رأيه ؟

قال : السّفلة من لا يبالى ما قال ، ولا ما قيل له !، ولا ما فعل ، ولا ما فعل به !

---

(١) الباه : الجماع .

(٢) فى المحاسن والأضداد/١٦٨ : حصنت تسعين امرأة ، ما أمسكت واحدة منهن على حب ، فكنت أرضيهن بالباه شاباً ، فلما شبت وضعفت استرضيتهن بالعطية .

(٣) فى المحاسن والمساوىء [١ : ٢٦٣] أن القول لزياد . وسنبه صاحب نثر الدر للمغيرة .

◄ التعجب ظاهرة صحية :

وكان يقول : لايزال الناس بخير ما تعجبوا من العجب !

◄ صورة خِلْقيّة للمغيرة :

قال محمد بن سعد : كان المغيرة أصهب[1] الشعر جداً . أكشف[2] .

يفرق رأسه قروناً أربعة . أقلص الشفتين مهتوماً[3] . ضخم الهامة ، عبل الذراعين[4] ، بعيد ما بين المنكبين . أعور .

(١) أصهب : فى شعره حمرة أو شقرة .

(٢) الأكشف : الذى يضحك حتى تنقلب شفتاه وتبدو مغارس أسنانه .

(٣) تنكسر ثناياه من أصولها .

(٤) ضخم الذراعين غليظهما .

◘ والفضل ما شهدت به الأعداء ! ◘

مصقلة بن هبيرة من بكر بن وائل قائد من الولاة ، كان من رجال على بن أبى طالب ، وتحول إلى معاوية بن أبى سفيان فكان معه فى صفين ، ولّاه معاوية طبرستان فتوغل فيها وأهمل «خط الرجعة» فقتل وهو عائد .

كان بينه وبين المغيرة تنازع ، فضرع له المغيرة ، وتواضع فى كلامه ، حتى طمع فيه مصقلة ، واستعلى عليه فشتمه ، فقدمه المغيرة إلى شريح وهو القاضى يومئذ ، فأقام عليه البينة ، فضربه الحدّ ، فآلى مصقلة ألا يقيم ببلدة فيها «المغيرة ابن شعبة» ما دام حيًّا !

وخرج إلى بنى شيبان فنزل فيهم إلى أن مات المغيرة ، ثم دخل الكوفة ، فتلقاه قومه ، وسلموا عليه ، فلما فرغ من التسليم سألهم عن مقابر ثقيف ، فأرشدوه إليها ، فجعل قوم من مواليه يلتقطون له الحجارة ، فقال : ما هذا ؟

قالوا : ظننا أنك تريد أن ترجم قبره !

فقال : ألقوا ما فى أيديكم ، فألقوه ، وانطلق حتى وقف على قبره ثم قال : والله لقد كنت نافعاً لصديقك ، ضارًّا لعدوك ، وما مثلك إلا كما قال مهلهل فى أخيه كليب :

إن تحت الأحجار حزماً وعزماً وخصيماً ألدّ ذا مِغلاق[1]
حية فى الوِجار أربدُ لا ينـ ـفع منه السليمَ نفثُ الراقى

ويروى الشعبى أن مصقلة قال له : والله إنى لأعرف شبهى فى عروة ابنك فأشهد عليه بذلك ، وجلده الحد .

---

(١) الرجل المغلاق : شديد الخصومة ، والمغلاق : اللسان البليغ .

زياد بن أبيه للصغير والكبير

«لله درُّ هذا الغلام !! لو كان
قرشياً لساق الناس بعصاه ! »

[عمر بن الخطاب]

◘ زياد بن أبيه فى سطور ◘

(٠٠٠ ـ ٥٣ هـ = ٠٠٠ ـ ٦٧٣ م)

زياد بن أبيه : رابع الدهاة ... وهو أحد الأمراء الولاة والقادة الفاتحين من أهل الطائف !

واختلفوا فى اسم أبيه فقيل : عبيد الثقفى .

وقيل : أبو سفيان .

ولدته أمه «سميّة» جارية الحارث بن كلدة الثقفى فى الطائف. وتبناه عبيد الثقفى «مولى الحارث بن كلدة» . قيل : إنه ولد فى السنة الأولى للهجرة ، وأسلم فى عهد أبى بكر .

فلما شب استكتبه «أبو موسى الأشعرى» أيام إمرته على البصرة كما أن عمرَ ـ رضى الله عنه ـ كان يعهد إليه بكثير من المهمات ، وما لبث أن استثار إعجاب الناس بفصاحته ، وحسن درايته ، حتى قيل : إن «عمرَو بنَ العاص» لما شاهده قال :

لِلَّهِ دَرُّ هذا الغلام ، لو كان قرشيًّا لساق الناسَ بعصاه» .

وقد كان أبو سفيان حاضراً فقال : إنى أعرف أباه !

فقال عمرو : من ؟ قال : أنا هو !!

وظل أمر إلحاق نسبه بأبى سفيان فكرة تراود الأذهان حتى آل الأمر إلى معاوية فكان من أمرهما ما كان !!

وذلك أن «معاوية» كان يحاول أبداً ، أن يجمع الأمويين على مبايعة ابنه يزيد بولاية العهد ، وكان هؤلاء يلتمسون شتى الأعذار ليتنصلوا من هذه المبايعة ، فعمد معاوية ـ فى دهائه ـ إلى استلحاق زياد بنسبة ، بعد أن أقام على ذلك اثنين من الشهود ، وما عتم أن استدعى الأمويين ، وأعلن لهم أنه قرر أن يكتب ولاية العهد لزياد ، فصعق هؤلاء وقالوا : «ألف يزيد ولا زياد» !!

وهكذا تمت البيعة لابنه ، إلا أن الخليفة فى الواقع لم يستلحق زياداً بنسبه لهذه الغاية ، وإنما أراد أن يُفيدَ من حنكته ، وحسن درايته للأمور !

وقد عينه والياً على «البصرة» فضلاً عن خُراسان وسِجستان .

وقد كانت «البصرة» عندما وفد إليها مسرفة بالفسوق والفساد ، كما أن الدعوات المناوئة للأمويين كانت مستفحلة بها ؛ فعمد إلى القسوة والرهبة ، فاستقام أمرها حتى قيل : «إن الشئ كان يسقط من يد الرجل أو المرأة ، فما تُمَد إليه يد ، حتى يعود صاحبه ، فيجده فى مكانه فيأخذه» .

وأسندت إليه ولاية الكوفة أيضاً فجُمع له المِصران : الكوفة والبصرة ! ولم تكن الكوفة والبصرة وحدهما هما التابعتين لزياد ، وإنما امتد حكمه إلى نصف الإمبراطورية الشرقى برمته ، هذا النصف الذى تم فتحه من البصرة .

على حين تركز اهتمام معاوية فى الغرب .

وإذا قورن «زياد» رابع الدهاة بالمغيرة ثالثهم رجَحَه «المغيرة» ، فالمغيرة حقق الهدف الذى حققه «زياد» بضحايا أقل ، وذلك مقياس عظمة الرجال !

على أن النظام الذى اتبعهُ زياد كان فى رأى بعض المؤرخين أشبه بالأحكام العرفية فى زماننا تلك التى تلجأ إليها بعض الدول فى الظروف الخاصة ويُمَدّ العمل بها إلى أجل غير مسمى !، ومن أجل هذا يصفونه بالداهية الطاغية !، فقد وضع للعامّة طريقين : الطاعة والسيف . وعلى كل فسوف يظل زياد مرتبطاً بإخضاع العِراقَيْن :

فقد كان والياً لعلِيٍّ علَى فارس ، ثم تولّى لمعاوية على البصرة من سنة ٤٥ هـ ، ثم عليها وعلى الكوفة سنة ٥١ هـ بعد المغيرة بن شعبة .

ولم يزل زياد فى ولايته إلى أن توفى سنة ٥٣ هـ .

◘ كلمات زياد ونظراته الصائبة فى الناس والحياة ◘

يقول البلاغيون : الرجل هو الكلمة ، وقد حفلت كتب التاريخ والأدب بكلمات زياد ، وسوف أسوقها إلى القارىء الكريم ليحكم له أو عليه .

ويقينى أن الكثيرين سوف يستفيدون فى مجال عملهم من سياسته فى الحكم ، فيُعيدون ترتيبَ أوراقهم ، وتعديلَ أساليبهم ، فليس منا إلا مَنْ هو راعٍ ومسئول عن رعيته .

وسوف يرى الكثيرون أن الإدارة فنّ له أصول وقواعد بدونها ينهار البناء ، ويذهب مع الريح !

◄ الثواب والعقاب بين التأجيل والتعجيل :

يقول زياد : «إن تأخيرَ جزاءِ المحسن لُؤم ، وتعجيلَ عقوبة المسيء دناءة» .

«والتَّثبُّت فى العقوبة رُبَّما أدّى إلى سلامة منها» .

«وتأخير الإحسان ربما أدى إلى ندمٍ يُمْكن صاحبه أن يتلافاه[1] !» .

◄ قيمة الكلمة :

وكان زياد يزن الكلمة بميزان دقيق ، ومن أجل هذا راح يُحَذّر من إطلاق العِنان للسان فيقول على المنبر : «إن الرجلَ لَيَتَكَلّم بالكلمة ، لا يقطع بها ذَنَبَ عنز مَصُور[2] لو بلغت إمامَه سفكت دَمَه» .

◄ رسائلنا وكتبنا مرآة عقولنا :

وكان زياد لمَّاحاً ذكياً يقرأ ما بين السطور ، ويتعرف على الشخصية من خلال الكلمات فهو يقول : «ما قرأت كتابَ رجل قط إلا عرفتُ عقله فيه» .

◄ معرفة أقدار الناس :

وكان زياد يعرف للناس أقدارَهم ، ولا يسمح أن يستخفّ أحد بمن هو أهل

---

(١) نثر الدر للآبى المتوفى سنة ٤٢١ هـ . وقد أفرد فصلاً لكلامه .

(٢) مصور : بطيئة خروج اللبن .

التقدير والاحترام ، فيقول : «استوصوا بثلاثة منكم خيراً : الشريف ، والعالم ، والشيخ !» .

«فوالله لا يأتينى شريف بوضيع يستخف به إلا انتقمت منه . ولا يأتينى شيخ بشاب استخفّ به إلا أوجعته ، ولا يأتينى عالم بجاهل استخف به إلا نكّلت به !» .

فهل يجد هؤلاء الثلاثة فى عصرنا من يرعاهم ويغار على حرماتهم ، وينتصف لهم ؟!

◄ الحظ عند زياد !

قيل لزياد : ما الحظ ؟

قال : من طال عمره ، ورأى فى عدوه ما يسره ، فهو ذو حظ .

◄ سياسة العامة عند كل من معاوية والمغيرة وزياد :

وكان يقول :

«هما طريقان للعامة : الطاعة ، والسيف» .

أما معاوية : فكان لا يضع سيفه حيث يكفيه لسانه .

وكان «المغيرة بن شعبة» لا يلجأ إلى السيف إلا بعد استنفاد كل الوسائل الممكنة لحمل الرعية على الطاعة فيقول :

«لا والله حتى يُحْمَلوا على سبعين طريقاً قبل السيف» .

◄ مدى شِدّته !

قال بعضهم : ما رأيت زياداً كاسراً إحدى عينيه ، واضعاً إحدى رجليه على الأخرى ، يخاطب رَجُلاً ـ إلا رحمتُ المخاطب[1] !

◄ الإمارة فى رأيه :

وكان زياد يرى الإمارة أجمل شيء لولا ما كان يتهدد الأمير من : وصول البريد بين لحظة وأخرى بعزله !.

(١) وقيلت أيضاً فى معاوية كما سبق .

ولولا ارتقاء المنابر ، ومواجهة الجموع ، وما يستدعيه ذلك من قدرة بيانية مؤثرة فيقول :

«نعم الشيء الإمارة ، لولا قعقعة البريد ، وتشرّف المِنْبَر !!» .

◄ أهمية البصرة فى نظره !

وتذاكروا عند زياد : البصرة والكوفة ، فقال زياد : لو ضلت البصرة جَعَلْت الكوفة لمن دلنى عليها !

◄ الزمان ... والسلطان !

سمع زياد رجلاً يسب الزمان : فقال : لو كان يدرى ما الزمان لقطعت عنقه ! إن الزمان هو السلطان !

◄ الأربعة الذين لا يُحجَبُون (أصحاب القضايا العاجلة) :

قال زياد لحاجبه :

ياعجلان . إنى وليتك هذا الباب ، وعزلتك عن أربعة :

عزلتك عن : هذا المنادى إذا دعا للصلاة ، فلا سبيل لك عليه .

وعن : طارق الليل ، فَشَرٌّ ما جاء به ، ولو جاء بخير ما كنت من حاجبه .

وعن : رسول صاحب الثغر ؛ فإن إبطاء ساعة يفسد تدبير سنة !، فأدخلْه عَلَىّ وإن كنت فى لحافى .

وعن : هذا الطباخ إذا فرغ من طعامه ، فإنه إذا أعيد عليه التسخين فسد .

◄ ماذا يعجبه من الرجل ؟

وكان يقول : يعجبنى من الرجل إذا سِيمَ خُطة[1] الضَّيم أن يقول : «لا» بمِلْءِ فيه .

وإذا أتى نادىَ قوم علم أنه ينبغى لمثله أن يجلس فجلس . وإذا ركب دابةً حملها على ما يحب ، ولم يتبعها إلى ما يكره .

---

(١) أرغم على قبول الذل .

◄ نظرته إلى البخيل والجواد :

كان يقول : كفى بالبخيل عاراً أن اسمه لم يقع فى حمدٍ قط . وكفى بالجواد مجداً أن اسمه لم يقع فى ذم قط .

◄ أساس الحكم عند زياد :

وقال زياد : مِلاكُ السلطان : الشدة على المريب ، واللِّين للمحسن ، والوفاء بالعهد ، وصدق الحديث .

◄ موقفه مما له ، وما ليس له :

ويقول زياد : ما أتيت قطّ مجلساً إلا تركت ما لو أخذته لكان لى . وترك ما لى أحب إلىّ من أخذ ما ليس لى .

◄ موقفه من الجاهل :

وقال زياد : لا يغُرنك من الجاهل كثرة الالتفات ، وسرعة الجواب .

◄ من توجيهاته :

سمع رجلاً يدعو عليه وهو يقول : اللّهم اعزل عنّا زياداً !!

فقال له : قل : وأبدلنا به خيراً منه !

◄ من وصيته لابنه :

قال لابنه عبيد الله عند موته : لا تدنس عِرضك . ولا تبذلن وجهك .

ولا تُخْلِقَنَّ جِدّتك[1] بالطلب إلى من إن ردك كان ردّه عليك ، وإن قضى حاجتك جعلها عليك منًّا .

فاحتمل الفقر بالتَّنَزُّه عما فى يد غيرك ، والزم القناعة بما قسم لك ، فإن سوء حمل الفقر يضع الشريف ، ويخمل الذكر ، ويوجب الحرمان !

---

(١) أخلق جِدّته : أبلاها ، وأراق ماء وجهه .

◄ من شابه أباه فما ظلم :

دخل سَلْم بن زياد[1] على الحجاج فى أموال قبضها عنه ، فقال له : من أنت ؟ قال : سَلم . قال : ابنُ مَنْ ؟ قال : ابن زياد . قال : ابن مَنْ ؟

قال : ابن من شاء الأمير ! فرد عليه أرضه !

زياد وشعبة بن المَخَشّ :

كان شعبة بن المخَشّ[2] مع زياد ، وكان أكولا دميماً ، فقال له زياد : ياشعبةُ مالك من الولد ؟ قال : تسع بنات . قال : أين جَمالُهن من جَمالك ؟ قال : أنا أجمل منهن ، وهُنّ آكل منى ! قال : ما أحسن ما سألت لهن ! وألحق بناته فى العيال .

▣ زياد القاضى ▣

قدم شُرَيْح القاضى مع زياد من الكوفة لقضاء البصرة ، فكان زياد يجلس فى جنبه ويقول له : إن حكمتُ بشىء ترى غيره أقربَ إلى الحق منه فأعلمنيه . فكان زياد يحكم فلا يرد شريح عليه .

فيقول زياد لشريح : ما ترى فى هذا الحكم ؟!

حتى أتاه رجل من الأنصار فقال : إنى قدمت البصرة والخطط موجودة ، فأردت أن أختط لى ، فقال لى بنو عمِّى ، وقد اختطوا ونزلوا : أين تخرج عنا ؟! أقِم معنا ، واختَطَّ عندنا ، فوسعوا لى ، فاتخذت فيهم دارا وتزوجت ، ثم نزغ الشيطان بيننا ، فقالوا لى : اخرج عنا !

فقال زياد : ليس لكم ذلك ؛ منعتموه أن يختط ، والخطط موجودة ، وفى أيديكم فضل ، فأعطيتموه حتى إذا ضاقت الخطط أخرجتموه ، وأردتم الإضرار به !! لا يخرج من منزله .

---

(١) سلم بن زياد بن أبى سفيان أحد أمراء الأمويين وولاتهم ولاه يزيد خراسان سنة ٦١ هجرية . [المعارف : ١٥٢] .

(٢) فى عيون الأخبار [١٢٨/٣] .

فقال شريح : يامستعيرَ القِدر اردُدْها .

قال زياد : يامستعيرَ القِدْر احبِسْها ولا ترددها .

قال محمد بن سيرين : القضاء بما قال به شريح . وقول زياد حسن !

◄ فضل عقله :

ولما عزل عمر بن الخطاب زياداً عن كتابة أبى موسى ؛ قال له : أعَن عجز أم عن خيانة ؟! قال : لا عن واحدة منهما ، ولكن كرهت أن أحمل العامة على فضل عقلك !

◄ نظرته إلى مصادر التمويل :

وينظر زياد إلى دافعى «الخَرَاج» نظرة واعية فيقول : «أحسنوا إلى أهل الخراج ، فإنكم لاتزالون سماناً ما سمنوا» .

فهل آن الأوان لنفكر بهذه العقلية فى الإحسان إلى دافعى الضرائب ، وتذليل ما يعترض طريقهم من عقبات ، فلا أخذ بغير عطاء !!

◄ والحقوق قضاء !

اختصم إلى زياد رجلان فى حقّ كان لأحدهما على الآخر ، فقال المدعى : أيها الأمير ، إنه ليسطو علىَّ بخاصّة ذكر أنّها له منك !

فقال زياد : صدق ، وسأخبرك بمنفعتها له : إن يكن الحق له عليك أخذتك به ! وإن يكن لك عليه ، حكمت عليه ، ثم قضيت عنه !

◄ شعار الحكم فى مجلس زياد :

يقول الآبى فى نثر الدر :

وكان فى مجلسه الذى يأذن فيه للناس أربعة أسطر فى نواحيه :

أوّلها : الشدة فى غير عنف ، واللين فى غير ضعف .

والثانى : المحسنُ يجازَى بإحسانه ، والمسىء يكافأ بإساءته .

والثالث : العَطِيّات والأرزاق فى إبّانها ووقتها .

والرابع : لا احتجاب عن صاحب ثغر ، ولا طارق ليل .

◄ من العاقل فى نظره ؟

ويقول زياد : «ليس العاقل الذى يحتال للأمر إذا وقع ، ولكن العاقل الذى يحتال للأمر ألا يقع»[1] .

ألا ليت الذين ينتظرون حتى تقع الأحداث ثم يبدأ تحركهم يُعيدون من جديد ترتيب أوراقهم فيخططون للمدى القريب والبعيد !

◄ خبرته بالأمور :

كتب إليه معاوية : اعزل حُرَيثَ بنَ جابر ، فإنى ما أذكر قُبّته بصِفّين[2] ! إلا كانت حرارة فى جلدى !

تُرى ماذا كان موقف زياد ؟

لقد كتب إلى معاوية يقول : خَفّض عليك أمير المؤمنين ، فقد بسَقَ حُريث بُسُوقاً[3] لا يرفعه عمل ، ولا يضعه عزل !

◄ المال عند زياد وحرصه على رعايته !

ويقول زياد : لو أن لى ألف ألف درهم ، وَلِى بعير أجرب لقمت عليه قيام رجل لا يملك غيره .

ولو أن لى عشرة دراهم لا أملك غيرها ولزمنى حق لوضعتها فيه .

◄ سياسة فتح الباب !!

ولزياد رأيه فى اتخاذ الحجاب ، ومن أجل هذا يوصى ابنه بقوله : عليك

---

(١) فى العقد الفريد ٤/٢٤١ ، ولكن العاقل يحتال للأمر حتى لا يقع .

(٢) صِفّين : موضع على شاطىء الفرات دارت بها واقعة سنة ٣٧هـ بين على ومعاوية .

(٣) بسق بسوقاً : طال ، والمراد : علا شأنه .

بالحجاب ، فإنما تجرأت الرُّعاة على السباع بكثرة نظرها إليها !

◄ فقرة من خطبه :

خطب فقال :

«الأمور جارية بأقدار الله ، والناس متصرفون بمشيئة الله ، وهم بين متسخط وراضٍ ، وكلٌّ يجرى إلى أجل وكتاب ، ويصير إلى ثواب أو عقاب .

ألا رُبّ مسرورٍ لا نَسُرّه ، وخائف ضدنا لا نَضُرُّه .

◄ زياد السياسى :

كان زياد سياسياً حازماً يعرف مواضع الشدة ، ومواضع اللين ويلبس لكل حال لَبُوسها ، ويداوى كل داء بدوائه ، وقد أخذ ذلك عن الخليفة الثانى ، وكان يتأثره ، ويحب سماع الحديث عنه ، ويعمل بسنته ، ويقضى بقضائه .

لقد جعل رائده أداء الواجب والإخلاص للمصلحة العامة ، ويدل على ذلك موقفه من «معاوية» عندما أراد أخذ البيعة بولاية العهد لابنه يزيد ، فقد رأى من واجبه ألا يعين معاوية على ما يريد ، فكتب إليه كتاباً ينصح له فيه بالتريث وعدم العجلة .

وحسب زياد فخراً أن معاوية لم يخط الخطوة الأخيرة إلا بعد موت زياد .

لقد عاش زياد فى أيام فتنة واضطراب ونقلة من عصر النبوة والخلافة إلى عصر الملك والسياسة !

أخذ بالحزم .. وأداء للواجب ، ونصح لولى الأمر .. ولا نستطيع أن نتابع الروايات التى تصوره سفاكاً سفاحاً وهو الذى نال بإجماع الأخبار رضا الأئمة المهديين عمر وعثمان وعلى وثقة عمالهم : سعد ، وأبى موسى ، وابن عامر ، وابن عباس ، وإعجاب الفرس وولاءهم !

◄ زياد الإدارى البارع !

وكان زياد إدارياً بارعاً كما كان سياسياً حازماً لا يكاد يلحق به من رجال الصدر الأول إلا قليل .

وكيف لا وقد عاشر الفرس ودهاقينهم ، وسمع أخبار الأكاسرة الأولين .

عنى بعمارة فارس والعراق : فأما فارس فقد بلغه أن الساسانيين كانوا يضعون عن الناس كل عشر سنوات خراج سنة فاقتدى بهم فى ذلك ، فعمرت فارس عمارة عظيمة .

وأما العراق فعرف من أول الأمر أهمية الرى له فحفر عدة أنهار : منها نهر معقل ، ونهر الأُبُلّة ، ونهر دبيس . وأكثر من الإقطاع وإحياء الموات .

قال المدائنى : وكان يُقْطع الرجل القطيعة ويدعه سنتين ؛ فإن عمرّها وإلا أخذها منه .

وقد عمر العراق على عهده عمارة عظيمة ، روى البلاذرى : أن جباية كُوَر البصرة على عهد زياد بلغت ستين ألف ألف درهم ، كان يرسل منها إلى معاوية أربعة آلاف فقط ، وينفق الباقى فى أعطيات الجند ، وعامة ضروب الإصلاح .

وبلغت كباية كور الكوفة على عهده أربعين ألف ألف درهم كان يرسل منها إلى معاوية ثلثى ما يرسل إليه من جباية البصرة وينفق ما تبقى فى مختلف شئون الكوفة .

وعنى العناية كلها بالشرطة والجند ، فاتخذ حرساً مؤلفاً من خمسمائة رجل لا يبرحون المسجد ، وجعل الشرطة ٤٠٠٠ رجل ، وبلغت مقاتلة البصرة فى عهده ثمانين ألفاً ، ومقاتلة الكوفة ستين ألفاً .

وكان لزياد شغف بالبناء مع ذوق فيه وحب للنظافة العامة روى الحافظ ابن عساكر فى تاريخه : أن زياداً لم يكن من القراء ولا الفقهاء ، ولكن كان يعد فى الزهاد .

وقال الأصمعى : «مكث زياد على العراق تسع سنين لم يضع لبنة ، ولم يغرس شجرة» .

يريد : أنه لم يختص نفسه ببناء ، ولا زرع تعففاً وزهداً .

◄ توقيعاتـه :

وإذا كانت التوقيعات تدل على حكمة وبعد نظر وحسن تفهم للأمور ، فإننا

نرى زياداً يوقع فى قصة متظلم : « كُفيت ! » .

ووقع فى قصة رجل شكا إليه عقوق ابنه : « ربما كان عقوق الولد من سوء تأديب الوالد ! » .

◄ بين زياد وأخيه أبى بكرة :

استأذن زياد معاوية فى الحج فأذن له ، وبلغ ذلك أبا بكرة[1] ، وكان أخاه من أَمَةٍ اسمها « سُمَيّة » ، وكان قد حلف ألا يكلم زياداً حيث رجع عن الشهادة على المغيرة بن شعبة[2] ، وألا يُظله وإياه سقف بيت أبداً .

فدخل أبو بكرة دار الإمارة على زياد ، فأمر زياد بكُرْسِيَّين ، فوضعا فى صحن القصر ليمينه ، فجلس أبو بكرة على أحدهما ، وزياد على الآخر ، ومع زياد بُنَىّ له حيث مشى .

فقال أبو بكرة لابنه : تعال يابن أخى ، فجاء الصبى فجلس فى حجره فقال له : كيف أنت ؟ كيف أهلك ؟

اسمع منى يابن أخى ـ وإنما يريد أن يُسْمع زياداً ـ إن أباك هذا أحمق ، قد فجَر فى الإسلام ثلاث فجرات ما سمعنا بمثلهن :

أما أولاهن ـ فجحوده الشهادة على المغيرة ، والله يعلم أنه قد رأى ما رأينا فكتم ، وقد قال الله : ﴿ **ومن يكتمها فإنه آثم قلبُه** ﴾ [البقرة : ٢٨٣] .

فحلفت ألا أكلمه أبداً .

وأما الأخرى ـ فانتفاؤه من عبيد[3] ، وادعاؤه إلى أبى سفيان ، وأقسم لك بالله ـ يابن أخى ـ صادقاً ، ما رأى أبو سفيان « سُمَيّة » قط فى ليل ولا نهار ، ولا فى جاهلية ولا إسلام .

---

(١) هو أبو بكرة ، نفيع بن الحارث الثقفى ، أسلم وكان من فضلاء الصحابة ، وكان كثير العبادة ، سكن البصرة ، ومات بها سنة ٥١ هـ أسد الغابة ٣٨/٦ .

(٢) فى الأغانى ١٤٠/١٤ أن أبا بكرة رأى المغيرة بن شعبة ، مع امرأة اسمها رقطاء فى وضع مريب هو وثلاثة من إخوته وصحابه ، وقد شهد هو واثنان منهما عليه بالزنا ، أما زياد فشهد بأنه رأى المغيرة يطؤها ولا علم له بما وراء ذلك ، فحدّ عمر أبابكرة والشاهدين الآخرين حد القذف .

(٣) المؤرخون يسمونه (ابن سُمية أو ابن أبيه) . وكان للحارث بن كلدة الثقفى طبيب العرب ، أمة تسمى سمية قد قرنها بعبد له رومى يدعى عبيداً فولدت له زياداً هذا فى السنة الأولى من الهجرة

وأما الثالثة ـ فأعظمهن . إنه يريد أن يوافى العام الموسَم ، وأم حبيبة[1] بنت أبى سفيان زوج النبى ـ ﷺ ـ تأتى الموسم كل عام ، فإن هو أتاها ، فأذنت له كما تأذن الأخت لأخيها ، فأعظم بها مصيبة ..، وإن هى حجبته وتسترت منه فأعظم بها حجةً عليه ، ثم نهض !

فقام زياد فى إثره ، وأخذ بقميصه وقال : جزاك الله من أخٍ خيراً ، فما تركت النصيحة لأخيك على حال . وترك الحج .

◄ *زياد وبيت المال :*

دخل زياد على عثمان ـ رضى الله عنه ـ فى خلافته بما بقى عنده لبيت المال ، فجاء ابن لعثمان فأخذ شيئاً من فضة ومضى به ، فبكى زياد .. قال عثمان : ما يبكيك ؟

قال : أتيت أمير المؤمنين عمر بمثل ما أتيتك به ، فجاء ابن له ، فأخذ درهماً ، فأمر به أن ينتزع منه حتىّ أبكى الغلام ! وإن ابنك هذا جاء فأخذ ما أخذ ؛ فلم أر أحداً قال له شيئاً ..

قال عثمان : إن عمر كان يمنع أهله وقرابته ابتغاء وجه الله . وإنى أعطى أهلى وأقربائى ابتغاء وجه الله ؛ ولن تلقى مثل عمر . لن تلقى مثل عمر !![2] .

◄ *كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين !*

ويروى الجاحظ فى بيانه : عن الحسن أن زياداً بعث «الحكم بن عمرو» على خُراسان فأصاب مغنماً ، فكتب إليه زياد :

إن أمير المؤمنين «معاوية» كتب إلىّ يأمرنى أن أصطفى له كل صفراء

---

(١) أم حبيبة بنت أبى سفيان : اسمها رملة ، أسلمت وهاجرت إلى الحبشة ، وتزوجها رسول الله ـ ﷺ ـ وهى بالحبشة ، وقد وكل عنه . توفيت سنة ٤٤ هـ . أسد الغابة ٣١٥/٧ .

(٢) عبقرية عمر للعقاد .

ترى كيف كان زيدا فى الفتنة التى ظهرت على الساحة العربية ؟!

يقول التاريخ : إنه لما اضطربت أمور الدولة الإسلامية بالفتنة التى انتهت بمقتل «عثمان» ـ رضى الله عنه ـ، واستخلاف «على بن أبى طالب» ـ كرم الله وجهه ـ، وخروج أهل البصرة عليه مع عائشة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ وطلحة والزبير ، لم يحرك «زياد» فى تلك الفتن ساكناً ، ولم يَخُضْ فيها مع الخائضين ، ولا ألقى فى نارها حطباً ، بل اعتزل الفريقين كما فعل كثير غيره ، وأقام مستخفياً فى بعض دور البصرة ينتظر ماتنجلى عنه الأمور !

◄ موقف علىّ منه :

ولم يكن أمر «زياد» خافياً علَى علىّ ـ رضى الله عنه ـ فإنه بعد أن ظفر بخصومه فى وقعة «الجمل» سنة ٣٦ هـ وجاءه «عبد الرحمن بن أبى بكرة» ، وهو ابن أخى زياد لأمه مستأمِناً[١] مبايعاً ، قال له على : وأين عمك المتربص المتقاعد بى ؟!

فقال : والله ياأمير المؤمنين ، إنه لك لَوَادّ ، وإنه علَى مَسَرّتِك لحريص ، ولكن بلغنى أنه يشتكى ، أفأعلم لك علمه ثم آتيك ؟

وكتم عليٌّ[٢] مكانه حتى استأمر زياداً[٣] ، فأمره أن يُعلمه بمكانه فأعلمه .

فقال على : امش أمامى فاهدنى إليه ! ففعل ، فلما دخل عليه قال : تقاعدتَ عَنّى ، وتربَّصْت ! ووضع يده على صدره وقال : هذا وجَعٌ بيّن !!

فاعتذر إليه زياد ، فقبل عذره ، ثم استشاره علىّ ، وأراده على إمْرَة البَصْرة[٤] ، فامتنع «زياد» من قبولها وقال : بل رجل من أهل بيتك يسكن إليه الناس .. وسأكفيه وأشير عليه .

وافترقا علَى «عبد الله بن عباس» .

---

(١) طالبا الدخول فى أمن على .
(٢) أخفى عن علىّ مكان اختبائه .
(٣) أخذ رأيه وأمره .
(٤) أن يكون والياً وأميراً عليها من قِبَل علىّ .

خطبة زياد بن أبى سفيان بالبصرة
وهى الخطبة البتراء

قال أبو الحسن المدائنى بسنده :

قدم زيادٌ البصرة والياً لمعاوية بن أبى سفيان سنة ٤٥ هـ ، وضم إليه خراسان ، وسجستان ، والفِسق بالبصرة كثير فاشٍ وأموال الناس منتهبة ، فصعد المنبر ، فخطب خطبة «بتراء» لم يحمد الله فيها[١] ؛ وقال :

مقدمة يحدد فيها زياد معاصيهم :

«أما بعدُ ..، فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغَىّ[٢] الموفى[٣] بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتابَ الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب[٤] الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته[٥] ، فى الزمن السَّرْمَدِىّ[٦] الذى لا يزول» .

توبيـــخ !

أتكونون كمن طرَفت[٧] عينَيْه الدنيا ، وسدّت مسامعَه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تُسْبَقُوا إليه ، مِنْ تَرْكِكم الضعيفَ يُقهر ، ويُؤخذ مالُه ، والضعيفةَ المسلوبةَ فى النهار المبصر ، والعددُ غير قليل .

ألم يكن منكم نُهاةٌ[٨] تمنع الغُواة[٩] عن دَلَجِ الليل[١٠] وغارة النهار ؟! قرّبتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر وتُغْضُون على المختلس .

كل امرىء منكم يَذُبُّ[١١] عن سفيهه ، صنيعَ من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً[١٢] .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ .
(٢) الغىّ : الضلال .
(٣) الموفى : المشرف .
(٤) الجزاء على أعمال الخير
(٥) المعصية : الزّلة .
(٦) الأزلى الأبدى .
(٧) طرفت عينيه الدنيا : طمحت عيناه إلى الدنيا وزخرفها ، فشُغِلتا بها عن الآخرة .
(٨) النُّهاة : الزاجرون المانعون .
(٩) الغُواة : الظالمين .
(١٠) دَلَج الليل : السير فيه .
(١١) يذب : يدافع .
(١٢) المعاد : الآخرة .

ترى كيف كان زيدا فى الفتنة التى ظهرت على الساحة العربية ؟!

يقول التاريخ : إنه لما اضطربت أمور الدولة الإسلامية بالفتنة التى انتهت بمقتل «عثمان» ـ رضى الله عنه ـ، واستخلاف «على بن أبى طالب» ـ كرم الله وجهه ـ، وخروج أهل البصرة عليه مع عائشة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ وطلحة والزبير ، لم يحرك «زياد» فى تلك الفتن ساكناً ، ولم يَخُضْ فيها مع الخائضين ، ولا ألقى فى نارها حطباً ، بل اعتزل الفريقين كما فعل كثير غيره ، وأقام مستخفياً فى بعض دور البصرة ينتظر ماتنجلى عنه الأمور !

◄ موقف علىّ منه :

ولم يكن أمر «زياد» خافياً علَى علىّ ـ رضى الله عنه ـ فإنه بعد أن ظفر بخصومه فى وقعة «الجمل» سنة ٣٦ هـ وجاءه «عبد الرحمن بن أبى بكرة» ، وهو ابن أخى زياد لأمه مستأمِناً[١] مبايعاً ، قال له على : وأين عمك المتربص المتقاعد بى ؟!

فقال : والله ياأمير المؤمنين ، إنه لك لَوَادّ ، وإنه علَى مَسَرّتِك لحريص ، ولكن بلغنى أنه يشتكى ، أفأعلم لك علمه ثم آتيك ؟

وكتم عليًّا[٢] مكانه حتى استأمر زياداً[٣] ، فأمره أن يُعلمه بمكانه فأعلمه .

فقال على : امش أمامى فاهدنى إليه ! ففعل ، فلما دخل عليه قال : تقاعدتَ عَنّى ، وتربَّصْت ! ووضع يده على صدره وقال : هذا وجَعٌ بيّن !!

فاعتذر إليه زياد ، فقبل عذره ، ثم استشاره علىّ ، وأراده على إمْرَة البَصْرة[٤] ، فامتنع «زياد» من قبولها وقال : بل رجل من أهل بيتك يسكن إليه الناس .. وسأكفيه وأشير عليه .

وافترقا علَى «عبد الله بن عباس» .

---

(١) طالبا الدخول فى أمن على .
(٢) أخفى عن علىّ مكان اختبائه .
(٣) أخذ رأيه وأمره .
(٤) أن يكون والياً وأميراً عليها من قِبَل علىّ .

إلا أن عليًّا ولّى زياداً خَراج البصرة ، وبيت مالها ، وأمر ابن عباس أن يسمع منه .

◄ ولاؤه لعلىّ حتى قتله !

من ذلك الوقت أصبح زياد من أشد عمّال علىّ إخلاصاً له ، وقد لبث على ولائه وإخلاصه له إلى أن انتهت حياة على نفسه .

◄ مقدرة زياد ودهاؤه وسعة حيلته !

لما قُتِل محمد بن أبى بكر بمصر سنة ٤٩ هـ واضطراب الأمر علَى علىّ خرج إليه بالكوفة «عبد الله بن عباس» بعد أن استخلف «زياداً» على البصرة .

ودهمَ زياداً غداة رحيل «ابن عباس» أمرٌ عظيم ؛ فإن «معاوية» أنفذ إلى «البصرة» «عبد الله بن الحضرمى» ناعياً مقتل «عثمان» ، ومحركاً لأهل البصرة علَى علىّ .

ونظر «زياد» ، فوجد نفسه فى قِلّة ، وأن أمر «البصرة» يوشك أن يذهب من يده ، فأعمل الرأى والحيلة !

ولما كان «ابن الحضرمى» قد نزل فى «بنى تميم» ، فإن زياداً أسرع فنزل ومعه الأموال فى قبيلة «الأزد» المعادية ـ هى وحليفتها : «بكر بن وائل» ـ لتميم .

وكان لنزوله فى «الأزد» معنى التحرم بالجوار المقدس عند العرب ، فقد تكفلت «الأزد» بالذّود عنه كائناً ما كان الأمر !

وهنا كتب زياد إلى علىّ يخبره بالحال ويستمدّه[1] ، فصوب علىّ رأيَه ، وأنفذ إليه مدداً مع «جارية بن قدامة السعدى التميمى» .

وقد استطاع «جارية» أن يرد قومه عن اتّباع «ابن الحضرمى» ، ثم سار إلى «ابن الحضرمى» فقضى عليه وعلى أصحابه !

ورجع «زياد» إلى دار الإمارة موفور النفس والمال !

---

(١) يطلب منه مَدداً ليواجه الموقف .

وجاء فى رسالة من معاوية إلى زياد قوله :

«أُقسِم ألا أُوتَى بك إلا فى زَمّارة[1] ، تمشى حافياً من أرض فارس إلى الشام ، حتى أقيمك فى السوق ، وأبيعك عبداً !» .

وفى رسالة من زياد إلى معاوية قوله :

«لولا حلم ينهانى عنك ، وخوفى أن أُدْعى سفيهاً ، لأثرت لك مخازىَ لا يغسلها الماء .. فإن كنتُ ابن سُمَيّة ، فأنت ابن حمامة»[2] .

وراح زياد يقدر ويفكر ... ولكن !! وآهٍ مما بعد لكن !! ولكنّ زياداً رأى بثاقب ذهنه ، وبعيد نظره أن الصراع العنيف الناشب بين «على» و «معاوية» لابد له من نهاية ، يتغلب فيها أحدهما على الآخر ، وأن كِفّة «معاوية» ترجح كِفة «على» ، ورأى فى الوقت نفسه أنه قد سار أمداً بعيداً فى إحفاظ «معاوية» بأخذه جانب «على» ، هذا إلى مضاضة كان يحسها فى نفسه تجعله لا يسارع إلى «معاوية» إذا تم له الأمر ، فأولى له أن يحتاط لنفسه إذا ما وقع المحذور ، فيتحصن فى مكانه الحريز ، وبين أظهر الفرس الذين غدوا معجبين به أيما إعجاب ، ثم يفاوض «معاوية» وهو فى حِصنه ، ويساومه مساومة النّد للنّد ، ولا ينزل إليه إلا على شروط يمليها هو عليه .

وقد صدقت فراسة «زياد» ، ولكن على نحوٍ ما كان يخطر له ببال !

ففى سنة ٤٠ هـ قتل أمير المؤمنين «على بن أبى طالب» ، وأصبح «زياد» و «معاوية» فى حقيقة الأمر وجهاً لوجه .

وهنا نجد رجلين متعاديين عداء غرياً ، كلاهما لم يتعمد جناية على الآخر ، ومع ذلك فمسافة الخُلف بينهما شديدة البعد !

لقد انتقل زياد إلى القلعة وتحصن بها ومعه الأموال سنة ٤١ هـ .

انتظاراً للفرصة المواتية ، واللحظة الحاسمة !

◄ تأتى الرياح بما لا يَشتهى السُّفُن !

ولكن فراسة زياد لم تصدق هذه المرة ، فسرعان ما نزل الحسن عن حقه فى

---

(١) زمّارة : جماعة تُزَمِّر .

(٢) أدب السياسة فى العصر الأموى للدكتور الحوفى .

قال أبو سفيان : أما والله إنى لأعرف أباه ، والذى وضعه فى رحم أمه .

فقال له على : ـ رضى الله عنه ـ مَهْ ياأبا سفيان ، فإنك تعلم أن عُمرَ بالمساءة إليك سريعٌ !

فلما كان زمن «على» ـ رضى الله عنه ـ وَوُلّى زياد فارسَ ، وضبطها وعرف ذلك «معاوية» ، كتب إليه :

أما بعد ، فإنه غَرّتْك قلاعٌ تأوى إليها بالليل كما تأوى الطيرُ إلى وكورها ، وآيمُ الله ، إنه لولا انتظارى بك ما الله أعلم به ، لقلت كما قال العبد الصالح (سليمان ـ عليه السلام ـ) : ﴿ **فلنأتينهم بجنود لا قِبَل لهم بها ولنُخرجنّهم منها أذلة وهم صاغرون** ﴾ [النمل : ٣٧] .

وكتب فى أسفل كتابه شعراً يقول فيه :

تنسى أباك وقد خفّت نعامَتُه
إذْ تخطبُ الناسَ والوالى لنا عُمَرُ !!

فقام زياد فخطب ، ثم قال :

« والعجب كل العجب أن ابن آكلة الأكباد[1] ، ورأس النفاق ، يهددنى ، وبينى وبينه ابن عم رسول الله ـ ﷺ ـ وزوج سيدة نساء العالمين ، وأبو السِّبطين : (الحسن والحسين) ، وصاحب الولاء والمنزلة والإخاء !!

أما والله لو يأذن لى فيه لوجدنى أحمر محِشًّا[2] ضَروباً بالسيف » .

وكتب إلى على ـ رضى الله عنه ـ بما كتب إليه معاوية ، فكتب إليه على ـ رضى الله عنه ـ:

«أما بعد ، فإنى ولّيْتُك ما ولّيْتُك ، وأنا أراك لذلك أهلاً ، وإنه قد كانت من أبى سفيان فلتة لزمان غَبَر من أمانى التيه[3] ، وكذب اليقين ، لم تستوجب بها ميراثاً ، ولم تستحق بها نسباً ، وإن معاوية يأتى الرجل من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، كالشيطان الرجيم ، فاحذره ، ثم احذره ، والسلام ! »

---

(١) آكلة الأكباد : هند أم معاوية .

(٢) محشًّا : أى موقداً للحرب .

(٣) التيه : الحيرة ، أو التكبر .

وجاء فى رسالة من معاوية إلى زياد قوله :

«أُقسِم ألا أُوتَى بك إلا فى زَمّارة[1] ، تمشى حافياً من أرض فارس إلى الشام ، حتى أقيمك فى السوق ، وأبيعك عبداً !» .

وفى رسالة من زياد إلى معاوية قوله :

«لولا حلم ينهانى عنك ، وخوفى أن أُدْعى سفيهاً ، لأثرت لك مخازىَ لا يغسلها الماء .. فإن كنتُ ابن سُمَيّة ، فأنت ابن حمامة»[2] .

وراح زياد يقدر ويفكر ... ولكن !! وآهٍ مما بعد لكن !! ولكنّ زياداً رأى بثاقب ذهنه ، وبعيد نظره أن الصراع العنيف الناشب بين «على» و «معاوية» لابد له من نهاية ، يتغلب فيها أحدهما على الآخر ، وأن كِفّة «معاوية» ترجح كِفة «على» ، ورأى فى الوقت نفسه أنه قد سار أمداً بعيداً فى إحفاظ «معاوية» بأخذه جانب «على» ، هذا إلى مضاضة كان يحسها فى نفسه تجعله لا يسارع إلى «معاوية» إذا تم له الأمر ، فأولى له أن يحتاط لنفسه إذا ما وقع المحذور ، فيتحصن فى مكانه الحريز ، وبين أظهر الفرس الذين غدوا معجبين به أيما إعجاب ، ثم يفاوض «معاوية» وهو فى حِصنه ، ويساومه مساومة النّد للنِّد ، ولا ينزل إليه إلا على شروط يمليها هو عليه .

وقد صدقت فراسة «زياد» ، ولكن على نحوٍ ما كان يخطر له ببال !

ففى سنة ٤٠ هـ قتل أمير المؤمنين «على بن أبى طالب» ، وأصبح «زياد» و «معاوية» فى حقيقة الأمر وجهاً لوجه .

وهنا نجد رجلين متعاديين عداء غريباً ، كلاهما لم يتعمد جناية على الآخر ، ومع ذلك فمسافة الخُلف بينهما شديدة البعد !

لقد انتقل زياد إلى القلعة وتحصن بها ومعه الأموال سنة ٤١ هـ .

انتظاراً للفرصة المواتية ، واللحظة الحاسمة !

◄ تأتى الرياح بما لا يَشتهى السُّفِن !

ولكن فراسة زياد لم تصدق هذه المرة ، فسرعان ما نزل الحسن عن حقه فى

---

(١) زمّارة : جماعة تُزَمّر .

(٢) أدب السياسة فى العصر الأموى للدكتور الحوفى .

الخلافة لمعاوية ـ حقناً للدماء ـ وقَدِم «معاوية» الكوفة ليُنهى أمر العراق والمشرق جميعاً ، وخلا ما بين «زياد» و «معاوية» مرة أخرى ، يجاذب زياداً الحبل ، ولكن فى غير تهديد ولا وعيد .

داهيتان يتصارعان كلاهما بعيد النظر واسع الحيلة ، عظيم الدهاء !

غير أن معاوية ـ من غير شك ـ كان أستاذ فن الدهاء فهو أعظم الرجلين دهاءً ، وأوسعهما حيلة !

لقد كان معاوية بالطبع هو البادىء بفتح باب المفاوضة والمراوضة !

◄ معاوية يكتب إلى زياد :

وهنا بدأ معاوية يستخدم حيلته ودهاءه :

كتب إلى زياد يدعوه أن يقدم عليه لكى يحاسبه على ما فى ذمته من أموال الدولة تاركاً له أن يقرر فيما بعد الإقامة عنده أو العودة إلى مكانه !

◄ فماذا فعل زياد ؟

لقد أصَمَّ أُذُنَه عن تلك الدعوة ، وكأن شيئاً لم يكن ؟ وهنا راح معاوية يجرب سياسةَ العُنْف بعد أن جرب سياسة اللين !

اتصل بعامله على البصرة «بُسْر بن أرطاة» وأمره أن يأخذ الأكابر من أولاد زياد ويحبسهم .

كما أصدر أمره إلى عامله على الكوفة «المغيرة بن شعبة» بالتحرك نحو البصرة للاستيلاء على الأموال الخاصة بزياد وتعذيب «عبد الرحمن بن أبى بكرة» الذى يضع يده عليها إن هو امتنع من أدائها .

ترى هل لانت لزياد قناة ؟

يقول التاريخ : إن زياداً لم تلن له قناة أمام هذا الجد من معاوية ! وهَمّ «بُسْر» بأن يقتل أبناء زياد فعلاً لولا أن تدخل فى الأمر أخوه لأمه «أبو بكرة» على الرغم مما بينه وبين «زياد» من جفوة وقطيعة منذ تلك الشهادة التى شهدها «زياد» فى حادث «المغيرة» ، فأنقذته من إقامة الحد عليه !

تدخل «أبو بكرة» فى الأمر وشفع لدى «معاوية» فى أبناء زياد فشفعه

فيهم[1] ، وكتب إلى «بُسْر» أن يخلى سبيلهم .

وتعقَّد الموقف بين الداهيتين : «زياد» و «معاوية» ، واهتم معاوية لأمر زياد[2] ، وضاق به ذرعاً ، وكادت «شَعْرَتُه» المشهورة تنقطع بينهما وقد تجاذباه !! لولا أن تداركها داهية ثالث هو «المغيرة بن شعبة» !! كما أشرنا إلى هذا الدور من قبل عند الكلام على دهاء المغيرة .

إن معاوية يثق بالمغيرة فهو عامله على الكوفة ، ولزياد عند المغيرة يد لا ينساها منذ درأ عنه الحد !

فمالَه لا يتطوع للسفارة بين الداهيتين ويُبْقى على «شَعْرة معاوية» سليمة متينة ؟!

قالوا : إنه دخل يوماً على «معاوية» وهو بالكوفة ، فقال معاوية حين وقع نظره عليه :

إنما مـــــــــوضعُ سرِّ المرء إن باح بالســر أخـوه المنتصـح
فإذا بُحـتَ بسـرٍّ فإلـى ناصـح يكتمـه أو لاتبـح

فقال : ياأمير المؤمنين !

إن تستودعنى تستودع ناصحاً شفيقاً ، ورعاً وثيقاً ، فماذاك ؟ قال : قد ذكرتُ زياداً واعتصامه بأرض فارس وامتناعه بها فلم أنم ليلتى !!

فأراد «المغيرة» أن يهون من شأن «زياد» فقال : مازياد هناك[3] !!

فقال معاوية : داهية العرب ، معه الأموال ، مُتَحَصِّنٌ بقلاع فارس يدبر الحيل ، ويتربص !

ما يؤمننى أن يبايع لرجل من أهل هذا البيت ، فإذا هو قد أعاد علىّ الحربَ جذعة[4] ؟!

قال المغيرة : أتأذن لى ياأمير المؤمنين فى إتيانه ؟

---

(١) قبل شفاعته .
(٢) أصابه الهم والحزن
(٣) للتهوين من أمره !
(٤) يقال : أعدت الأمر جذعاً : جديداً كما بدأ .

قال : نعم ؛ فأْتِه وتلطّف له !

فأتى المغيرة زياداً ، وأعلمه بنزول «الحسن» عن الأمر ، وأن الأَوْلى له أن يصل حبله بحبل معاوية ، ومازال به حتى جنح زياد إلى السِّلم ، وأخبره بأنه شاخص إلى معاوية !

وهنا راح زياد يهيىء الأذهان فى فارس ويحولها معه حيث يميل .

وهنا يكمن الدهاء والخبرة بنفوس البشر ، وتتجلى مواهب زياد .. تُرى ماذا فعل لتحقيق هذا التحول ؟!

▣ خطبة زياد التمهيدية ▣

لما بدأ زياد يجنح إلى معاوية[1] ، أراد أن يهيىء الناس فى فارس ليجنحوا معه ، فخطب فيهم خطبةً تدل على دهائه ، وخبرته بنفوس البشر !

مَهَّد بها لتحوله فى غير تصريح ولا كشف ، وقد وصفها هو نفسه فى كتابه إلى معاوية بأنها :

«يعيا بها الخطيبُ المِدْرَه[2] ، تركت من حَضَر ، لا أهل وِرْدٍ[3] ولا صَدَر كالمتحيرين بمَهْمَهٍ ضلّ بهم الدليل ، وأنا على أمثال ذلك قدير» .

وقد جاء فيها : «أيها الناس ، ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم ، وارغبوا إلى الله فى دوام العافية لكم ؛ فقد نظرت فى أمور الناس منذ قتل عثمان ، وفكرت فيهم ، فوجدتهم كالأضاحى فى كل عيد يُذبحون !

ولقد أفنى هذان اليومان : «يوم الجمل» و «صِفّين» ، ما يُنيف على مائة ألف ! كلهم يزعم أنه طالب حق ، وتابع إمام ، وعلى بصيرة من أمره ، فإن كان الأمر هكذا فالقاتل والمقتول فى الجنة .

---

(١) كان والياً لعلىٍّ على فارس ، ثم تولى لمعاوية على البصرة من سنة ٤٥ ، ثم عليها وعلى الكوفة سنة ٥١ بعد المغيرة بن شعبة .

(٢) المِدْرَه : زعيم القوم وخطيبهم المتكلم عنهم والمحامى والسيد الشريف .

(٣) أهل الوِرْد : من يردون الماء . وأهل الصَّدَر : من يصدرون عن الماء بعد ورودهم عليه . وغيرهما قد ضل طريقه .

كلا .. ليس كذلك ، ولئن أشكل الأمر ، والتبس على القوم .

وإنى لخائف من أن يرجع الأمر كما بدأ ، فكيف لامرىء بسلامة دينه ؟!

وقد نظرت فى أمر الناس ، فوجدت أحمد العاقبتين العافية ، وسأعمل فى أموركم ما تحمدون عاقبته ومغبته ، فقد حمدتُ طاعتكم إن شاء الله» .

وعندئذ توجه زياد للقاء معاوية وهو مطمئن إلى من هم وراءه !

فماذا كان عند ذاك اللقاء ؟!

◄ لقاء الداهيتين !

عندما قدم زياد على «معاوية» بدمشق سنة ٤٣ هـ رفع إليه حساب فارس، فتلطف له معاوية ، وصدق كل ما قاله ، ثم أنزله الكوفة بناء على رغبته !

لكن هل كان «معاوية» آنذاك مطمئن القلب من ناحية «زياد» ؟ وهل ركن إليه كل الركون ؟

يقول التاريخ : إن «معاوية» لم يركن إلى «زياد» كل الركون ، فقد كتب إلى «المغيرة بن شعبة» يأمره أن يأخذ «زياداً» ورءوس أضحاب علىّ بالكوفة كـ «حُجْر بن عدى الكندى» و «عمرو بن الحمق» بحضور صلاة الجماعة ، فكانوا يصلونها معه .

◄ دهاء معاوية لا يقف عند حد !

ولقد كان «معاوية» أدهى من أن يقف فى أمر زياد عند هذا الحد ، إنه يأمل فيما هو أبعد وأبعد !!

لقد أراد أن يستخلصه لنفسه ، ويجتذبه إلى جانبه جملة ! وبذلك يتيسر له الانتفاع بكفايته ومواهبه العظيمة ! ولكن كيف السبيل إلى ذلك قبل أن يمحو ما كان يحسه زياد من المضاضة ؟!

لابد من أن يعلن على رءوس الأشهاد صحة ما كان يتهامس به الناس من نسبة زياد إلى أبى سفيان !

إن زياداً حتى ذلك الوقت لا يُعْرَف له أبٌ على التعيين ، فبعضهم كان ينسبه إلى «عبيد» ، وهو عبد رومى كان للحارث بن كلدة ، وبعضهم كان ينسبه إلى

أبى سفيان ، وبعضهم كان ينسبه إلى أمه ، فيقول : «زياد بن سُمَيّة» .

وبعضهم يسميه «زيادَ بن أبيه» أياً كان ذلك الأب . إلا أن ذلك الغموض فى النسب لم يلحق زياداً منه سبة ولا عار ، فقد بلغ أسنى المراتب ، وهذا مما يدل على سماحة السياسة فى ذلك الزمان وسعة أفقها .

فما كان من معاوية إلا أن أخذ بإقرار أبى سفيان ، وبشهادة شهود شهدوا ببنوة زياد لأبى سفيان ، وأعلن فى الآفاق أن «زياداً» . أخوه لأبيه .

ولقد أثار معاوية بعمله هذا دهشة الرأى العام ، وامْتِعَاضَ بنى أمية ، وسخط بعض رجال الفقه والحديث ، فقد رأوا فيما فعل مخالفة لقضاء الرسول ـ ﷺ ـ بأن الولد للفراش وللعاهر الحجر !

وقد يكون معاوية نظر إلى أن هذه المسألة وقعت وقائعها الأصلية قبل الإسلام أبى سفيان وأن الإسلام حين جاء حكم بصحة أنساب الجاهلية الصادرة عن نظمهم فى الزواج ، وإن لم يقر هذه النظم وعدها سفاحاً .

لقد كان معاوية سياسياً راح يتوخى الصالح العام الذى كان يقضى باصطناع تلك الشخصية الفذة ، والانتفاع بها فى إدارة الدولة ، وعندما فشت القالة واشتد النكير عليه قام فى الناس خطيباً فقال :

«أما والله لقد علمت العرب أنى كنت أعزها فى الجاهلية وأن الإسلام لم يزدنى إلا عزاً ، وإنى لم أتكثر بزياد من ذِلّة ، ولكن عرفت حقاً فوضعته موضعه» .

ويقول المؤرخون : إن يكن «معاوية» قد أظهر فى هذه المسألة شيئاً ، فقد أظهر شجاعة أدبية نادرة المثال ، وسعة فكر لا يقاس بها ضيق فكر الخليفة المهدى العباسى الذى أمر فى سنة ١٦٠ بإخراج آل زياد من ديوان قريش وردهم إلى ثقيف .

ويقولون أيضاً : إن زياداً لما قدم على معاوية جمع معاوية الناس ، وصعد على المنبر ، وأصعد معه زياداً ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : «أيها الناس ، إنى قد عرفت شبهنا أهلَ البيت فى زياد ، فمن كانت عنده شهادة ، فليقم بها ، فقام الناس ، فشهدوا أنه ابن أبى سفيان ، وأقرّبه قبل موته !» .

ثم قام زياد ، وأنصت الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إن

معاوية والشهود قد قالوا ما سمعتم ، ولست أدرى حقَّ هذا من باطِلِه ، وهو والشهود أعلم بما قالوا . وإنما «عبيد» أب مبرور ، أو والد مشكور ، ثم نزل .

◄ الرجل المناسب فى المكان المناسب :

سوف يظل عام ٤٤ هـ عاماً حاسماً فى حياة زياد ، فقد أصبح أخاً للخليفة معاوية .

وسوف يظل عام ٤٥ هـ عاماً حاسماً فى حياة معاوية فقد آن له أن يستريح من ناحية البصرة التى اختلت أمورها اختلالاً كبيراً ، وكثر فى نواحيها عبث الخوارج ، والتلصص وقطاع الطرق ، وعجز كل من ولاهم معاوية أمرها عن إصلاح حالها ، وأصبحت الحاجة ماسّة إلى رجل حازم عليم بالسياسة والإدارة .

وهنا رأى معاوية أن ينتفع بأخيه الجديد ومواهبه ، فليس هناك من هو أقدر منه على تحمل هذا العبء من زياد بن أبى سفيان !

لقد ولاه فى سنة ٤٥ هـ على البصرة ، وخُراسان ، وسجستان ثم جمع له الهند (ثغر الأُبُلّة وما إليها) ، والبحرين وعمان .

فكيف تسنى لزياد أن يعيد المياه إلى مجاريها ويخمد الفتنة فى مهدها ويعيد الأمن والطمأنينة إلى ربوع البلاد !!

خطبة زياد بن أبى سفيان بالبصرة
وهى الخطبة البتراء

قال أبو الحسن المدائنى بسنده :

قدم زيادٌ البصرة والياً لمعاوية بن أبى سفيان سنة ٤٥ هـ ، وضم إليه خراسان ، وسجستان ، والفِسق بالبصرة كثير فاشٍ وأموال الناس منتهبة ، فصعد المنبر ، فخطب خطبة « بتراء » لم يحمد الله فيها[١] ؛ وقال :

مقدمة يحدد فيها زياد معاصيهم :

« أما بعدُ ..، فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغَىّ[٢] الموفى[٣] بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتابَ الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب[٤] الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته[٥] ، فى الزمن السَّرْمَدِىّ[٦] الذى لا يزول » .

توبيـــخ !

أتكونون كمن طَرَفت[٧] عينَيْه الدنيا ، وسدّت مسامعَه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تُسْبَقُوا إليه ، مِنْ تَرْكِكم الضعيفَ يُقهر ، ويُؤخذ مالُه ، والضعيفةَ المسلوبةَ فى النهار المبصر ، والعددُ غير قليل .

ألم يكن منكم نُهاةٌ[٨] تمنع الغُواة[٩] عن دَلَجِ الليل[١٠] وغارة النهار ؟! قرّبتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر وتُغْضُون على المختلس .

كل امرىء منكم يَذُبُّ[١١] عن سفيهه ، صنيعَ من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً[١٢] .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ .
(٢) الغىّ : الضلال .
(٣) الموفى : المشرف .
(٤) الجزاء على أعمال الخير
(٥) المعصية : الزلة .
(٦) الأزلى الأبدى .
(٧) طرفت عينيه الدنيا : طمحت عيناه إلى الدنيا وزخرفها ، فشُغِلتا بها عن الآخرة .
(٨) النهاة : الزاجرون المانعون .
(٩) الغواة : الظالمين .
(١٠) دَلَج الليل : السير فيه .
(١١) يذب : يدافع .
(١٢) المعاد : الآخرة .

ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يَزَل بكم ما ترون من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حُرَم الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً[1] فى مكانس الرِّيَب .

◄ إعلان العقوبات التى أحدثها لذنوبهم :

حرام علىّ الطعام والشراب حتى أسويهَا بالأرض هدماً وإحراقاً !!

إنى رأيت هذا الأمر لا يصلح إلا بما صَلُح به أوّلُه ، ليّن فى غير ضُعف ، وشدة فى غير عُنف !

◄ من مظاهر ظلمه :

وإنى أقسم بالله لآخذَنّ الولىَّ بالمولى[2] ، والمقيم بالظاعن[3] ، والمُقْبِل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : «انْجُ سَعْد فقد هلك سعيد» أو تستقيم لى قناتكم[4] .

◄ استطراد بتأكيد العزم :

إن كذبة الأمير بلقاء[5] مشهورة ، فإذا تعلقتم علىّ بكذبة فقد حلّت لكم معصيتى .

فإذا سمعتموها منى فاغتمزوها فىّ . واعلموا أن عندى أمثالها .

من نُقِبَ منكم عليه ، فأنا ضامن لما ذهب منه . فإيّاىَ ودَلَج الليل !؛ فإنى لا أوتى بمُدْلِج[6] إلا سفكت دمه .

وقد أجّلتكم فى ذلك بمقدار ما يأتى الخبر الكوفة ، ويرجع إليكم . وإياى

---

(١) الكنوس : المختبئون . المكانس : الملاجىء ، وتكون للوحوش تختبىء فيها . الرّيَب : التهم . جمع ريبة . أى مختبئون فى مخابىء المعصية والفساد .

(٢) الولى : السيد . المولى : العبد .

(٣) الظاعن : المسافر .

(٤) أو ناصبة لأنها أتت بمعنى إلى أن . وأصل المثل : أن سعداً وسعيداً ابنى ضَبّة خرجا يطلبان إبلاهما فرجع سعد ولم يرجع سعيد ، فكان ضبة إذا رأى سواداً بالليل قال : سعد أم سعيد ؟

(٥) بلقاء : أى واضحة ظاهرة من البلق وهو سواد وبياض .

(٦) مدلج : سائر بليل .

ودعوى الجاهلية[1] ؛ فإنى لا أجد أحداً دعابها إلا قطعتُ لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن .

وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة : فمن غرّق قوماً غرّقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن نقَب عن بيت نقَبْنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنّاه فيه حياً[2] !

فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكُفُفْ عنكم يدى ولسانى .

ولا تظهر من أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه .

◄ إيهامهم بالعدل واللين :

وقد كان بينى وبين أقوام إحن[3] ، فجعلت ذلك دَبْر[4] أذنى ، وتحت قدمى ، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً ، ومن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته .

إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتك[5] له ستراً ، حتى يبدى لى صفحته[6] ، فإذا فعل ذلك لم أناظره .

فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدومنا سيُسَرّ ، ومسرور بقدومنا سيبتئس .

أيها الناس ، إنا قد أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفىء الله الذى خوّلنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم العدل فيما وَلينا ، فاستوجبوا عدلنا ، وفيئنا بمناصحتكم لنا .

واعلموا أنى مهما قصرت عنه ، فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ، ولو أتانى طارقاً بليل ، ولا حابساً عطاء ، ولا رزقاً عن إبّانه ، ولا مجمّراً لكم بعثاً[7] .

---

(١) دعوى الجاهلية : دعوى العصبية والنزق ، والتعصب الأعمى للقبيلة ، والانحياز للقريب دون رعاية للصالح العام .

(٢) وصدق فيه قول الشاعر :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقسُ أحياناً على من يرحم !

(٣) الإحن : الأحقاد .

(٤) دَبْر : خلف .

(٥) أهتك : أشق .

(٦) يبدى لى صفحته : يكاشفنى

(٧) يقال : جَمرّ الجيش : جمعهم فى الثغور ، وحبسهم عن العودة إلى أهليهم .

◄ **تحـذيـر :**

وايم الله إن فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاى» .

◄ **تعليق السامعين على الخطبة :**

(أ) فقام عبد الله بن الأهتم ، فقال : أشهد أيها الأمير ، لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب ، فقال له : كذبت ، ذاك نبى الله داود ـ عليه السلام ـ.

(ب) وقام إليه الأحنف بن قيس فقال : إنما الثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإننا لا نُثنى حتى نبتلى ، ولا نحمد حتى نُعْطَى .

فقال زياد : صدقت .

(جـ) فقام أبو بلال يهمس وهو يقول : أنبأنا الله ـ جلّ وعَزّ ـ بغير ما قلت : قال الله تعالى : ﴿ **وإبراهيم الذى وفّى * ألا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يُرى * ثم يُجزاه الجزاء الأوفى** ﴾ [النجم : ٣٧ ـ ٤١]

وأنت تزعم أنك تأخذ الصحيح بالسقيم ، والمطيع بالعاصى ، والمقبل بالمدْبِر !!

فسمعها زياد ، فقال : إنا لا نبلغ ما نريد بأصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوضاً[1] .

وفى الخطبة كما ترى ـ اجتراء على عقوبات لم يسنها الدين ، وترفع على المحكومين !

◄ **القول والفعل :**

لقد أعلن زياد عزمه على هدم المواخير ودور الفساد .. ونهى عن دلج الليل نهياً باتاً ضرباً على أيدى المتلصصة وقطاع الطرق من الأعراب .

ونهى عن دعوى الجاهلية منعاً لتعصب القبائل بعضها على بعض .

---

(١) أى أنه لن يتمكن من إحلال النظام ، واستتباب الأمن إلا عن طريق العنف والشدة ، ولو خالف كل مألوف ، وجاوز حد الشرع .

وأعلن تضامن الناس فى حفظ النظام

إلا أن زياداً وإن كان شدد الوطأة على أصحاب الريب والفساد فإنه سكن خواطر الصلحاء وجهد فى استمالة المنحرفين عنه ، ثم بين لهم حرصه على مصلحتهم .

وكان زياد عند قوله ، فما تعلق عليه أحد بكذبة ، ولقد أنفذ وعيده هذا فى حالات تعد على أصابع اليد الواحدة بقصد الإرهاب لا حباً فى سفك الدماء ، فاستقامت أمور البصرة ؛ ولما تم له ذلك تكلف ضبط الأمر فى نواحيها فاستكفى كل قبيلة من فيها من الخوارج ، فكسر بذلك شِرّة تلك الفرقة العاتية ، وعم الأمر أطراف البصرة ونواحيها حتى قال زياد : «لو فقد حبل بينى وبين خراسان لعرفت من أخذه !»

ولقد بلغ من ضبط زياد البصرة وأعمالها أنه لما توفى المغيرة بن شعبة سنة ٥٠ هـ لم يتردد معاوية فى ضم إمارة الكوفة وأعمالها إلى زياد .

◄ الكوفة بعد البصرة !

كان الخطر بالبصرة آتياً من قِبَل أهل الريب والفساد والخوارج وتعصب القبائل .

ولكنه بالكوفة آتٍ من قبل الشيعة الذين كانوا لا يعترفون بسلطان معاوية ، ووجدوا فى «لعن علىّ» على منابرهم فرصة لإعلان معارضتهم وسخطهم ، فكانوا يقابلون ذلك بلعن معاوية وعماله ، والترحم على أبى تراب .

ولقد رأى معاوية فيهم خطراً يتهدد حكمه ، فأمر المغيرة بن شعبة بمراقبتهم أثناء فترة ولايته وفى أخريات عهده .

لكن المغيرة بن شعبة ـ فى أخريات حياته ـ كان قد آثر الرفق واللين وحب السلامة والعافية ، فكان يكتفى من الشيعة بالإخلاد إلى السكون ، وعدم مخالفة الجماعة ، وليقولوا بعد ذلك ما شاءوا !! فلما أسندت ولاية الكوفة إلى زياد بعد وفاة المغيرة قدمها وشدد القبضة على رؤساء الشيعة : حجر بن عدى وأصحابه على الرغم من الصداقة القديمة التى كانت تربطه بهم ، ولكن الصداقة شىء ، وأداء الواجب الحكومى شىء آخر .

ولما أحس منهم المقاومة لسلطانه ، والمجاهرة بلعن معاوية وعماله والترحم علَى عليّ قبض على حُجْر بن عدى وبضعة عشر رجلاً كانوا زعماءهم وحصل على شهادة بإدانتهم وأنهم قد خالفوا الجماعة ، وشقوا عصا الطاعة ، ثم بعث بهم إلى معاوية !، ويضيق حلم معاوية فيأمُر بقتل ستة منهم فيهم حُجْر بن عدى بمرج عذراء بظاهر دمشق سنة ٥١ هـ .

▣ زيادٌ يخضع الكوفة أيضاً ! ▣

قال الشعبى : قدم زياد الكوفة ، فدنوت من المنبر لأسمع كلامه ، فلم أر أحداً يتكلم فيُحسن إلا تمنيت أن يسكتَ مخافة أن يُسيء غير زياد ؛ فإنه كان لا يزداد إكثاراً إلا ازداد إحساناً ، فقال بعد أن حمد الله :

« إن هذا الأمر أتانى وأنا بالبصرة ، فأردت أن أخرج إليكم فى ألفين من شُرَطِها ، ثم ذكرت أنكم أهل حق ، وأن الحق طالما دفع الباطل . فخرجت إليكم أهل بيتى .

فالحمد لله الذى رفع مِنَّا ما وضع الناس ، وحفظ مِنَّا ما ضيعوا .

أيها الناس ، إننا سُسْنا ، وساسنا السائسون ، وجرّبنا وجرَّبَنا المجرِّبون ، فوجدنا هذا الأمر لا يُصلحه إلا شدة من غير عنف ، ولين فى غير ضعف !

فلا أعلَمَنّ أنا أغلقنا باباً ففتحتموه ، ولا حللنا عقداً فشددتموه . وإنى لا أعدكم خيراً ولا شراً إلا وفَّيْتُ به . فإذا تعلقم لى بكذبةٍ فلا ولاية لى عليكم .

وإنى آمركم بما آمر به نفسى وأهلى ، فمن حال دون أمرى ، ضربت عنقه !

ألا وإنى لا أهتك لأحد منكم سِتْراً ، ولا أطلّع من وراء باب ، ولا أُقيلُ أحداً منكم عثرة !

قال : فحصبوه من كل جانب ، فجلس على المنبر حتى سكتوا ، وآمسكوا ثم نادى الشُّرَط ، فأخذوا بأبواب المسجد ، وألقى كرسياً على بعض الأبواب ثم عرض الناس : أربعةً أربعة يستحلفهم ، فمن حلف أنه لم يَحصِبْه تركه ، ومن أبى حبسه .

قال : فقطع يومئذ أيدى ثمانين إنساناً ممن لم يحلف .

قال الحسن البصرى : أوعد عمر بن الخطاب فعوفى . وأوعد زياد فابتُلِى .

وقال أيضاً : تشبه زياد بعمر فأفرط ! وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس !

الهـــدوء !!

وهدأت أحوال الكوفة إلى حد أن استطاع زياد أن يكتب إلى معاوية يقول : «إنى قد ضبطت العراق بشمالى ، ويمينى فارغة !» .

يعرض برغبته فى أن تضم إليه اليمامة لا الحجاز ، كما جاء فى بعض الروايات . فضم إليه اليمامة وما إليها .

ولم تطل حياة زياد بعد هذا فقد أصابه الفالج ، وتوفى فى رمضان عام ٥٣ هـ ، ودفن بظاهر الكوفة .

ومازال الناس يتحدثون عن زياد العصامى الذى يصدق فيه قول القائل :

نفس عصام سوّدت عصامـــــا وعلمتـــه الكـــرّ والإقدامـــــا

ولا ينسى الناس أبداً رفقاء الدهاء : «معاوية» و «عمرو بن العاص» و «المغيرة بن شعبة» كلما ذكروا «زياداً» .

والحمد لله أولاً وأخيراً ...

جاء فى «حسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله فى النسوة» :

اختار فى مشاجرة الأصحاب والصحابيات :

ألا يخاض فيها ، ويُحسن الظن بهم وبهن ، ولا يسلك مسلك الخوارج والروافض فى السب والشتم ، وجحد الفضائل ، وإنكار الفواضل ، فإن ذلك من عمل الشيطان ، وقد أضل جِبِلًا كثيراً من هذه الأمة ، وذهب بهم إلى الغواية !

عصمنا الله ـ تعالى ـ

أهم الأحداث التاريخية

أهم الأحداث	التاريخ الهجرى سنة	التاريخ الميلادى سنة
موت النبى ـ ﷺ ـ وخلافة أبى بكر	١٢	٦٣٢
خلافة عمر بن الخطاب	١٣	٦٣٤
وقعة القادسية	١٤	٦٣٥
فتح بيت المقدس	١٤	٦٣٥
تأسيس البصرة	١٤	٦٣٥
فتح دمشق	١٤	٦٣٥
تأسيس الكوفة	١٧	٦٣٨
فتح الشام والعراق	١٧	٦٣٨
فتح مصر	٢٠	٦٤٠
وقعة نهاوند وفتح فارس	٢١	٦٤١
خلافة عثمان	٢٣	٦٤٣
خلافة على	٣٥	٦٥٥
وقعة الجمل	٣٦	٦٥٦
موت على	٤٠	٦٦٠
خلافة معاوية بن أبى سفيان	٤١	٦٦١
موت الحسن بن على	٤١	٦٦١
خلافة يزيد بن معاوية	٦٠	٦٧٩